

شعر الجهاد

في

عصر الموحدين

شفيق محمد عبد الرحمن الرقب

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

نشر وتوزيع ،

مكتبة الأقصى

لصاحبها: أحمد الخطيب

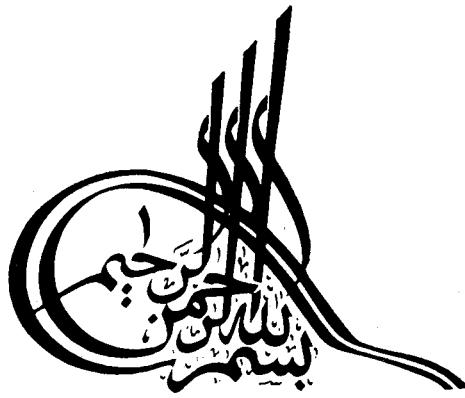
عمان - الأردن - شارع الأمير محمد - بناية مسجد أحمد وقارة

هاتف: ٢٥٦٥٢ - ص.ب ٧٧٨١

الطابعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

ماتت ٣-٣٧٧٧١-ص.ب ٨٥٧ - عمان - الأردن



مقدمة

الأحداث يذكر بعضها ببعض، إذا كان بينها روابط. فلا غرابة إذن أن يذكر الغزو الصهيوني الاستيطاني لفلسطين بالهجمة الصليبية العاتية التي تعرّضت لها الأندلس، فما أشبه الليلة بالبارحة! فكلا الغزوين انتهى باستيطان الغزاة، وتشريد أهل البلاد الإسلامية، والسعي الدائب إلى تغيير الوجه الإسلامي لتلك البلاد. وكلاهما وفد من الغرب الأوروبي: عليه يعتمد، ومنه يستمد أسباب قوته. وكلاهما يقوم على ادّعاءات فكرية مزعومة.

وقد استمر الصراع بين المسلمين والفرنجة على الأندلس حقبة طويلة، وكان لذلك أصداء واضحة في الشعر. وتصفّي هذه الدراسة الحديث عن شعر الجهاد في عهد الموحّدين. وهو عهد متميز في التاريخ والشعر: فهو في التاريخ يتميّز بقيام دولة إسلامية فنية في المغرب، وهي دولة الموحّدين، كان من أهدافها الأولى إعادة الهية إلى الوجود الإسلامي في الأندلس الذي أخذ نجمه في الأفول. كما يتميّز الصراع في هذا العهد بمحدثه، وعنفه، وموازرة الكنيسة في روما له، وإعلانها الحرب الصليبية على مسلمي الأندلس، ودعوتها أم أوروبا النصرانية إلى الاشتراك في هذه الحرب. ولعلّ الأمر الذي يلفت النظر أنّ هذا الصراع الذي احتدم في الأندلس وافقه صراع مماثل في الديار المقدّسة.

وهذا العهد يتميّز في الشعر بغزارة الانتاج، وكثرة الشعراء الذين واكبوا أحداث الصراع وسجلّوها، فكان ذلك سببا في شهرتهم في المصادر الأندلسية.

وتهدف من دراسة شعر الجهاد في عهد الموحّدين إلى تلمّس الأصداء التي تركها الصراع فيه، وإبراز قيمته في الدراسات التاريخية والاجتماعية عن ذلك العهد، وبيان الدور الذي اضطلع به الشعراء في تعبئة الأمة للوقوف في وجه العدوان، دون أن نغفل الكشف عن النواحي الجمالية في ذلك الشعر، لعل ذلك يكشف عن حال غير حال الجمود والانحطاط اللذين رمي بهما الشعر الأندلسي والمغربي في عهد الموحّدين.

ويقوم المنهج المتبع في هذه الدراسة على تحقيق النصوص من مصادرها المختلفة، والاستقراء الداخلي لها، واستخلاص النتائج منها، لذلك فإنّ أيّ تحويم حول تلك النصوص، لن يتعدّى كونه وسيلة من وسائل التفسير والتوضيح؛ ومن ثمّ كان على الدارس أن يلمّ بالظروف التي أنتجت شعر الجهاد، ذلك أنّ شعرا قيل في ظروف تاريخية محدّدة، لا بدّ أن يدرس في ضوء تلك الظروف.

وتتكوّن الدراسة من تمهيد وخمسة فصول وخاتمة: يدرس التمهيد الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة في دولة الموحّدين، ويدرس الفصل الأوّل النظرة الإسلاميّة للصراع، ودور الشعر في التعبير عنها، ويبحث الفصل الثاني في «شخصية البطل في شعر الجهاد»، والدور الذي اضطلع به في الصراع، ويتناول الفصل الثالث نظرة الشعراء إلى الصليبيين، وموقفهم منهم، والصورة التي قدموها لهم، ويبحث الفصل الرابع في مواكبة الشعر لأحداث الصراع، ومدى الاعتماد عليه مصدرا للمعلومات التاريخية عن تلك الأحداث، ويتناول الفصل الخامس تقييم شعر الجهاد، وسيكون هذا التقييم من إطارين كبيرين: — الدور الذي اضطلع به في الصراع، والأداء الفني. وتنتهي الدراسة بخاتمة تتناول النتائج التي توصل إليها الدارس.

وسيرفق بالبحث فهارس عامّة للأعلام، والقبائل والشعوب، والأماكن.

وقد استقيت مادّة هذه الدراسة من مصادر عديدة: بعضها يعود الى عصر الموحّدين، مثل: الجزء الثاني من كتاب «المنّ بالامامة». وهذا الكتاب من أهم المصادر التي وصلتنا من المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الموحّدية. فقد جاءت مادّته تركيزا على أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين حتّى سنة ٥٦٨ هـ. وقد كان مؤلّفه معاصرا للأحداث التي يرويها؛ فجاء الكتاب وصفا شافيا لها. كذلك يشتمل هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من شعر الجهاد لا توجد في مصدر غيره. كما أنّ فيه مجموعة من الرسائل والوثائق الموحّدية الصادرة عن الخلفاء أنفسهم، وهي مفيدة لدراسة النظم الإداريّة والماليّة للدولة الموحّدية.

ومن هذه المصادر :— كتاب « أعزّ ما يطلب » وهو مهّم للباحث في الأسس الفكرية التي قامت عليها الدولة الموحّدية، ومما زاد من أهميته أن مؤلّفه هو محمد بن تومرت القائم بأمر الدعوة الموحّدية .

ومنها :— كتاب « نظم الجمان » لابن القطان . وهذا الكتاب ينفرد بوثيقتين هامتين عن الدولة الموحّدية، هما :— رسالة « الكافية في براهين الإمام المهدي »، والثانية موجهة من عبد المؤمن إلى الطلبة والمشايخ والأعيان في الأندلس . وهاتان الوثيقتان مفيدتان في دراسة الأسس الفكرية التي قامت عليها الدولة الموحّدية، وأثر ذلك في الحياة الاجتماعية . ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن القطان من المؤيدين للموحّدين، الأمر الذي يجعلنا نأخذ روايته بحذر .

ومنها :— كتاب « المعجب » لعبد الواحد المراكشي . ونجد في هذا الكتاب حديثا مفصلا عن جهاد الموحّدين في الأندلس، وتصويرا لبعض النواحي الاجتماعية في تلك الدولة، وخلال ذلك كان المؤلف يضمّن كتابه شذرات شعرية تتعلق بأحداث الصراع . وقد ألف المراكشي كتابه هذا في المشرق « بغداد » بعيدا عن المؤثرات السياسية، فزاد ذلك من أهميته، حيث يبدو عنصر الحياء واضحا فيه .

ومنها : كتاب « التكملة » لابن الأبار . وقد ترجم المؤلف في هذا الكتاب لطائفة كبيرة من رجال الفكر والأدب في عصر الموحّدين : وهو مفيد في تحقيق أسماء الأعلام التي ترد أثناء الدراسة، ومعرفة الدور الذي اضطلعت به في الحياة الفكرية في ذلك العهد .

واعتمدت أيضا على مصادر قريبة من عهد الموحّدين، منها :— الجزء الثالث من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي . وأهم ما يمتاز به هذا الجزء أنه ينقل شذرات عن مؤرخين معاصرين للدولة الموحّدية لم تصلنا كتبهم، أهمها السفر الثالث من كتاب « المَن بالإمامة » . وقد أورد ابن عذارى في كتابه هذا حديثا مفصلا عن صراع الموحّدين مع الصليبيين، ومجموعة شعرية كبيرة تتعلق بأحداث ذلك الصراع .

ومن هذه المصادر: — كتاب «الأنيس المطرب بروض القرطاس» لعلي بن أبي زرع الفاسي. وهذا الكتاب مهمّ في دراسة التاريخ السياسي لدولة الموحدين.

ومن المصادر المهمّة التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة: — كتاب «الروض المعطار» لابن عبد المنعم الحميري. وهو مفيد في تحديد المواقع الجغرافية للمدن الأندلسية، وضبط أسمائها، ومعرفة التطوّرات التي مرت بها، والأحداث التي تعرّضت لها. ونجد خلال ذلك أحاديث مفيدة عن أوضاع هذه المدن خلال العهد الموحد، وما كانت تعانيه من اعتداءات الصليبيين. وقد أورد المؤلف خلال ذلك بعض الأشعار التي لم نجد لها في مصدر غيره.

ومنها: — كتاب «نفع الطيب» للمقري. وهذا الكتاب موسوعة شاملة في تاريخ الأندلس وحضارتها. أمّا أهميته بالنسبة إلى هذه الدراسة فتبدو في احتفاظه بمجموعة كبيرة من المواد التاريخية والأدبية عن عصر الموحدين، وخاصة المتعلقة بأحداث الصراع مع الصليبيين.

ونذكر بالاضافة الى المصادر السابقة: — كتاب «صلة الصلة» وكتاب «الذيل والتكملة»، وكتاب «الحلّة السيرة» وكتاب «المغرب في حلى المغرب» وكتاب «أعمال الأعلام»، وكتاب «الاستقصا»، والأجزاء المخطوطة من كتاب «الوافي بالوفيات».

ولا يفوتني أن أوجّه الشكر الجزيل إلى استاذي الدكتور عبد الكريم خليفة، الذي رعى هذه الدراسة منذ أن كانت فكرة، وأحاطها بكلّ رعايته وعنايته، فكان لي نعم الموجه الأمين، والعالم المخلص؛ فأسأل الله أن يجزيه كلّ خير.

وأخيرا، فاني أحمد الله إنّ أصبت، وأعتذر للقارىء إنّ أخطأت، وما توفيقى إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب.

شفيق الرقب

١٩٧٩م

تمهيد

الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة على عهد الموحدين

أ — الحياة السياسيّة .

ب — الحياة الاجتماعيّة .

ج — الحياة الفكريّة .

الحياة السياسية

كادت الأندلس في أواخر العهد المرابطي تعود الى سيرتها الأولى أيام الطوائف (١). فبعد وفاة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين (٢) اندلعت في أنحاء الأندلس الثورات التي لم يستطع أبناؤه السيطرة عليها. فقد قامت ثورة في قرطبة (٣)، و ثورة في غرناطة (٤)، وأخرى في مالقة (٥)، وأخرى في مرسية (٦).

أما المغرب فقد اختلت فيه أحوال الأمير علي اختلالا شديداً، «فظهرت في بلاده مناكير كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك الى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه» (٧).

كان لاضطراب الأحوال السياسية في أواخر عهد المرابطين آثار واضحة في الحياة العامة، فقد غلت الأسعار بمراكش، «وكثرت اللوازم على الرعايا بالعدوتين، وألح العدو النصراني الضربات على جميع جهات الأندلس حين علموا عجز الامارة في المغرب» (٨) فاستولوا على كثير من البلاد والحصون (٩).

- ١ - المعجب : ص ٢٧٧ .
- ٢ - ولي الأمر بعد وفاة أبيه يوسف سنة ٥٠٠ هـ، حسن السيوة، مقيم للعدل، زاهد متبتل . اضطرت أحوال دولته في أواخر عهده . توفي سنة ٥٣٧ هـ .
- انظر : القرطاس : ص ٥٠ و ص ١٦٥ ، المعجب : ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
- ٣ - الحلة السيرة : ج ٢ ص ٢٠٦ ، بغية المتمس : ص ٢٧٦ ، التكملة : ج ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ . وانظر عن قرطبة : الروض المعطار : مادة قرطبة ص ٤٥٦ .
- ٤ - الحلة السيرة : ج ٢ ص ٢١٢ ، رايات المرزبن : ص ٨٤ . وانظر عن غرناطة : تقويم البلدان : ص ١٧٧ .
- ٥ - بغية المتمس : ص ٤٢ . وانظر عن مالقة : تقويم البلدان : ص ١٧٥ .
- ٦ - المعجب : ص ٢٧٨ ، المن : ج ٢ ص ١١٥ ، بغية المتمس : ص ٤٣ . وانظر عن مرسية : تقويم البلدان : ص ١٧٩ .
- ٧ - المعجب : ص ٢٤١ .
- ٨ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٢ - ١٣ .
- ٩ - المصدر نفسه : ص ١٣ .

وفي هذه الأثناء كان المغرب الاسلامي يشهد ميلاد حركة اصلاح تجديدية تهدف الى اعادة الهبة للوجود الاسلامي في المغرب والأندلس، والعودة بالاسلام الى منابعه الصافية الأولى^(١). وقد تزعم هذه الحركة محمد بن تومرت^(٢) الذي ادعى أنه من آل البيت النبوي.

وقد بدأ محمد دعوته آمرا بالمعروف، وناهيا عن المنكر^(٣)، واستطاع ان يستميل كثيرا من القبائل اليه^(٤). وألف لها عقيدة خاصة باللسان البربري^(٥)، وربّاه تربية اسلامية^(٦)، وعبّأها تعبئة شاملة ضدّ دولة المرابطين^(٧). وقد أطلق ابن تومرت على أتباعه هؤلاء اسم «الموحدين» تعريضا بلمتونة^(٨) في أخذهم بالعدل عن التأويل وميلهم الى التجسيم^(٩).

ولما استوثق أمر ابن تومرت بين القبائل ادعى أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا^(١٠)، ونظّم أصحابه تنظيمًا فريدا^(١١)، وخاض بهم ضد المرابطين عددا من الغزوات انتصر عليهم في معظمها^(١٢).

-
- ١ - أخبار المهدي: ص ٣ و ص ١٥.
 - ٢ - هو القائم بأمر الدعوة الموحدة سنة ٥١٥ هـ. رحل الى المشرق في طلب العلم. وقيل انه التقى بالإمام الغزالي. اختلفت المصادر في نسبه، فبعضها أقر له النسب النبوي الذي ادعاه، وبعضها أنكر عليه ذلك. توفي سنة ٥٢٤ هـ.
 - انظر: الحلال المشوية: ص ٨٤. نظم الجمان. ج ٦ ص ٣٤، أخبار المهدي: ص ٢١، تاريخ ابن خلدون: ج ٦ ص ٤٦٤، المعجب: ص ٢٤٥ و ص ٢٦٢، عصر المرابطين الموحدين: ج ١ ص ١٥٨ - ١٦٤.
 - ٣ - انظر: المعجب: ص ٢٤٦ - ٢٥٤.
 - ٤ - القرطاس: ص ١٧٦ - ١٧٩.
 - ٥ - المعجب: ص ٢٥٤، مخطوط الحلال السنديسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية: ورقة ١٣.
 - ٦ - مجلة أبحاث، الجامعة الأميركية، بيروت، كانون الأول، سنة ١٩٧٠ ص ٦٧ - ٦٩.
 - ٧ - انظر: أعز ما يطلب: ص ٢٥٨ - ٢٦٦، أخبار المهدي: ص ٩.
 - ٨ - من القبائل البربرية. كان لهم دولتان عظيمتان: الزيروين بافريقية، والمرابطون في المغرب والأندلس. انظر: الاستقصاء: ج ٢ ص ٦٦، المن: ج ٢، ص ١٧٩.
 - ٩ - تاريخ ابن خلدون: ج ٦ ص ٢٢٨، مخطوط الحلال السنديسية: ورقة ١٣.
 - ١٠ - نظم الجمان: ج ٦ ص ٧٥ - ٧٧، القرطاس: ص ١٧٦.
 - ١١ - انظر: نظم الجمان: ج ٦ ص ٢٨، المعجب: ص ٢٥٥.
 - ١٢ - أثبت البيهقي تسع غزوات تمت في حياة ابن تومرت. سبعا قاده بنفسه. وواحدة، وهي ثامنتها، بقيادة البشير، والأخيرة بقيادة عبد المؤمن. أخبار المهدي: ص ٧٤ - ٧٨، وانظر القرطاس: ص ١٧٨ - ١٧٩.

إلا أنّ الأجل لم يمهل ابن تومرت طويلا ليرى نتيجة حركته، فقد توفي سنة ٥٢٤ هـ^(١)، فخلفه تلميذه عبد المؤمن^(٢) بن علي الذي لم يزل أمره يستتب، ويزيد ظهورا، حتى فتح البلاد، ودخلت في دعوته الأقطار^(٣).

وبعد أن استتبّت أحوال الدولة في المغرب أخذت ملامحها في الظهور والاستقرار، فقد أصبح على رأس الدولة خليفة يتولى أمورها، ويعاونه في ذلك السادة^(٤) من أبنائه وأقاربه الذين يستعملهم على الأقطار، وينوب عنه ولي للعهد.

وقد وضع الخليفة عبد المؤمن الأسس العامة لسياسة الدولة وتنظيماتها الإدارية في رسالة وجهها إلى الطلبة^(٥) والأعيان والكافة في الأندلس، وتنحصر هذه الأسس في وجوب مباشرة الولاية الأحكام بأنفسهم، وآلا يجعلوا بينهم وبين الرعية وساطة لأنّ في ذلك مفسدة، وآلا يجتهدوا في شيء لا يعلمون فيه حكما. كما أمر الخليفة عبد المؤمن بوجوب التزام الدقة في تطبيق الأحكام الشرعية، والكف عن اقتضاء أية مغارم أو مكوس لا يبيحها الشرع، وملاحقة المرتشين الذين يأخذون أموال الناس، وعدم الحكم في مواد الحدود بالاعدام أو تنفيذه قبل الرجوع الى الخليفة ليصدر قراره في ذلك، وتحريم الخمر والتشدد في مطاردتها، ودراسة الأسباب التي تؤدي الى تعاطيها، وحماية أموال المخزن وصونها، وعدم التصرف بشيء منها دون استئذان الخليفة^(٦).

١ — أعمال الأعلام : ج ٢ ص ٢٧٠ ، العبر في خبر من غير : ج ٤ ص ٥٧ .

٢ — هو أول خلفاء الموحدين ، التقى بابن تومرت بينما كان متجها — أي عبد المؤمن — الى المشرق ، فأقنعه ابن تومرت بالعدول عن رحلته والانضمام اليه . حظي عبد المؤمن عند المهدي ، فأوصى له بالأمر بعد وفاته . استمرت خلافته من سنة ٥٢٤ — ٥٥٨ هـ . انظر : أخبار المهدي : ص ٥٥ — ٥٦ ، المعجب : ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، القرطاس : ص ١٧٦ .

٣ — رقم الحلل : ص ٥٨ .

٤ — السادة : هو لقب الأمراء الموحدين . النفع : ج ١ ص ٤٤٥ .

٥ — الطلبة : من الوحدات التي أقام عليها ابن تومرت تنظيمه ، ومهمتهم تبليغ الدعوة . القرطاس : ص ١٧٦ — ١٧٧ .

٦ — انظر : نظم الجمان : ج ٦ ص ١٥٦ — ١٦٦ .

وكان الخلفاء الموحدون الأول^(١) حريصين على اقامة العدل وتوطيده بين الرعية، وأكدوا ذلك على ولايتهم^(٢)، لذلك لم يحجم أولئك الخلفاء عن الإيقاع بأي وال أو مسؤول بدر منه ما يسيء الى الرعية من قريب أو بعيد، فقد تشكى أهل العُدوة^(٣) بعمال عبد السلام الكومى^(٤) من حملهم على الرعية وظلمهم وتعديهم، ووصفهم باحتجاب الأموال؛ فأمر الخليفة عبد المؤمن بجمع المشتكين، وسمع منهم، فتأثر لذلك، وأمر بقتل عبد السلام لأنه ضيع «المخازن والدين»^(٥).

وأشرف الخلفاء الموحدون الأول على الرعية بأنفسهم اشرافا مباشرا، فقد كان الخليفة يعقوب المنصور^(٦) «يقعد للناس عامة، لا يُحجب عنه أحد من صغير ولا كبير... وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم... وكان إذا وفد عليه أهل بلد، فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولايتهم»^(٧)، وكان يزور المرضى يسألهم عن القومة عليهم^(٨).

-
- ١ — وهم : عبد المؤمن، ويوسف بن عبد المؤمن، ويعقوب المنصور. انظر : القرطاس : ص ١٨٣، ص ٢٠٥، ص ٢١٦.
 - ٢ — التَّن : ج ٢ ص ٣٠٤.
 - ٣ — أي عدوة المغرب.
 - ٤ — هو عبد السلام بن محمد الكومى، وزر لعبد المؤمن سنة ٥٥٣هـ، وكان مقربا منه، ألا أنه عاد ففلك به عندما رأى سوء تصرفه مع الرعية. انظر : التَّن : ج ٢ ص ١٧٣ — ١٨٠، أخبار المهدي : ص ١٤٧، الاستقصا : ج ٢ ص ١٢٥.
 - ٥ — التَّن : ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩.
 - ٦ — هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، لُقّب بالمنصور، ثالث الخلفاء الموحدين. ولي الخلافة سنة ٥٨٠هـ. له مواقف مشهودة في جهاد العدو، وكانت أيامه دعة ورخاء وأمن. توفي سنة ٥٩٥هـ. انظر : القرطاس : ص ٢١٦ — ٢١٧ و ص ٢٣٠، المعجب : ص ٣٣٦، مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٤٦، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٢ — ٥٤.
 - ٧ — المعجب : ص ٣٦٢.
 - ٨ — المعجب : ص ٣٦٥.

وكان نظام الشورى من أروع ما عرف عن الخلفاء الموحديين . فقد كان من عاداتهم إلاّ يبتوا في أمر جليل إلاّ اذا جمعوا «الهيئات»^(١)، المختلفة من أجل الاستشارة، فهم لا يقدمون على غزوة إلاّ بعد التفاوض «مع من يجب من أهل البصائر بالحروب»^(٢)، «ولا يقومون بتشديد المنشآت في الدولة إلاّ بعد أخذ رأي الأعيان في ذلك»^(٣).

حرص الخلفاء الموحدون على اظهار أبهة ملكهم، وقد نقل ابن صاحب الصلاة صورا حيّة للموكب الخلفي يحفّ به العبيد بثيابهم المصبغة الألوان، وصفوف الفرسان والرجالة وقد حملوا الرايات والرماح والدرق من خلف الامام، والموسيقى مع خاصة أصحابه من خلفه كذلك، ووزيره لصق به ماشيا على قدميه يحدثه، بينما يجعل الأمير على عاتقه رحما طويلا^(٤).

وكان الخلفاء الموحدون يتخبرون لولاية العهد أنجب أبنائهم وأصلحهم، وكانت هذه الولاية تخضع لشرتين :- الكفاية والصلاح ، لذلك لم يتردد أولئك الخلفاء في اقصاء وليّ العهد إذا ظهر أنّه غير جدير بذلك . فقد أسقط عبد المؤمن ابنه محمدا عن ولاية العهد عندما رأى شرب الخمر منه، وظهور السكر عليه^(٥).

١ - ورد في نظم الجمعان أنّ الموحديين كانوا «اذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالمشورة لا يحضرون معهم غيرهم، فاذا جاء أمر أهون أحضروا الخمسين، فاذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا». وقد امتاز نظام الموحديين بارتكازه على وحدات معينة ذات وظائف محددة. وقد اختلفت المصادر في عدد هذه الوحدات وترتيبها ووظائفها. والمشورة والخمسون والسبعون من هذه الوحدات. انظر :- نظم الجمعان: ج ٦ ص ٢٩، رقم الحلل: ص ٥٧، الحلل المشوية: ص ٨٧ - ٨٩، الاستقصا: ج ٢ ص ٨٦.

٢ - البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٨.

٣ - المرّ: ج ٢ ص ٥٤، وانظر كذلك: ص ١٣٨ و ١٧٧.

٤ - المرّ: ج ٢ ص ٢٨٩.

٥ - المرّ: ج ٢ ص ٥٢ و ٢١٦، وقارن بما ورد في أشياخ: ص ٤٨٤.

ظلَّ الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف^(١) يقولان بمهدويّة ابن تومرت وعصمته ، ويدعوان له في الخطبة والمراسلات الرسمية ، وينعتانه بـ « الامام المعصوم والمهدي المعلوم »^(٢) . إلا أنّ الخليفة المنصور لم يكن يرى شيئاً صحيحاً ممّا ينسب الى ابن تومرت ، وكان يستخفّ عقول العامّة الذين يقولون بمهدويته وعصمته^(٣) .

وفي سنة ٦٢٧ هـ أصدر الخليفة المأمون^(٤) مرسوما لعن فيه المهدي ابن تومرت ، وأمر بإزالة اسمه من الخطبة والسكة والمخطابات الرسمية ، وأنكر عليه عصمته ووصفه بـ « الغويّ المذموم »^(٥) .

لم يفكّر الموحدون في جعل الأندلس قاعدة لحكمهم ، بل لبثوا في افريقيا ، وأرسلوا من حضرة مراكش توابا عنهم يقومون بالأمر فيها^(٦) . وكان الخليفة يجتاز إليها بين الفينة والفينة رغبة في الجهاد ، أو تفقدا لشؤون الرعية .

كانت الأندلس في هذه الفترة تتعرض لهجمة صليبية وافدة من أوروبا على غرار تلك التي كان يتعرض لها المشرق الاسلامي . وقد آزرت الكنيسة هذه الهجمة ، وأمدتها بالعدد والعدة^(٧) .

لم تأل الدولة الموحدية جهداً في تعزيز القوى الدفاعية للأندلس في وجه العدوان الصليبي ، يظهر ذلك واضحاً في البعث العسكرية المتتالية التي وجهتها الدولة للقيام بأعمال دفاعية أو هجومية .

- ١ — ثاني الخلفاء الموحدين ، ولي الأمر بعد وفاة والده عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ استشهد في معركة شنترين سنة ٥٨٠ هـ . مخطوط المغرب المرصع : ورقة : ٧٣ ، وفيات الأعيان : ج ٧ ص ١٣٦ .
- ٢ — التّن : ج ٢ ص ٢٧٦ و ص ٣١٠ .
- ٣ — المعجب : ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .
- ٤ — هو ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمأمون . بويع بالخلافة سنة ٦٢٤ هـ ، إلا أنّ الموحدين الذين بمراكش نقضوا بيعته ، فاستعان بملك قشتالة لاحضاع الناكثين ، توفي سنة ٦٢٩ هـ . انظر : — الاحاطة : ج ١ ص ٤٠٩ — ٤١٦ ، القرطاس : ص ٢٤٩ — ٢٥٤ .
- ٥ — القرطاس : ص ٢٥١ .
- ٦ — العرب في أسبانيا : ص ١٧٧ .
- ٧ — أعلن البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦ م) أنّ الحرب الدائرة بين المسلمين والنصارى في الأندلس حرب صليبية مقدسة . وسنأتي الى تفصيل ذلك . انظر :

وكان الخليفة الموحدي غالبا ما يرأس تلك البعث. ففي عام ٥٥٥ هـ توجه الخليفة عبد المؤمن الى الأندلس على رأس جيش ضخم ليتفقد شؤونها وأقام في جبل طارق، وهناك اجتمع بالسيادة الموحدين والقادة الأندلسيين، وتدارس معهم كيفية تدعيم القوى الدفاعية للمدن الأندلسية، وغزو الصليبيين العائنين في نواحيها^(١). كذلك عزم الخليفة عبد المؤمن على تسيير جيش كبير آخر للجهاد في الأندلس، فاستنفر الناس، وحشد الحشود، إلا أن الموت عاجله سنة ٥٥٨ هـ^(٢).

تسلم الخليفة يوسف الحكم بعد وفاة والده، وكان الخليفة الجديد ذا روح جهادية عالية^(٣)، فوجه بعوثا عسكرية مختلفة للجهاد في الأندلس.

ففي عام ٥٦٠ هـ وجه حملة عسكرية الى الأندلس لتدعيم القوى الدفاعية لمدينتي إشبيلية وقرطبة «ودفع الأعداء الروم والأشقياء عن معمورهما»^(٤)، بل إن الخليفة نفسه جاز الى الأندلس مرتين: ففي سنة ٥٦٦ هـ توجه بقوات ضخمة من مراكش الى الأندلس لافتتاح مدينة وبذه^(٥)*. مكث الخليفة في الأندلس خمسة أعوام أشرف خلالها على العمليات العسكرية التي كانت تقوم بها الجيوش الموحدية^(٦)، ثم عاد الى مراكش سنة ٥٦٩ هـ^(٧)، وبدأ يعد العدة لحملة عسكرية أخرى. وفي سنة ٥٨٠ هـ عبر الخليفة بقواته الى الأندلس واتجه صوب مدينة شنترين^(٨)**.

١ — السنن: ج ٢ ص ١٤٧ — ١٥٠، المعجب: ص ٢٨٢.

٢ — السنن: ج ٢ ص ١٢٧، المعجب: ص ٣٠٦.

٣ — مخطوط المغرب المسرع: ورقة ٧٣.

٤ — السنن: ج ٢ ص ٢٥١، البيان المغرب: ج ٣ ص ٦٣.

٥ — السنن: ج ٢ ص ٤٩٢، البيان المغرب: ج ٣ ص ٩٩.

* وثيقة: — حصن على واد بقرب أقليمش يقع في الشمال الغربي لمدينة فونكة. الروض المعطار: مادة وبذة ص ٦٠٦.

٦ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٩٩ و ١٠٣ — ١٠٤، السنن: ج ٢ ص ٥١٨.

٧ — المعجب: ص ٣٢٤.

٨ — انظر أخبار هذه المعركة مفصلة في: — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٢٨ — ١٣٨، القرطاس: ص ٤٠، صفة جزيرة

الأندلس: ص ١١٤، وفيات الأعيان: ج ٧ ص ١٣٦، مخطوط المغرب المسرع: ورقة ٧٣.

** شنترين: — حصن عظيم على جبل شاهق من أعمال بطلوس. مخطوط الحلال السندسية: ورقة ٢٥.

لم تسفر المعارك التي خاضتها جيوش الموحدين في عهد الخليفة يوسف عن نتائج مجدية: فقد أخفق المسلمون في معركة وبذة، وتحطمت جيوشهم أمام أبواب مدينة شترين، واستشهد الخليفة نفسه في المعارك التي دارت حول تلك المدينة إثر إصابته بسهم (١).

تردّى الوضع في الأندلس بعد وفاة الخليفة يوسف: فقد نازل ابن الرنق (٢) «صاحب قلمرية* وما إليها من غرب الأندلس» (٣) مدينة شلب**، فاحتلها (٤). كذلك وصلت غارات القشتاليين إلى أحواز إشبيلية (٥).

امتعض الخليفة المنصور، الذي تسلّم الخلافة بعد والده يوسف، عندما سمع نبأ احتلال مدينة شلب؛ فاستنفر الناس، واستعدّ الأسلحة، وفتح باب التطوع للانضمام إلى الجيش الموحدى. وفي شهر محرم سنة ٥٧٦ هـ تحرك الخليفة بقواته وجاز البحر إلى الأندلس.

قامت الجيوش الاسلامية بعدد من العمليات العسكرية في مناطق متعددة أسفرت عن استعادة مدينة شلب، وقاعدة قصر الفتح «قصر أبي دانس» (٦)***. عاد الخليفة بعد ذلك إلى المغرب وأخذ يعدّ العدة لحملة عسكرية كبرى. وفي سنة

١ - مخطوط المغرب المرسع: ورقة ٧٣.

٢ - هو شائعجه الأول ملك البرتغال. توفي سنة ٦٠٨ هـ. المعجب: ص ٤٠٠، التاريخ الأندلسي: ص ٤٦٧.

* من بلاد البرتغال، تقع في أقصى غرب الأندلس شمال شترين. الروض المطار: مادة قلمرية: ص ٤٧١.

٣ - الروض المطار: مادة قلمرية: ص ٤٧١.

** من بلاد البرتغال، تقع في نهاية ولاية الغرب الجنوبية على مقربة من المحيط الأطلسي. مخطوط الخلل السندسية: ورقة ٣١.

٤ - البيان المغرب: ج ٣ ص ١٧٥.

٥ - البيان المغرب: ج ٣ ص ١٧٥ - ١٧٦.

٦ - المعجب: من ص ٣٥٦، الحملة السّيرة: ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣، وقارن بما ورد في الذيل والتكملة: ج ٥ ص ١٩١.

*** نسبة الى بانية بني دانس، حصن غربي الأندلس، قع على بعد ٩٤ كم جنوب شرق أشبونه. جمهرة انساب العرب: ص

٥٠١، الحملة السواء: تعليق رقم (١) ج ١ ص ٢٧٢.

٥٩٠ هـ تمّ العبور إلى الأندلس، واتجهت الجيوش الموحدية صوب موضع «الأرك»^(١)، وهناك دارت رحى معركة عنيفة أحرز فيها الموحدون نصرا مؤزراً^(٢).

كان هذا النصر عظيماً أحرزه المسلمون بقيادة الموحدين، وكان من نتائجه أن كُتبت ملك قشتالة. إلا أن هذا النصر العظيم لم تلبث أن تحت آثاره معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ^(٣) على عهد الخليفة الناصر^(٤).

تمتعت الأندلس في عهد الخلفاء الثلاثة الأول، وصدر حكم رابعهم الخليفة الناصر بمستوى عال من القوة. وقد أدى ذلك إلى تدعيم الوجود الاسلامي فيها فترة من الوقت، وعندما زالت تلك القوة بدأ الخطر يهدد الأندلس.

كانت معركة العقاب نذيراً بانهيار المسلمين في الأندلس. وقد وصفت بعض المصادر تلك المعركة بالهزيمة العظمى^(٥) التي «لم تستقل الأندلس بعدها العثرة»^(٦).

شجعت هزيمة العقاب الطموحين بالقيام على الدولة الموحدية في الأندلس وخلع طاعتها. فقام محمد بن يوسف بن هود الجذامي في مرسية^(٦)، وقام في الوقت نفسه محمد بن يوسف بن نصر الذي اصطدم بابن هود وقضى على حركته^(٧).

١ - حصن منبع من قلعة رباح. الروض المعطار: مادة الأرك ص ٢٦.

٢ - البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٤ - ١٩٥.

٣ - البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٤٠ - ٢٤١.

٤ - ولي الخلافة سنة ٥٩٥ هـ بعد وفاة أبيه المنصور. كان غليظ الحجاب، مستتبدا في أموره. توفي سنة ٦١٠ هـ. انظر: القرباس: ص ٢٣١ وص ٢٤١.

٥ - الحلل الموشية: ص ١٣٤.

٦ - أعمال الأعلام: ج ٣ ص ٢٧٠.

٧ - تاريخ ابن خلدون: ج ٦ ص ٣٦١ - ٣٦٥، أعمال الأعلام: ج ٣ ص ٣٨٠ البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٧٦. وانظر ترجمة ابن هود في: المغرب: ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢، الأحاطة: ج ٢ ص ١٢٨ - ١٣٢.

٨ - الأحاطة: ج ٢ ص ٩٤، البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٧٩، تاريخ ابن خلدون: ج ٦ ص ٣٦٦، نهاية الأندلس: ص ٣١ - ٣٣. وانظر ترجمة ابن نصر في: المغرب: ج ٢ ص ١٠٩.

أما مراكش فقد توالى على الخلافة فيها مجموعة من الخلفاء الضعاف الذين شغلوا بصراع مرير على السلطة. اغرى ذلك بعض الشخصيات بالتفكير في الثورة والانفصال عن الدولة الموحدية وتشكيل دولة مستقلة. فقامت دولة الحفصيين في تونس^(١)، وامارة بني زيان في تلمسان^(٢). الا أن اخطر هذه الحركات الانفصالية كانت حركة بني مرين في المغرب الأقصى^(٣).

كان اضطراب احوال الأندلس فرصة سانحة للصلبيين الذين اخذوا يسيطون ايديهم على المدن الاسلامية فيها وانتهت الأمور بسقوطها كلها ما عدا غرناطة التي استطاع ابن نصر أن يؤسس فيها دولة.

ظلت الخلافة في مراكش تصارع سلطان بني مرين الزاحف، وقد انتهى هذا الصراع بسقوط دولة الموحدين ومقتل آخر خلفائهم سنة ٦٦٨ هـ^(٤). وبذلك انتهت الدولة الموحدية التي حكمت المغرب والاندلس زهاء قرن ونصف من الزمان من سنة ٥٢٤ هـ وحتى سنة ٦٦٨ هـ.

-
- ١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٧١ — ٢٧٦، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٥٩١ . والحفصيون — نسبة الى جدّهم أبي حفص عمر بن يحيى، الذي كان تلميذا ابيرا لأبن تومرت . انظر : اخبار المهدي : ص ٣٢ — ٣٣ . البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٧١ .
 - ٢ — تاريخ ابن خلدون : ج ٧ ص ١٥٤ و ١٦٢ . وبنو زيان : — نسبة الى يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة العبد الوادية بتلمسان سنة ٦٣٣ هـ انظر . القرطاس : ص ٢٥٧ .
 - ٣ — الذخيرة السنية : ص ٢٨ . وبنومرين : فخذ من زياته يسكنون بلاد القبلة من زاب افريقيه الى سجلماسة، ويتنقلون في تلك البراري انظر : القرطاس : ص ٢٨١ — ٢٨٢ .
 - ٤ — القرطاس : ص ٢٥٩ . الذخيرة السنية : ص ١١٨ .

الحياة الاجتماعية

كان أثر الدعوة الموحدية في الحياة الاجتماعية بارزا ، يظهر ذلك في انقسام الشعب إلى طبقتين متميزتين هما : — الفئة الحاكمة ومن التحق بها « الموحدون » ، وعامة الشعب « الرعية » . وقد أشار عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب إلى ذلك . فبعد أن أورد أسماء قبائل الموحدين^(١) علق عليها بقوله : « فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم ، والذين يأخذون العطاء ، وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث ، وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية لهم »^(٢) .

والتقسيم السابق لفئات المجتمع قائم على أساس عقائدي ، لذلك فإن الفئة الأولى لم تشمل إلا القبائل السبع التي سارعت إلى الانضمام للدعوة الموحدية . وقد استأثرت تلك الفئة بميزات خاصة لم يستأثر بها أحد غيرها ، فابن تومرت اختصهم « بكثير من الاختصاص ، وعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم »^(٣) ، ومنهم اختار أعضاء حكومته^(٤) . أما عبد المؤمن فقد أنشأ لأبنائها مدرسة خاصة في مراكش وزرع خريجها على مناصب الدولة^(٥) .

وقد بلغ سلطان قبائل الموحدين درجة عالية ، إلى حد أن صوبتها علا — أحيانا — فوق صوت الخليفة نفسه . فحين قتل ابن أحد صحابة المهدي أخا عبد المؤمن ، طالب عبد المؤمن بالقصاص من القاتل ، إلا أن رجال القبائل الموحدية أجبروه على التنازل عن دم أخيه ، لأن القاتل ابن أحد صحابة المهدي^(٦) .

١ — وهذه القبائل هي : — مرغة وهناتة وتينملل وجنفسية ووريكة وهرجة وجميوة . انظر : المعجب : ص ٤٢٣ — ٤٢٤ .

٢ — المعجب : ص ٤٢٤ .

٣ — نظم الجمان : ج ٦ ص ٨٠ — ٨١ .

٤ — بعد أن أعلن ابن تومرت أنه المهدي المنتظر وبإيمه أصحابه على ذلك ، شرع في بناء حكومته . وقد قامت هذه الحكومة على وحدات مختارة من أتباعه . انظر : نظم الجمان : ج ٦ ص ٢٩ ، رقم الحلال : ص ٥٧ ، الحلال الموشية : ص

٨٧ — ٨٩ ، الاستقصا : ج ٢ ص ٨٦ .

٥ — الحلال الموشية : ص ١٢٥ .

٦ — أخبار المهدي : ص ١٠٤ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤ .

وقد عاش في الأندلس عناصر سكانية متباينة ، فهناك : — العربي ، والبربري ، والأندلسي وأهل الذمة .. وقد كانت قبائل العرب أكثر تلك العناصر تأثيرا على مجريات الأمور في الدولة ، وذلك لما طبعوا عليه « من الخروج عن ريقه الحكم ، وعدم الانقياد للسياسة ... فغاية الأحوال العادية عندهم الرحلة والتغلب » (١) . لذلك فقد تألفهم الموحدون ، وبالغوا في استمالتهم ، آمليين أن يخلدوا إلى الهدوء ، وأن يلتحقوا بالجيوش الموحدية المجاهدة في الأندلس (٢) ، إلا أن الموحدين لم يتهاونوا معهم إذا حاولوا العبث والخروج . وقد سجّلت المصادر عددا من وقائع الموحدين ضدّهم (٣) .

نجحت سياسة الاستمالة التي اتبعتها الموحدون مع القبائل العربية ، إذ استطاعوا أن يؤلفوا قلوب أبنائها ، وأن يكسبوا كثيرا منهم جنودا في الجيش الموحد ، وألّفوا منهم قوّة عسكرية مميّزة ظهرت في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٤) .

وكان أهل الذمة يشكلون فئة ليست قليلة في الدولة الموحدية . وكان الخلفاء الموحدون صارمين في التعامل معهم ؛ فلم تتعقد لهم عندهم ذمة . فعندما فتح الخليفة عبد المؤمن تونس سنة ٥٥٤ هـ عرض على من بها من اليهود والنصارى الاسلام ؛ فمن اسلم سلم ، ومن أبى قتل ؛ فأسلم عدد منهم (٥) .

لم يكن أهل الذمة الذين أسلموا ، وخاصة اليهود ، مخلصين في اسلامهم . فهم لم يكفوا عن أذى المسلمين والتجسس عليهم (٦) . لذلك عمل الخليفة المنصور على تمييز اليهود ، على الرغم من إسلامهم ، بأن جعلهم يرتدون زيا خاصا بهم . وكان ذلك الزي على اشنع صورة . والذي حمل الخليفة المنصور على فعل ذلك باليهود « شكه في إسلامهم » (٧) وتردده في أمرهم . وقد توسّل اليهود إلى الخليفة الناصر لتغيير ذلك الزي ، فأبدلهم اياه بشياب صفر وعمائم صفر (٨) .

- ١ — مقدّمة ابن خلدون : ص ١١٨ .
- ٢ — المنّ ج ٢ ، ص ١٧٢ و ص ٤٣٦ .
- ٣ — الحلل السندسية في الأخبار التونسية : ج ١ ق ٢ ص ٤٧٨ ، رحلة التجائي : ص ٤٤ .
- ٤ — المنّ : ج ٢ ص ٤١٧ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٩٢ ، الاستقصا : ج ٢ ص ٢٤٩ .
- ٥ — الاستقصا : ج ٢ ص ١٣٧ ، تاريخ الحكماء : ص ٣١٨ .
- ٦ — المنّ : ج ٢ ص ١٨٧ .
- ٧ — المعجب : ص ٣٨٣ .
- ٨ — المعجب : ص ٣٨٣ .

إلا أن أهل الذمة نالوا قسما من الحرية في عهد الخليفة المأمون الذي استنجد بالفرنجية لكي يقضي على خصومه في عاصمة بلاده ، فقد أباح للنصارى بناء كنيسة في مراكش ، كما سمح لليهود ببناء مدارس خاصة بهم (٢) .

وقد عملت دولة الموحدين جاهدة على بناء مجتمع إسلامي خال من العوائد الاجتماعية الفاسدة . فقد حذر ابن تومرت أتباعه من المداينة « وسوء السيرة ، وجميع عوائد الجاهلية ، واللهو والنياحة والسخط عند المصائب » (٣) ، ومخالطة أهل الفساد ، وشرب الخمر .

توالت الرسائل من الخلفاء الموحدين إلى ولائهم في الأمصار يظهرون فيها تشددهم في محاربة ألوان الفساد الاجتماعي . ففي سنة ٥٤٣ هـ وجه عبد المؤمن رسالة إلى الطلبة والأعيان والكافة أمرهم فيها بإزاحة الخمر ، وكسر دنائها ، والبحث عن الأسباب التي تؤدي إلى التمكن منها ، وعدم التهاون في إيقاع أقصى العقوبة بكل من يشربها أو يتجر بها . كما أمر بملاحقة المرتشدين الذين يأكلون أموال الناس ، والتوقف عن بيع السبايا حتى يخاطبوه بأحوالهم ؛ لأن كثيرا من الناس يبيعونهم دون استبراء (٤) * .

وقد نشط الخليفة المنصور في مطاردة مظاهر الفساد التي بدت في الحضرة الموحدية غداة استلم الخلافة . فقد أغضبه انغماس الناس في الدعة ، وانهماكهم في ضروب اللهو ، ورواج سوق الخمر والقيان والغانيات ؛ فأمر بإزاحة المسكرات وقطعها ، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها ، وأنفذ المخاطبات بذلك إلى ولائه في الأمصار ؛ فأريق منها في البلاد ما يساوي أموالا جمّة . وضُمَّنت الكتب النافذة بذلك فصولا . في بسط العدل ، والتشديد على العمال والولاية بتأسيس الرعية ، وتوخي

-
- ١ - المعجب : ص ٢٨٣ .
 - ٢ - الأحاظة : ج ١ ص ٤٦٩ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٦٥ ، الاستقصا : ج ٢ ص ٢٣٩ .
 - ٣ - أخبار المهدي : ص ٨ .
 - ٤ - نظم الجمان : ج ٦ ص ١٥٠ - ١٦٧ .
- * الاستبراء : انتظار المرأة حتى تمهض ليتأكد من عدم حملها أو تلد إن كانت حاملا .

رضاهم في اقتضاء حقوقهم ، وكفّ أيدي الظالمين عنهم ، وإباحة جواز البحر للمشتكين . كذلك أمر المنصور بمنع لبس الثياب الحريرية الثمينة ، ومنع النساء من الطرز الحفيل على ثيابهن والاكتفاء منه بالسّاذج ، وأخرج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديبّاج المذهب ؛ فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان باهظة ، ثم أمر صاحب الشرطة بقطع الملهين ومن شهر من المغنّين ؛ فثَقِفَ من وجد منهم بكلّ مكان (١) .

كان لممارسات الخلفاء الموحّدين تلك آثار واضحة في الحياة الاجتماعيّة . فقد انحسرت — إلى حين — أسباب اللهو ونواديه ، « وبارت سوق القيّان » (٢) ، واستبدل ذلك بمجالس العلم والرياضات العقلية والجسدية . (٣) .

أعجب الرحّالة ابن جبير بالمجتمع الموحّدي الذي استمدّ منهج حياته من قواعد الإسلام ، فقد قال في معرض حديثه عن دولة الموحّدين : « أنّه لا إسلام إلّا ببلاد المغرب ، لأنّهم على جادّة واضحة لا بُنَيَات * لها » (٤) .

وقد اعتنى الخلفاء الموحّدون الأوّل بالرعيّة عناية بالغة ، فبنوا المستشفيات ، وأنفقوا على الأيتام ، وقضيت مسائل الناس وحوائجهم ومطالبهم ، وأنصف المظلوم من الظالم (٥) . فقد كان الخليفة المنصور « كلّما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون ، فيجمعون إلى موضع قريب من قصره ، فيختنون ، ويأمر لكلّ صبيّ منهم بمثقال وثوب ... » (٦) .

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٤٣ — ١٤٥ ، رسائل موحّدية : ص ١٦٤ — ١٦٧ .

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٤٥ .

٣ — المعجب : ص ٢٧٠ .

* الثبّات : بضمّ الباء وفتح النون ، الطرق الصغرى المتقرّعة . لسان العرب : مادة « بني » .

٤ — رحلة ابن جبير : ص ٥٥ .

٥ — المعجب : ص ٢٩٦ ، ٣٣٣ ، ٣٥٤ .

٦ — المعجب : ص ٣٦٤ .

وحرصت الدولة على حقوق المواطنين ، فلم تكن تبخسهم أشياءهم . فقد أمر الخليفة يوسف بتقدير أراضي أحد سكان مدينة إشبيلية وتعويضه أرضا بدلا منها ، لأن الخليفة أراد أن يبنى قصوره فيها^(١) . كما أمر الخليفة نفسه بتقدير قيمة المنشآت التي هدمت في إشبيلية لتوسيع أحد المساجد فيها ، ودفع تعويض عنها^(٢) .

وقد قوي اقتصاد الدولة الموحدية في عهد الخلفاء الأول ، يظهر ذلك في كثرة المصانع التي أنشأتها الدولة في المغرب والأندلس . فقد كان في مدينة فاس وحدها اثنا عشر مصنعا لسبك النحاس ، وثلاثة آلاف مصنع للنسيج ، وسبعة وأربعون مصنعا للصابون ، وأحد عشر مصنعا للزجاج ، وأربعمائة مصنع للكاغد^(٣) .

وقد ازدهرت التجارة في دولة الموحدين ، ووصلت تجارتهم إلى غانة^(٤) . فقد أورد صاحب النفع جذاذات من رسالة بعثها المنصور إلى ملك غانة يعاتبه فيها على احتباس التجار المغاربة ، ومنعهم من التصرف^(٥) .

لذلك شهد الشعب في المغرب والأندلس في عهد الخلفاء الأول فترة رخاء عظيمة . فقد كثرت الأرزاق في عهد عبد المؤمن^(٦) ، وزادت المخازن في عهد الخليفة يوسف ، « ونمت الأرزاق ، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الراجحة ، ودرت على الناس الخيرات درورا ... وكثر المال في الأيدي »^(٧) ، واتصل « الأمن والعدل والفضل بحيث يسير الركاب حيث شاء من بلاد العدو آمنا على نفسه لا يخاف إلا الله

١ - التّن : ج ٢ ص ٢٨٦ .

٢ - التّن : ج ٢ ص ٢٨٥ .

٣ - زهرة الآس : ص ٤٤ .

٤ - غانة : من بلاد السودان ، بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين ، أهلها مسلمون ، والها يقصد المياشر من سائر بلاد المغرب الأقصى . الرّوض المطار : مادة غانة ص ٤٢٥ .

٥ - النّفع : ج ٣ ص ١٠٥ .

٦ - التّن : ج ٢ ص ٢١٤ - ٢١٥ .

٧ - التّن : ج ٢ ص ٣٤٧ .

أو الذيب»^(١) . ولم تزل أيامه — أي يوسف — « أعيادا وأعراسا ومواسم ؛ كثرة خصب ، وانتشار أمن ، ودرور أرزاق ، واتساع معاش »^(٢) ، واستمر هذا صدرا من إمارة الخليفة المنصور ، لذلك فقد شبه أهل التواريخ أيام الخليفة يوسف بأيام الخليفة عثمان بن عفان : كثرة خير ، وسماحة وبذلا^(٣) .

نتج عن هذا الرخاء الاقتصادي ترف في الذوق الاجتماعي ، ورافق ذلك ضعف سيرة الفكر الذي أقام عليه ابن تومرت دعوته ، وعمل عبد المؤمن على تأكيده . ولعل أبرز مظاهر ذلك الترف تلك المنشآت العمرانية الضخمة التي أنشأها الخلفاء الموحدون ، وأنفقوا عليها أموالا طائلة لإظهارها لأبهة ملكهم . فقد بنى عبد المؤمن في جبل طارق قصورا عظيمة أنفق عليها أموالا باهظة ، وكذلك في مراكش^(٤) . وبنى الخليفة المنصور مقصورة في جامعة المتصل بقصره في حضرة مراكش ، وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه ، وتخفف لدخوله^(٥) . كما بنى السيد أبو يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن والي قرطبة قصرا على متن النهر الأعظم تحمله أقواس عجيبية^(٦) . أما الخليفة المستنصر^(٧) فقد أقام لنفسه بستانا في غاية الحسن كأنه الجنة^(٨) .

وأقيمت المنتزهات العامة التي كان الشعب يخرج إليها^(٩) . وقد كان الشعراء يقصدون هذه المنتزهات ، ويتبارون في قرض الشعر فيها على شكل الإجازة الشعرية ؛

-
- ١ — المتن : ج ٢ ص ٢٨٦ .
 - ٢ — المعجب : ص ٣٣٠ .
 - ٣ — المتن : ج ٢ ص ٢٣٧ .
 - ٤ — المعجب : ص ٢٨٢ ، ص ٢٩٦ .
 - ٥ — النسخ : ج ٣ ص ٤٢٠ .
 - ٦ — النسخ : ج ١ ص ٢٧٠ .
 - ٧ — أحد أبناء الخليفة الناصر ، اسمه أبو يعقوب يوسف . يبيع بعد وفاة أبيه سنة ٦١٠ هـ . استمرت خلافته حتى سنة ٦٢٠ هـ . انظر : — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٣ .
 - ٨ — النسخ : ج ٣ ص ٥٢٨ .
 - ٩ — النسخ : ج ١ ص ٤٧٤ .

فاستمرت ظاهرة الارتجال في الشعر الأندلسي . فقد ذكر صاحب النّفح أنّ عددا من الأدباء اجتمعوا بمدينة سبتة (١) سنة ٥٨١ هـ ، فتذاكروا محبوبا لهم يسكن الجزيرة الخضراء (٢) أمامهم ، فقالوا : — ليقل كلّ واحد منكم شيئا فيه . ثم أورد صاحب النّفح ما قاله كلّ واحد منهم (٣) .

وقد انحسرت — كما أشرنا — بعض مظاهر الفساد الاجتماعي في عهد الخلفاء الأول نتيجة ملاحظتهم إياها ، إلا أنّهم لم يستطيعوا القضاء عليها ، فقد تدمّر عبد المؤمن من عدم ارتداع الناس عن الانغماس في الملذّات والدّعة (٤) . وعندما ولي المنصور الخلافة كانت مراكش وغيرها من المدن تعجّ بأسواق الخمر والقيان ... إلا أنّ المنصور بادر إلى التصدّي لها ؛ فاخفت .

إلا أنّه بعد وفاة المنصور عادت تلك المناكير إلى الظهور . وقد نقل صاحب النّفح صورا عن المنتزهات الخاصة التي كان يقيمها بعض الأغنياء لخلواتهم وملذّاتهم مع ندمائهم ، وقد زوّدت تلك المنازه بكل ما يحتاج إليه مؤمّل اللهو . وكان يجري فيها من ضروب اللهو والمجون والخلاعة ما يجتشم عن ذكره (٥) .

ويبدو أنّ بعض القضاة في نهاية العهد الموحد كانوا يتهاونون في إقامة الحدّ على شاربي الخمر ، وقد قال في ذلك أحد المرسيين :—

الحمد لله بلغنا المنى لا حدّ في الخمر ولا في الغنّا
قد حلّ القاضي لنا ذا وذا وإن شكرناه أحلّ الزنّا (٦)

بل أنّ بعض الخلفاء الذين تولّوا الحكم في عصور متأخرة انغمسوا في اللهو والملذّات . فقد كان الخليفة المستنصر ميّالا الى حياة الدّعة والبطالة ، مشتغلا عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشّبّاب (٧) .

- ١ — سبتة : من أقاصي المغرب ، وهي مورد البرّين : برّ العذوة وبرّ الاندلس . تقويم البلدان : ص ١٣٢ — ١٣٣ .
- ٢ — الجزيرة الخضراء : — مدينة امام سبتة من برّ الاندلس الجنوبي . تقويم البلدان : ص ١٧٣ .
- ٣ — النّفح : ج ٤ ص ٨ .
- ٤ — أخبار المهدي : ص ١٦ .
- ٥ — انظر النّفح : ج ٤ ص ١٨٠ .
- ٦ — المغرب : ج ٢ ص ٣٨٦ .
- ٧ — تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٢٥٠ ، القرطاس : ص ٢٤٣ ، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ١٢٦ .

أما المرأة فقد حظرت عليها ابن تومرت مغادرة بيتها ، ومخالطة الرجال في الأماكن العامة ، وأخذ عليها إسفارها عن وجهها (١) . إلا أن خلفاءه التاليين أتاحوا للمرأة قسطا وافرا من الحرية . فقد جعل عبد المؤمن التعليم إجباريا على كل مكلفة منهن (٢) . وهناك ما يشير إلى أن المرأة الموحدية قد خرجت إلى الحياة العامة ، وشاركت فيها . فعندما دخل الخليفة يوسف مرسية سنة ٥٦٧ هـ ، خرجت النسوة لاستقباله « يدين أصواتهن بالفرح ، وينطقن بألسنتهن بكل لفظ منشرح » (٣) . وعندما زار الخليفة المنصور قبر المهدي خرجت النساء لاستقباله « يولولن ويضربن بالدفوف » (٤) .

وظهر في هذا العصر عدد من النسوة المشهورات . منهن : أم المجد مريم بنت أبي الحسن الغافقي الشّاري ، درست الحديث ، ووصفتها المصادر بـ « العجوز المسندة » (٥) . ومنهن : أم السعد بنت عصام الحميري ، تعرف بسعدونه ، « لها رواية عن أبيها وجدّها وغيرهما » (٦) . ومنهن أم الهناء بنت القاضي أبي محمد بن عبدالحق بن عطية ، من شاعرات قرطبة ، « سمعت أباهما ، وكانت حاضرة النادرة ، سريعة التمثل ، من أهل العلم والفهم والعقل » (٧) . ولها تأليف (٨) .

ومن النساء المشهورات في هذا العصر حفصة بنت الحاج الركونية المشهورة بالجمال والحسب والمال ، وعشيقة أبي جعفر بن سعيد (٩) . وكانت حفصة على زمانها مثل ولادة في قرطبة على زمانها أيضا ، بل أنها كانت أكثر جرأة في الهجوم على معاني العشق والإثارة والغيرة من ولادة (١٠) .

-
- ١ — أخبار المهدي : ص ٥٢ ، أعز ما يطلب : ص ٢٥٩ .
 - ٢ — رسائل موحدية : ص ١٣١ — ١٣٧ .
 - ٣ — المرّ : ج ٢ ص ٥١٩ .
 - ٤ — المعجب : ص ٣٦٨ .
 - ٥ — إحصار الآثار : ص ٢٣ و ٣٠ . وانظر : صلة الصلة : ص ١٤٩ — ١٥٣ .
 - ٦ — النفع : ج ٤ ص ١٦٦ .
 - ٧ — النفع : ج ٤ ص ٢٩٢ .
 - ٨ — النفع : ج ٤ ص ٢٩٢ .
 - ٩ — هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، أحد مصنفي كتاب المغرب . وزر لعثمان بن عبد المؤمن ، ونقله لمشاركه إياه في هوى حفصة المتكورة أعلاه . انظر : المغرب : ج ٢ ص ١٦٤ ، الزايات : ص ١٩٦ .
 - ١٠ — انظر : — المغرب : ج ٢ ص ١٣٨ — ١٣٩ ، الأحاطة : ج ١ ص ٤٩١ — ٤٩٤ ، الزايات : ص ٩٢ — ٩٣ .

وكان بعض القضاة يأخذ برأي زوجته في الأحكام ، فقد ذكر صاحب النفع أن أحد قضاة لوشة (١) كانت له زوجة فاقت العلماء في معرفة الأحكام والنوازل ، وكان قبل أن يتزوجها ذكر له وصفها ؛ فسعى إليها . وكان في مجلس قضائه تنزل به النوازل ، فيقوم إليها ، فتشير عليه بما يحكم به (٢) .

كان للصراع الذي خاضته دولة الموحدين ضدّ الصليبيين في الأندلس آثار واضحة في الحياة العامّة . فقد كانت الدولة تقيم احتفالات شعبية ضخمة احتفاءً بالانتصارات التي كان يحرزها المسلمون ، وبالغت في ذلك . وقد نقل ابن صاحب الصلاة صوراً حيّة عنها ، حيث يجلس الخليفة لقبول التهاني ، وتضرب الطبول ، وتخرج المواكب ، وتسير الرسائل ، وتخرج الصدقات ، وتوزع البركات ، ويطعم الناس ، وينشد الشعراء (٣) .

عانى الشعب في الأندلس من هجمات الصليبيين عليهم . فكثيراً ما دمّرت مدن ، وأهلكت نفوس ، وانتسفت زروع ، فقد ترك العدو أهل مدينة قونكة (٤) « وكأنهم نشروا من كفن ، وخرجوا من جدث » (٥) وفي سنة ٥٥٤ هـ هاجم الأعداء قرطبة ، ودمروا زروعها ، وعفّوا ربوعها (٦) . وفي العام نفسه لقيت إشبيلية « عظيم الخطب ، وجماع الرعب ، وحلّ بها وبأهلها كرب وحرب » (٧) .

لذلك فقد شاعت ظاهرة الجلاء . وقد عبرت أعداد كبيرة من المهجرين إلى المغرب (٨) .

-
- ١ - لَوْشَة : من أقاليم البيرة . الرّوض المَطَار : مادّة لوشة ص ٥١٣ .
 - ٢ - النّفْع : ج ٤ ص ٢٩٤ .
 - ٣ - انظر : المَنْ : ج ٢ ص ١٢٥ و ص ٢٥٣ .
 - ٤ - قُونَكَة وتكتب قُونَقَة ، مدينة من أعمال كورة شنتية ، وهي من أمنع حصون الثغر الأدنى . الحَلَّة السّوَاء : ج ٢ ص ٢٢٨ .
 - ٥ - المَنْ : ج ٢ ص ٥٠٥ .
 - ٦ - المَنْ : ج ٢ ص ١١٦ .
 - ٧ - المَنْ : ج ٢ ص ١١٨ - ١٢٠ .
 - ٨ - انظر : - المَنْ : ج ٢ ص ٢٠٥ ، الحَلَّة السّوَاء : ج ٢ ص ٣٠٣ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ٢ ص ٧٣٧ .

اهتمّ الموحدون بإعمار المدن المنكوبة وإغاثة أهلها . فقد رعى الخليفة يوسف مدينة قونكة وأمدّها بالمؤن والأسلحة (١) . وأمدّ مدينة بطليوس (٢) بميرة كبيرة من القمح والشعير وآلات الحرب ... بما أبهت الناظرين (٣) .

وقد اعتنى الموحدون بالمهاجرين وأسكنوهم ، فقد أسكنوا أهل مدينة بلنسية وجزيرة شقّر (٤) وشاطبة (٥) ، وغيرهم من بلاد الشرق ، ووهبوا لهم الأرض ، ووسّع عليهم ، وأتيح لهم التملك بالمغرب (٦) . كما اعتنوا بالأسرى واقتدوهم ، وسيلوا عليهم الخيل بسروجها ولجمها وآلات الحرب لها ، وجبروهم ، وكسوهم ، وواسوهم (٧) .

ويبدو أن فترة الرفاه الاجتماعي التي عاشها الشعب في المغرب والأندلس كانت مقصورة على عهد الخلفاء الأول . فبعد وفاة الناصر توالى على الخلافة عدد من الخلفاء الضعاف الذين انشغلوا بالصراع على السلطة ، وأهملوا الرعيّة ؛ فاشتدّ الخوف ، وكثر اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ، وغلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، وطافت بالأندلس والعدوة شدة عنيفة (٨) .

-
- ١ - المرّ: ج ٢ ص ٢٠٥ - ٥٠٦ .
 - ٢ - بطليوس : - مدينة عظيمة من غرب الأندلس ، بينها وبين قرطبة ستة أيام . تقويم البلدان : ص ١٧٣ .
 - ٣ - المرّ: ج ٢ ص ٤٥٧ - ٤٦٣ .
 - ٤ - شقّر : بفتح الشين وسكون القاف ، جزيرة في شرقي الأندلس ، بينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا ، معجم البلدان : مادة شقّر .
 - ٥ - شاطبة : مدينة جلييلة في الأندلس ، تقع في الجنوب الغربي لبلنسية . الرّوض المعطار : مادة شاطبة ، ص ٣٣٧ .
 - ٦ - انظر ظهور الخليفة الرّشيد في ذلك في كتاب عصر المرابطين والموحدين : - ج ٢ ص ٣٣٧ .
 - ٧ - المرّ: ج ٢ ص ٢٨٦ .
 - ٨ - الذخيرة السنيّة : ص ٣٥ - ٣٦ ، القرطاس : ص ٢٥٥ .

الحياة الفكرية

استمرت الحركة الفكرية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين بالنمو والازدهار في كل ميدان ، وظهر العلماء في كل فن ؛ فشهدت الدولة الموحدية حركة فكرية نشطة .

وقد ساعد على ذلك طبيعة الدعوة الموحدية التي شجعت العلم ، وحثت عليه . فقد أبدى ابن تومرت حماسة واضحة للعلم في مطلع كتابه « أعز ما يطلب » ، حيث جعل « أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتب ، وأنفس ما يدخر ، العلم الذي جعله الله سبب الهداية الى كل خير » (١) لذلك فقد هاجم ابن تومرت دولة المرابطين بسبب الحجر الفكري الذي كانت تمارسه كما يدعي (٢) .

وكان امراء الموحدين أنفسهم علماء محبين للعلم ، فقتروا أهل العلم ، وشجعوهم ، وأكرمهم ، وأغدقوا الصلوات عليهم . فقد كان ابن تومرت أحد علماء عصره المجتهدين في طلب العلم ، حيث ارتحل إلى المشرق طلبا للعلم ، واستغرقت رحلته خمسة عشر عاما ، وعاد منها « بحرا منفجرا من العلم ، وشهابا وارايا من الدين » (٤) . وقد جلس ابن تومرت لتدريس العلم ، ففي تونس جلس إليه مجموعة من الفقهاء يأخذون عنه (٤) ، وفي المهديّة (٥) قرأ عليه الناس كتبا من أصول الدين (٦) .

ولم يكن خلفاء ابن تومرت أقل تشجيعا للعلم منه . فعبد المؤمن بدأ حياته طالب علم طموحا ، وقد دفعه طموحه للسفر إلى المشرق طلبا للعلم ، إلا أن ابن تومرت ثنى عزمه عن ذلك (٧) ، وعندما ولي الخلافة لم تشغله أمور الحكم عن رعاية

١ - أعز ما يطلب : ص ٣ .

٢ - المعجب : ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

٣ - تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٦٥ .

٤ - أخبار المهدي : ص ٥٠ .

٥ - المهديّة : - نسبة الى عيد الله المهدي الذي بناها على شاطئ القروان سنة ٣٠٠ هـ . معجم البلدان : مادة المهديّة .

٦ - وفيات الأعيان : ج ٥ ص ٤٧ .

٧ - أخبار المهدي : ص ٥٥ - ٥٦ .

العلم والعلماء . فقد كان مؤثرا لأهل العلم ، محسنا إليهم ، يستدعيهم من البلاد ، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم ، والإعظام لهم ، وكان يعقد ندوات علمية أسبوعية في قصره (١) .

كذلك كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أحسن الناس ألفاظا بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية (٢) . ولم يزل يوسف هذا يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب . ومن بين هؤلاء العلماء ابن طفيل (٣) الذي كان صديقا حميما له ، شديد الشغف به ، فقد كان يقيم في قصره أياما ليلا ونهارا لا يظهر (٤) . ولم يزل ابن طفيل يجلب العلماء له ، ويحضره على أكرامهم ، ومن بينهم أبو الوليد بن رشد (٥) * .

وكان الخليفة المنصور من حفاظ الحديث ، محبا للعلماء والأدباء ، محسنا إليهم ، مقربا لهم ، مصغيا إلى المديح ، مثيبا عليه . وكان محبا للفلسفة ، فبعد اضطهاده للفيلسوف ابن رشد عاد واستدعاه ، واستخلصه لنفسه يطلعه على أسرار صناعة الصنائع (٦) .

وقد بلغ من اعتناء الموحدين بالعلماء أن قسموهم طائفتين ؛ « فقد جرت عادتهم بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم على أهل كل فن ، وخاصة أهل علم النظر . وممّوهم طلبة الحضر ، فهم يكثرون في بعض الأوقات ويقلون . وصنف آخر ممن عني بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ، ولا بدّ في كل مجلس عامّ أو خاص يجلسه الخليفة منهم ... (٧) .

١ - المعجب : ص ٢٦٩ ، نظم الجمان : ج ٦ ص ٥٣ ، مخطوط الاعتباط بتراجم أعمال الزباط : ج ١ ورقة ٢١٥ .

٢ - المعجب : ص ٣٠٩ .

٣ - من وادي أش ، وهو من مشاهير الأطباء وأهل الحدق والنظر تولى سنة ٥٨١ هـ . الاحاطة : ج ٢ ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

٤ - المعجب : ص ٣١٤ .

٥ - المعجب : ص ٣١٢ ، العبر في خبر من غير : ج ٤ ص ٢٤٠ .

* هو الفيلسوف المشهور محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي . انظر ترجمته في التكملة : ج ١ ص ٥٥٣ - ٥٥٥ .

٦ - المعجب : ص ٣٨٥ .

٧ - المعجب : ص ٣٤٢ .

والحق أن الدولة الموحدية شجعت العلم والعلماء ، وأباحت للتفكير حرّيته ، وحرّرتّه من القيود . وقد شجّع هذا الجوّ العلمّي العلماء والأدباء على الإنتاج والإبداع في كلّ ميدان .

وقد تعدّدت مظاهر النشاط الفكري في الدّولة الموحدية . ومن هذه المظاهر : — **الرحلة في طلب العلم** . وهي نوعان : — داخلية وخارجية؛ أما الداخلية فكانت إلى المراكز العلميّة المنتشرة في أنحاء الدولة . فقد كان كثير من العلماء المغاربة يعبرون إلى الأندلس للدراسة والسّماع . وكان العلماء الأندلسيون يقدون على المغرب ويستقرون بمدنه^(١) . وقد ساعد ذلك على الامتزاج الثقافي بين المغرب والأندلس .

وأما الرحلة الخارجية فكانت غالبا إلى المشرق . وقد أوردت كتب التراجم أسماء كثير من المغاربة والأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق طلبا للعلم^(٢) . وبذلك استمرّ الاتصال الثقافي بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه في عهد الموحّدين .

ومن مظاهر النشاط الفكري في دولة الموحّدين : — **اقتناء الأصول القديمة والعناية بها** . فقد كان للشيخ أبي حفص بن عمر الهنتاني^(٣) همّة عالية في مطالعة الكتب « واقتنائها وانتساخها حتّى اجتمعت له منها خزانة عظيمة عالية الفنون »^(٤) . وقد تحصّل عند أبي الحسن الشاري^(٥) ، « من الأعلاق النفسية ، وأمّهات الدواوين العلميّة ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره ، ولا تحصل عند كثير ممّن تقدّمه »^(٦) . وقد اقتنى أبو الخطّاب أحمد بن واجب القيسي^(٧)

- ١ — أوردت المصادر أسماء كثير من المغاربة والأندلسيين الذين تنقلوا في أنحاء الدولة الموحدية . ونكفي هنا بالإشارة إلى بعض المواطنين التي ورد فيها ذلك . انظر : صلة الصلة : ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ .
- ٢ — انظر التكملة : ج ٢ ص ٨١٦ ، ٨٣٥ ، ٨٤١ ، ٨٥٠ ، ٨٥٦ ، ٨٧٥ .
- ٣ — من أبرز خاصّة المهدي ، وإليه يرجع الفضل في تثبيت مركز الدّولة . وهو بطل معركة السّطاط سنة ٥٦٨ هـ . انظر : — اخبار المهدي : ص ٣٣ ، المرقّ : ج ٢ ص ٢٩٩ .
- ٤ — المرقّ : ج ٢ ص ٢٩٩ .
- ٥ — ترجمته في صلة الصلة : ص ١٤٩ — ١٥٣ .
- ٦ — صلة الصلة : ص ١٥٢ .
- ٧ — ترجمته في التكملة : ج ١ ص ١٠٦ — ١٠٨ .

« من الأصول العتيقة ، والدفاتر النفسية كثيرا ، وربما سافر في تحصيلها ، وهي كانت جلّ ما أورث »^(١) . وقد بلغت قيمة الكتب التي اقتناها أبو العباس أحمد بن يحيى العبدري^(٢) ستة آلاف دينار^(٣) .

وقد كانت تلك الكتب المقتناة مشرقية في معظمها ، ممّا يدلّ على وحدة الفكر والثقافة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه آنذاك . وبدافع الحرص على التراث فقد شرح الأندلسيون كثيرا من تلك الكتب وعلّقوا عليها . ومن هذه الكتب المشروحة : — كتاب الأمالي ، وكتاب الكامل ، وكتاب الجمل ، وديوان المتنبي^(٤) .

ومن هذه المظاهر : المدارس وحلقات التدريس التي كان يعقدها العلماء ، ويقصدها الطّلاب من كلّ فجّ . ويدرس في هذه الحلقات عدد من الطّلاب على شيخ واحد يأخذون العلم عنه . ومن هؤلاء الشيوخ : أبو الحسن علي بن محمد الشاري ، السالف الذّكر . وقد بنى أبو الحسن هذا في بلده مدرسة « وقف عليها من الكتب ما يُحتاج إليه ، وشرع في تكميل ذلك على السنن الجاري بالمدارس ببلاد المشرق »^(٥) . وقد أخذ عن أبي الحسن جلة من العلماء .

ومنهم : علي بن مؤمن بن محمد بن عصفور^(٦) . أقرأ ببلده اشبيلية مدّة ، ثمّ خرج منها وجمال ببلاد الأندلس ، وكان يقيم في كلّ بلد أشهرا يتصدّر للإقراء ، وكان الطلبة يقبلون عليه في كلّ بلد ينزل فيه^(٧) .

١ — التكملة : ج ١ ص ١٠٨ .

٢ — ترجمته في التكملة : ج ١ ص ٩٤ .

٣ — التكملة : ج ١ ص ٩٤ .

٤ — التكملة : ج ١ ص ١٣٠ .

٥ — صلة الصلة : ص ١٥٢ .

٦ — ترجمته في صلة الصلة : ص ١٤٢ .

٧ — صلة الصلة : ص ١٤٢ .

ومنهم : — أبو الحكم عمرو بن زكرياء البهراني^(١) . « رجل الناس إليه من كل مكان ، وأخذ عنه القراءات عالم كثير »^(٢) . ومنهم : — أبو الحسن علي بن يوسف بن علي^(٣) ، وقد « كان معلّم كتاب »^(٤) .

وقد كانت المناظرات العلميّة مظهرًا آخر من مظاهر النشاط الفكريّ في دولة الموحّدين . وكان الخلفاء الموحّدون أنفسهم يشتركون في تلك المناظرات . ومن هؤلاء : الخليفة عبد المؤمن والخليفة المنصور . وقد كان هذان الخليفان يلقيان المسائل بأنفسهما على المشتركين في المجالس العلميّة^(٥) . ومن تلك المناظرات : — المناظرات اللّغوية التي كانت تدور بين علي بن خروف^(٦) وأبي زيد السّهيلي^(٧) وأبي محمّد القرطبي^(٨) . وقد قيّد أبو علي عمر بن عبد المجيد الرّندي^(٩) جزءاً فيما جرى بين ابن خروف وبين الأستاذ أبي محمّد القرطبي سمّاه بـ « الحَبِّي في أغاليط القرطبي »^(١٠) .

ومن مظاهر التّشاط الفكريّ في دولة الموحّدين : ازدهار الوراقة . فقد كان في مدينة فاس وحدها أربعمائة مصنع للورق^(١١) . وقد نبغ في هذا العهد عدد من الورّاقين المغاربة والأندلسيين الذين كتبوا بخطوط مختلفة ، نذكر منهم : — أبا محمّد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري^(١٢) ، وأبا محمد عبد الوالي بن محمّد البتي^(١٣) ، وأبا العباس أحمد بن محمّد البكري البطليوسي^(١٤) ، وعيسى بن محمّد بن شعيب الغافقي^(١٥) .

-
- ١ — ترجمته في صلة الصلة : ص ١٥٧ .
 - ٢ — صلة الصلة : ص ١٥٧ .
 - ٣ — ترجمته في صلة الصلة : ص ١٤٤ .
 - ٤ — صلة الصلة : ١٤٤ .
 - ٥ — المعجب : ص ٣٤٢ .
 - ٦ — ترجمته في فوات الوفيات : ج ٢ ص ١٦٠ ، مخطوط الوالي بالوفيات : ج ٢ ورقة ٦ .
 - ٧ — ترجمته في بغية المتلّس : ص ٣٦٧ ، مخطوط الوالي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٨٩ — ٩٠ .
 - ٨ — لم نهند الى ترجمته .
 - ٩ — ترجمته في صلة الصلة : ص ٦٧ — ٧٠ .
 - ١٠ — صلة الصلة : ص ٦٨ — ٦٩ .
 - ١١ — زهرة الآس : ص ٤٤ .
 - ١٢ — ترجمته في التكملة : ج ٢ ص ٨٨٣ — ٨٨٥ .
 - ١٣ — ترجمته في الذّيل والتكملة : ج ٥ ص ٧١ .
 - ١٤ — ترجمته في الذّيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٢ .
 - ١٥ — ترجمته في الذّيل والتكملة : ج ٥ ص ٥٠٦ ، صلة الصلة : ص ٤٩ .

وكان من الخلفاء الموحدين انفسهم من يجيد الكتابة بأكثر من خط . وكان بعضهم يوقع الرسائل الرسمية بيده بخط الثلث المشرقي ، وبالمداد الأحمر المعروف لهم (١) .

ومن الطبيعي أن يكثر التأليف في دولة بلغ فيها النشاط الفكري مدى بعيدا ، لذلك فقد كثرت في دولة الموحدين المصنّفات التي تبحث في مختلف العلوم والفنون ، وينبغ فيها عدد كبير من العلماء .

ففي مجال العلوم النقلية اهتم الموحدون بعلمي التفسير والقراءات ؛ فأزدهرا ، وذلك بسبب دعوتهم للرجوع إلى الكتاب والسنة ، والأخذ بظاهرها (٢) . فقد رأى الخلفاء الموحدون أن المسلمين قد شغلوا عن كتاب الله وسنة رسوله بكتب الفروع التي لاقت سوقا رائجة في دولة المرابطين . لذلك عملوا جاهدين للقضاء على تلك الكتب ، فأحرق منها على عهد الخليفة المنصور أعداد هائلة (٣) .

وقد ظهر في هذا العهد علماء كثيرون نبغوا في علمي التفسير والقراءات ، نذكر منهم : — أبا عبدالله محمد بن علي بن العابد الأنصاري (٤) ، ألف « في تفسير الكتاب العزيز ، وشرح الأسماء الحسنى ، وفسر كلّ مشكل الكتاب والسنة في سفر متوسط ، وألف كتابه المسمّى بشعب الأيمان » (٥) .

ومنهم : — أبو الحسن علي بن جابر الدباج (٦) « كان حسن السمّت والهدى ... مقرئا مجودا ... عكف على اقراء القرآن وتدرّس العربية والأدب نحو خمسين سنة ... ، وكتب بخطه الرائق الكثير ، وأتقن ضبطه وتقييده » (٧) .

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٢٠ ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين : ص ٢٧٠ .

٢ — أخبار المهدي : ص ٢ و ص ٣ و ص ٨ .

٣ — المعجب : ص ١٨٤ .

٤ — ترجمته في صلة الصلة : ص ٣٠ — ٣١ .

٥ — صلة الصلة : ص ٣١ .

٦ — ترجمته في الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

٧ — الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٩٩ .

ومنهم : — الفقيه المحدث المفسر محمد بن يوسف بن سعادة الذي برع في علوم الدين (١) .

وقد عني الموحّدون بالحديث عناية فائقة ، فقد كان الخليفة المنصور من حفاظ الصحيحين كما ذكرنا . واشتهر في الحديث وعلومه عدد من الرجال نذكر منهم : — أبا محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي (٢) ، « له تواليف حسان » (٣) ، وقد صنّف في الأحكام نسختين : كبرى وصغرى ، وله كتاب في المعتل من الحديث . توفي سنة ٥٨٢ هـ (٤) .

ومنهم : — عبد الرحمن السهيلي الأندلسي المالقي الأعمى المتوفى سنة ٥٨١ هـ . تصدرّ للإقراء والتدريس ، وبعد صيته وجلّ قدره ، واستدعي إلى مراكش وحظي فيها (٥) .

ومنهم : — ابن الفخّار علي بن ابراهيم (٦) « كان له في الفقه ومعاني الحديث تمكّن مكان » (٧) .

ومنهم : — الشهيد أبو الرّبيع سليمان بن موسى الكلاعي . أريت مؤلّفاته على العشرين ، كان « حافظا للحديث ، مبرزاً في نقده ، تامّ المعرفة بطرقه ، ضابطاً لأحكام أسانيده ، ذاكرة لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم » (٨) . استشهد في معركة أنيشة سنة ٦٣٤ هـ (٩) .

-
- ١ — ترجمته في التكملة : ج ١ ص ٥٠٥ — ٥٠٧ .
 - ٢ — ترجمته في بغية الملتبس : ص ٢٩١ .
 - ٣ — بغية الملتبس : ص ٢٩١ .
 - ٤ — مخطوط الواقي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٥٥ .
 - ٥ — المغرب : ج ١ ص ٤٤٨ ، بغية الملتبس : ص ٣٦٧ ، مخطوط الواقي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٥٥ .
 - ٦ — من أهل مالقة ، كان صدرا في حفاظ الحديث ، توفي سنة ٦٤٢ هـ . انظر : — صلة الصلة : ص ١٣٥ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٨٥ — ١٨٦ .
 - ٧ — صلة الصلة : ص ١٣٥ ، وانظر : الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٨٥ — ١٨٦ .
 - ٨ — مخطوط الواقي بالوفيات : ج ١٣ ورقة ١٥٩ .
 - ٩ — انظر : — الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٨٩ — ٩٠ ، الحلة السّيرة : ج ٢ ص ١٠٢ ، إعتاب الكتاب : ص ٢٤٩ .

وقد شجّع الموحدون علمي الأصول والكلام ؛ فنبغ فيهما عدد كثير من العلماء المغاربة إلى درجة كانت تشدّ الرحلة إلى المغرب لطلبهما . فقد أجاز عبدالله ابن باديس اليحصبي (١) البحر إلى مدينة فاس وتبحر على علمائها في علم الكلام (٢) ومن العلماء الذين اشتهروا بعلمي الأصول والكلام : — محمد بن عبد الكريم الفندلاوي (٣) . كان إماما في علم الكلام وأصول الفقه ، وقد عكف على تدريسهما طوال حياته (٤) .

ومنهم : — أبو الحسن علي بن محمد بن خليل المعروف بابن الإشبيلي (٥) ، « كان أصوليا ماهرا ، متكلمًا حاذقا ، وهو الذي قرر علم الأصول وعلم الكلام بمدينة فاس » (٦) .

وقد ازدهرت علوم اللغة العربية في هذا العصر ، ووجدت مدارس نحوية تفرّدت بآراء خاصة في مسائل الإعراب وغيره ، « فهذه مدرسة فاس التي سيختلف أهلها عن مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هريرة ، وهذه مدرسة سبته التي تخالف الجمهور في ضمّ النكرة المقصودة إذا نوّت اضطرارا ، وهذه مدرسة طنجة التي توجه أسئلة نحوية إلى مدرسة إشبيلية ... » (٧) .

وظهر في هذا العصر أشهر علماء النحو واللغة في الأندلس والمغرب . منهم : علي بن محمد الحضرمي ، ويعرف بابن خروف . برع في العربية ، وانقطع لها ، وأصبح من أئمتها البارزين ، وتصدّر لإقراءها طول حياته ، وتفوق بالأخص في شرح

-
- ١ — هو عبدالله بن باديس بن عبدالله بن باديس اليحصبي ، من أهل جزيرة شقر . توفي سنة ٦٢٢ هـ . انظر : التكملة : ج ٢ ص ٨٩٣ .
 - ٢ — التكملة : ج ٢ ص ٨٩٣ .
 - ٣ — من أهل مدينة فاس ، توفي سنة ٥٩٦ هـ . انظر التكملة : ج ٢ ص ٦٨١ .
 - ٤ — التكملة : ج ٢ ص ٦٨١ .
 - ٥ — توفي سنة ٥٦٧ هـ . انظر : صلة الصلة : ص ١٠١ — ١٠٢ .
 - ٦ — صلة الصلة : ص ١٠١ .
 - ٧ — النبوغ المغربي : ج ١ ص ١٢٦ ، وانظر : التكملة : ج ٢ ص ٥٣٨ .

كتاب سيبويه ، وألف شرحه المشهور عليه ، ويقال أنه حمل منه نسخة إلى الخليفة
التَّاصِر بمرآكش ؛ فوصله بألف دينار^(١) .

ومنهم: — ابن عصفور النحوي الاشبيلي ، « حامل لواء العربيّة ، في
الأندلس ، لازم ابن عليّ الشلوّيين نحواً من عشرة أعوام إلى أن ختم عليه كتاب
سيبويه ... توفي بتونس سنة ٦٦٣ هـ »^(٢) .

وأشهر النحويين الذين ظهرُوا في الأندلس أبو عليّ عمر بن محمّد الشلوّيين .
غلبت عليه دراسة العربيّة ، ونبغ فيها ، حتّى غدا إمامها الذي لا يُبارى . وكانت
تشدّد إليه الرّحال من سائر الآفاق للأخذ عنه . وكان امام العربيّة بالمشرق والمغرب ...
توفي سنة ٦٤٥ هـ^(٣) .

ومن اللّغويين المشهورين أبو الخطّاب عمر بن الحسن بن دحيّة الكلبي .
« كان من أحفظ أهل زمانه باللّغة حتّى صار حوشي اللّغة عنده مستعملاً ، غالباً
عليه »^(٤) . ومن هؤلاء اللّغويين السهيلي المالقي السالف الذّكر ، فقد عمد في كتابه
« الرّوض الأنف » الى إيضاح ما في سيرة ابن هشام « من لفظ غريب ، واعراب
غامض ، أو كلام مستغلق »^(٥) .

وقد ازدهر الأدب في هذا العصر . فقد اعتنى الموحدون به ، ونال عندهم
مكانة سامية ، ويتجلّى ذلك في التشجيع المادّي والمعنوي للأدباء . فقد وهب
عبد المؤمن أحد الشعراء ألف دينار على بيت واحد أنشده أياه^(٦) . ووهب المنصور

-
- ١ — انظر : — فوات الوفيات : ج ٢ ص ١٦٠ ، صلة الصلة : ص ١٤٢ ، بغية الوعاة : ص ٣٥٧ ، مخطوط الوالي بالوفيات : ج ٢٠ ورقة ٦ .
 - ٢ — مخطوط الوالي بالوفيات : ج ٢٠ ورقة ٥٢ ، وانظر : — صلة الصلة : — ص ١٤٢ ، فوات الوفيات : ج ٢ ص ١٨٤ ، بغية الوعاة : ص ٣٥٧ .
 - ٣ — انظر : — وفيات الأعيان : ج ٣ ص ٤٥٢ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٤٦٠ — ٤٦٤ ، المغرب : ج ٢٠ ص ١٢٩ .
 - ٤ — وفيات الأعيان : ج ٣ ص ٤٤٨ ، وانظر : بغية الوعاة : ص ٣٦٠ .
 - ٥ — الرّوض الأنف : ص ٣ .
 - ٦ — وفيات الأعيان : ج ٣ ص ٢٣٩ .

ابن مُنقذ^(١) رسول صلاح الدين أربعين ألف دينار على قصيدة مدحه بها ؛ ألف دينار على كل بيت^(٢) .

كذلك كان الخلفاء الموحدون يقيمون الندوات الشعريّة التي يشترك فيها كثير من الشعراء . فقد أقام عبد المؤمن ندوة أدبية ضخمة في جبل طارق ، واستدعى لها الشعراء ، وكان لا يستدعيهم قبل ذلك ، واجتمع على بابه منهم عدد كبير^(٣) .

ونضيف إلى رعاية الخلفاء وتشجيعهم ، الأحداث الكبرى التي ألمّت بالمسلمين في الأندلس . فقد أذكت عواطف الشعراء ، وأهبت مشاعرهم .

ومن أشهر الشعراء المغاربة أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرواي « كان عالما بالآداب ، حافظا بليغ اللسان ، شاعرا مفلحا »^(٤) . وهو « أديب المغرب على الإطلاق في زمانه مع ماله من اعتداد بالنفس ... »^(٥) .

ومنهم : — أبو عبدالله محمد بن حسين بن عبدالله بن حبّوس الفاسي . « كان عالما محققا ، وشاعرا مفلحا ، يتقدّم في ذلك أهل زمانه »^(٦) . وقد جمع شعره في ديوان حافل^(٧) .

ومن الشعراء الأندلسيين المشهورين الذين ظهوروا في هذا العصر : أبو عبدالله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرّصافي . « كان شاعر وقته المعترف له

-
- ١ — هو مرفف بن أسامة بن منقذ ، صاحب كتاب « الاعتبار » ، له علم بالأدب والشعر . انظر : تهذيب تاريخ ابن عساكر : ج ٢ ص ٤٠٠ — ٤٠١ .
 - ٢ — الاستقصا : ج ٢ ص ١٦٤ .
 - ٣ — الثمن : ج ٢ ص ١٥٠ .
 - ٤ — التكملة : ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ .
 - ٥ — العصور البانعة : ص ١٠٢ ، وانظر : ذكريات مشاهير رجال المغرب ، عدد ٦ ، ص ٧ وما بعدها .
 - ٦ — التكملة : ج ٢ ص ٦٧٧ .
 - ٧ — التكملة : ج ٢ ص ٦٧٧ .

بالإجازة»^(١) . مدح عبد المؤمن وهو — أي الشاعر — لم يزل صبيا يافعا ،
« وشعره مدون بأيدي الناس ، متنافس فيه . وقد حمل عنه وسُمع منه »^(٢) .

ومنهم : — أبو الحسن علي بن حزمون ، « صاعقة من صواعق الهجاء »^(٣) ،
أكثر قوله في طريقة التوشيح ، لم يدع موشحة تجري على ألسنة الناس إلا عمل في
عروضها ورويتها موشحة أخرى^(٤) .

ومنهم : — أبو بكر يحيى بن مجبر ، « أديب شاعر متقدم في طريقة الشعر ،
برع فيها وفاق أهل زمانه »^(٥) .

وقد أشارت المصادر إلى كثير من الدواوين الشعرية لشعراء وجدوا في عصر
الموحدين . نذكر منها ديوان أبي بكر بن المنحل الشلبي^(٦) ، وديوان « نور
الكاميم »^(٧) لأبي القاسم الهمداني^(٨) ، وديوان ابن سيّد الاشبيلي^(٩) ، وديوان أبي
العبّاس الصدي^(١٠) ، وديوان أبي العباس الجراوي^(١١) .

- ١ — التكملة : ج ٢ ص ٥٢٠ .
- ٢ — التكملة : ج ٢ ص ٥٢٠ . وانظر : وفيات الأعيان : ج ٢ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ ، الزايات : ص ١١٨ .
- ٣ — المغرب : ج ٢ ص ٢١٤ .
- ٤ — زاد المسافر : ص ٦٤ ، المغرب : ج ٢ ص ٢١٤ ، النسخ : ج ٧ ص ٩ .
- ٥ — بغية المتمس : ص ٥٠٨ . وانظر : الزايات : ص ١١١ ، والعبر في خبر من غير : ج ٤ ص ٢٦٧ .
- ٦ — التكملة : ج ٢ ص ٢٩٧ ، والشاعر : هو أبو بكر محمد بن ابراهيم بن المنحل ، من أهل شلب ، شاعر مجود ، توفي في
حدود سنة ٥٦٠ هـ . انظر : التكملة : ج ٢ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ ، الزايات : ص ٥٧ ، المغرب : ج ١ ص ٣٨٧ .
- ٧ — التكملة : ج ٢ ص ٥٥٧ .
- ٨ — هو أبو القاسم محمد بن علي الهمداني ، من أهل وادي آش . شاعر مطبوع ، له مشاركة في الطب . توفي سنة ٥٩٦ هـ .
انظر : — التكملة : ج ٢ ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .
- ٩ — التكملة : ج ١ ص ٨٠ ، والشاعر هو أحمد بن علي بن سيّد الاشبيلي ، يعرف باللص لإخارته على الأشعار . توفي سنة
٥٥٧ هـ أو ٥٧٨ هـ . انظر : — التكملة : ج ١ ص ٨٠ ، النسخ : ج ٤ ص ٢٠٣ ، المغرب : ج ١ ص ٢٠٢ ،
الرايات : ص ٤٨ .
- ١٠ — التكملة : ج ١ ص ٩٨ ، والشاعر هو أبو العباس أحمد بن يعيش الصدي ، من أهل شريش . توفي سنة ٦٠٥ هـ . انظر :
التكملة : ج ١ ص ٩٧ — ٩٨ .
- ١١ — التكملة : ج ١ ص ١٢٨ .

أمّا النثر الفتي فقد أشارت المصادر إلى كثير من أعلامه الذين انتظم بعضهم في كتاب الدولة الموحّدية . منهم : — أبو عبدالله محمد بن عبد العزيز بن عبدالله بن عيَّاش التجيبي . كان « رئيسا في صناعة الكتابة ، خطيبا مصقعا ، بليغا مّفوّها »^(١) ، استكتبه المنصور ونال عنده دنيا عريضة . وقد حفظت المصادر بعض رسائله التي ظهر فيها روعة أسلوبه ، ورشاقة قلمه^(٢) .

ومنهم : — أبو الفضل محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي ، ويعرف بابن محشرة . كان عالما متمكّنا ، وأديبا بارعا ، وكاتبا مجيدا . استدعاه الخليفة يوسف ليتولّى كتابه السرّ ، فظهر في هذا المنصب بمقدرته ، وروعة أسلوبه وبيانه^(٣) .

على أنّ أبرع كتاب هذا العصر هو أبو المطرف بن عميرة المخزومي . ظهر في أواخر دولة الموحّدين ، وشاهد محنة المسلمين في الأندلس . تفنن في العلوم ونظر في العقليّات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع فيه براعة عدّها من كبار مجيدي النظم . أمّا الكتابة « فهو علمها المشهور ، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدّهور »^(٤) . وقد صدرت عن ابن عميرة مجموعة من الرسائل صوّرت محنة مسلمي الأندلس ، وكشفت عن رهافة حسّه ، وروعة بيانه^(٥) . وهناك نسختان خطيّتان من رسائله محفوظتان في الخزّانة العامة بالرباط^(٦) .

وقد عرفت العلوم العقليّة نهضة شاملة في عهد الموحّدين . فقد كانت الدّولة تعجّ بعدد كبير من الأطباء والصيادلة والفلاسفة والمهندسين . ووجد هؤلاء في الخلفاء الموحّدين الذين رعوهم ميدانا رحبا لمزاولة نشاطهم ؛ فأبدع كثير منهم ، بل إن عددا من أعلام الفكر الاسلامي كان من هؤلاء العلماء .

- ١ — التكملة : ج ٢ ص ٦٠٦ .
- ٢ — انظر : رسائل موحّدية : ص ٢٢٨ — ٢٥٩ .
- ٣ — عنوان الدرّاية : ص ٣٠ .
- ٤ — الإحاطة : ج ١ ص ١٧٤ ، وانظر : مخطوط الاغتباط بتراجم أعمال الرباط : ج ١ ورقة ٤ — ٥ .
- ٥ — انظر : التّفحّح : ج ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ ، الإحاطة : ج ١ ص ١٧٦ ، الرّوض المطّار : مادّة بلسنية ص ٩٧ — ١٠٠ .
- ٦ — الأولى رقم ٢٣٢ ك ، والثانية رقم ٢٣٣ ك .

فقد كان للطب مجالس دراسة منظّمة كذلك التي كان يعقدها ابن زهر^(١) ، وكان يقصدها الطلاب من كلّ جهة ، ويفتخرون بتلقّي قواعد الطبّ فيها^(٢) .

وأظهر المنصور اهتماما كبيرا بالطبّ . فقد عمّر « بمراكش بيمارستانا غريبا أجرى فيه مياهها كثيرة ، وغرس فيه جميع الأشجار وزخرفه ، وأمر له في كلّ يوم بثلاثين دينارا للأدوية »^(٣) .

وقد ظهر في هذا العصر عدد كبير من الأطباء الذين أشارت المصادر إلى حدّتهم ومهارتهم ، نذكر منهم : — أبا بكر بن زهر ، وأبا بكر بن طفيل ، وأبا الوليد بن رشد ، وأبا جعفر احمد الذهبي^(٤) ، وأبا بكر محمد بن علي الزّهري^(٥) ، وموسى بن ميمون القرطبي^(٦) .

وقد نبغ في عهد الموحّدين عدد من علماء النبات ، أشهرهم : — ابن البيطار الأندلسي ، وابن الرّوميّة الإشبيلي . أمّا ابن البيطار ف « إليه انتهت معرفة النبات ، وتحقيقه ، وصفاته ، وأسماءه ، وأماكنه ، لا يجارى في ذلك . سافر إلى بلاد الأغارقة ، وأقصى بلاد الرّوم ، وأخذ فنّ النبات عن جماعة »^(٧) . وكان بمصر رئيسا على سائر العشّابين .

- ١ — هو أبو بكر محمّد بن عبد الملك بن زهر الإبادي . أخذ صناعة الطبّ عن أبيه . عانى عمل الشعر ، وله موشحات بتغنى بها . انظر : عيون الأنباء : ص ٥٢١ ، رايات المرزّين : ص ٤١ .
- ٢ — عيون الأنباء : ص ٥٣٦ .
- ٣ — مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٢ ، وانظر المعجب : ص ٣٦٤ .
- ٤ — هو أبو جعفر أحمد بن عتيق بن الحسن بن زياد بن جرج الذهبي من أهل بنلسية . ولد سنة ٥٥٤ هـ وتوفي سنة ٦٠١ هـ . انظر : — التكملة : ج ١ ص ٩٥ ، الذيل والتكملة : ج ١ ص ٢٧٩ ، المغرب : ج ٢ ص ٣٢١ .
- ٥ — هو أبو بكر محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن القرشي الزّهري ، من أهل إشبيلية . توفي سنة ٦٢٣ هـ عن سن عالية زاحمت التسعين . انظر : — التكملة : ج ٢ ص ٦١٩ .
- ٦ — يهودى التحلة ، قرأ الطبّ وأجاده علما . أظهر الاسلام خوفا من سلطان الخليفة عبد المؤمن ، ثمّ ارتدّ بعد أن هاجر إلى مصر . توفي سنة ٦٠٥ هـ . تاريخ الحكماء : ص ٣١٧ — ٣١٩ .
- ٧ — فوات الوفيات : ج ١ ص ٤٣٤ .

وأما ابن الرومية فقد مال إلى علم النبات ودراسته ، وتحوّل من أجل ذلك في الأندلس والمغرب . ورحل إلى المشرق ، ووقف في رحلاته على ما لم يقف عليه غيره من أصناف النبات ، وله تصانيف في النبات عديدة^(١) .

ولعلّ أهمّ مظهر من مظاهر التحرّر الفكري في دولة الموحّدين انتشار دراسة الفلسفة ، وكانت من قبل لا تعنى إلاّ الرّندقة والإلحاد^(٢) . ويعود اهتمام الموحّدين بالفلسفة إلى « الدعوة التي ثار المهدي بها على فقهاء عصره الذين حرّموا العلوم العقلية ، وأقفلوا باب الاجتهاد ، وقطعوا كلّ اتّصال بكتب الأصول ... واستسلموا لتيّار التقليد ، وترديد أقوال السّابقين »^(٣) .

وقد أعطى ابن تومرت العقل حرّية واسعة في ميدان العقائد ، « فبضرورة العقل يعلم وجود الباري سبحانه »^(٤) ، ومن ثمّ أقام الجانب التوحيدى^(٥) من مذهبه على أساس عقليّ .

رعى الخلفاء الموحّدون الفلسفة واعتنوا بها . فقد انكبّ الخليفة يوسف أثناء ولايته على إشبيلية على دراسة فلسفة اليونان ، ولا سيّما فلسفة أرسطو . ولما ولي الخلافة طمح به شرف نفسه ، وعلوّ همّته إلى تعلّم الفلسفة ؛ فجمع كثيرا من أجزاءها ، وبدأ من ذلك بعلم الطبّ ، ثمّ تخطّى إلى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب ممّا اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي^(٦) . ولم يزل يوسف هذا يجمع الكتب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصة

١ — عيون الأنبياء : ص ٥٣٨ ، التكملة : ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ ، الإحاطة : ج ١ ص ٢٠٨ و ص ٢١٢ .

٢ — الفتح : ج ١ ص ٢٢١ .

٣ — الأمير الشاعر : ص ٥٨ .

٤ — أعزّ ما يطلب : ص ٢٢٩ .

٥ — التوحيد — هو عمدة مذهب ابن تومرت ، وبه سُمّي أتباعه . وجوهر هذا المبدأ هو « العلم بالله » وتزبيّه ، وتصوّره روحيا

صرفا مجردا من أيّ مادّية أو تجسيم . انظر : أعزّ ما يطلب : ص ٢٢٩ ، أخبار المهدي : ص ٤ .

٦ — ترجمته في المعجب : ص ٢٥ — ٢٦ .

أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب (١) . ولم يكن الخليفة المنصور أقل اهتماما من والده بعلوم الفلسفة (٢) .

وقد برع في ميدان الفلسفة اثنان من كبار فلاسفة الإسلام ، هما : — أبو بكر بن طفيل ، وأبو الوليد بن رشد .

وازدهرت الهندسة في عهد الموحّدين ، وإنّ المنشآت العمرانيّة الضخمة التي خلّفوها لتشهد لهم بذلك . فقد أظهر الخلفاء الثلاثة الأول اهتماما بالغا بإقامة المنشآت وتشييدها . فقد أمر عبد المؤمن ببناء حصون جبل الفتح : وإقامة القصور الضخمة به (٣) . كما أمر ببناء جامع تينملل (٤) ، ووسع المدينة — أي مدينة تينملل — عند زيارته قبر المهدي سنة ٥٤٨ هـ (٥) . كذلك فقد شيد القصور الفخمة في مراكش (٦) .

وأظهر الخليفة يوسف عناية بالغة بمدينة إشبيلية ، وتكاد جهوده في ميدان الإعمار تكون مقصورة عليها . فقد بنى فيها قصور البحيرة الرائعة (٧) ، وأقام قصورا بدیعة خارج باب الكحل (٨) * . وشيّد الجامع الكبير وقصبة إشبيلية (٩) ، وأقام حول المدينة سورا عظيماً ، وأمر ببناء جسر يوصل بين إشبيلية وريضها القبلي بطريانه (١٠) ** .

- ١ — المعجب : ص ٣١٢ ، العبر في خبر من غير : ج ٤ ص ٢٤٠ .
- ٢ — انظر : — الذيل والتكملة : ج ١ ص ٢٨١ ، المعجب : ٣٤٢ .
- ٣ — المَنّ : ج ٢ ص ١٣٧ .
- ٤ — تينملل : وتكتب تينمل وتاملت وتين وملل . وهو من جبال السوس ، كان مهد الدعوة الموحّدية ، ثمّ مدّنه عبد المؤمن وحصّنه . انظر : المَنّ : ج ٢ ص ٢١٥ .
- ٥ — المَنّ : ج ٢ ص ٢١٥ .
- ٦ — المعجب : ص ٢٢٧ .
- ٧ — المَنّ : ج ٢ ص ٤٦٤ .
- ٨ — المَنّ : ج ٢ ص ٤٦٤ .
- * باب الكحل : أحد أبواب اشبيلية . المَنّ : ج ٢ ص ٤٦٤ .
- ٩ — المَنّ : ج ٢ ص ٤٧٤ .
- ١٠ — المَنّ : ج ٢ ص ٤٦١ .
- ** طريانه أو أطريانه : من حواضر اشبيلية . الحلل السندسيّة في الاخبار والآثار الأندلسية : ج ١ ص ٢١٩ .

وقد أسس الخليفة المنصور حصن الفرج في اشبيلية ، وأتم بناء الجامع الذي كان قد بدأ والده بناءه في تلك المدينة ، وأقام له صومعة ضخمة ، وتفانج رفعت على منارة ، وقد موّهت تلك التفانج بمائة ألف دينار ذهباً (١) .

وأتجه ضعفاء الخلفاء إلى تشييد القلاع والحصون لحماية المدن الإسلامية من اعتداءات الصليبيين . فقد أمر الخليفة المأمون ببناء برج الذهب في إشبيلية ، كما ينسب إليه السّور الأمامي المعروف بـ « الحرم البراني » أمام أسوار اشبيلية (٢) .

وعلى الرّغم من ازدهار الحركة الفكرية في عهد الموحّدين وتشجيع الخلفاء لها ، فإنّ بعض المطاردات الفكرية كانت تحدث بين الفينة والأخرى . ولعلّ أبرزها اضطهاد الفيلسوف موسى بن ميمون (٣) ، واضطهاد ابن رشد وزملائه في عهد المنصور (٤) ، ومصرع الفيلسوف ابن حبيب القصري* في عهد المأمون (٥) .

ضعفت الحركة الفكرية في الأندلس في نهاية العهد الموحّدي . ولعلّ هذا يعود إلى اضطراب الأحوال السياسية ، وانصراف الأمة إلى جهاد المعتدين ، وانشغالها بالهنة ، وانعدام الرّعاية للعلماء والمفكرين ، وهجرة كثير منهم إلى المغرب .

-
- ١ - القرطاس : ص ٢٢٩ .
 - ٢ - القرطاس : ص ٢٧٣ ، المغرب الكبير : ص ٨٣٧ .
 - ٣ - المنّ : ج ٢ ص ٢٢٧ ، الاعلام : ج ٣ ص ٢٣ .
 - ٤ - التكملة : ج ١ ص ٥٥٣ - ٥٥٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٢ .
 - * ترجمته في المغرب : ج ١ ص ٢٩٦ .
 - ٥ - المغرب : ج ١ ص ٢٩٦ .

الفصل الأوّل

طبيعة الصّراع في شعر الجهاد

أ — جهاد في سبيل الله .

ب — العروبة في شعر الجهاد .

طبيعة الصّراع في شعر الجهاد

أ - جهاد في سبيل الله :

كان الصّراع بين الموحّدين والفرنجية في الأندلس صراعاً بين عقيدتين :-
الإسلام والنصرانيّة . وقد أشارت المصادر الإسلامية القديمة إلى ذلك . ومن هذ
المصادر رسائل الفتح التي كانت تصدرها الدولة الموحّدية . فقد وجّه الخليفة
عبدالمؤمن إلى الطلبة ، والأعيان ، والكافة رسالة يخبرهم بهزيمة الروم في نواحي
قرطبة . وقد أوضح الخليفة في هذه الرسالة أنّه لم يقم في الأندلس إلاّ « لتتميم
المقصود فيها من إظهار الدين ، ونصر الملة » . ووصفت الرسالة المسلمين بأولياء
الله ، وأنصار الحق . ووصفت الأعداء بالمشركين ، والكفّار ، وأعداء الله (١) .

وفي سنة ٥٦٤ هـ ، وجّه الخليفة يوسف رسالة إلى طلبة الموحّدين في الديار
الأندلسية ، أوضح فيها أنّ الجيوش الموحّدية لم تتجه إلى الأندلس لنصرة حزب على
حزب ، أو لاحتلال أرض ، أو محاربة قوم ، وإنما اتجهت إليها قياماً بحقّ الله في جهاد
أعدائها (٢) .

وفي سنة ٥٩٢ هـ ، وجّه الخليفة المنصور رسالة إلى الطلبة ، والأعيان ،
والكافة في الأندلس يعلمهم بغزوته في ثغر الأندلس الشمالي . وقد اعتبر الخليفة
وقوف المسلمين على مدينة طليطلة (٣) « وظيفة دينية » ، ووصف الأعداء بالكفّار ،
ونعت جيشهم بـ « جيش الصليب » ، وخیل المسلمين « خيل الله » (٤) .

وقد كان للجيوش الموحّدية في ساحات القتال مواقف مؤثرة ، تدلّ على
تعمّق المشاعر الإسلامية في نفوس الجنود . فحينما اصطفت عساكر المسلمين على

١ - رسائل موحّدية : ص ١٢٢ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٣٧٧ .

٣ - طليطلة :- عاصمة قشتالة وتقع جنوب مجريط شرق طليبو على نهر تاجه . أخذها التصاري سنة ٤٧٨ هـ . الروض

المطار : مادة طليطلة ص ٣٩٣ - ٣٩٥ .

٤ - انظر : رسائل موحّدية : ص ٢٣٠ - ٢٤٠ .

ساحل المهديّة ، والتقى أسطول المسلمين بأسطول النصارى ، بكى الخليفة عبد المؤمن ، وسجد قائلاً : « اللهم لا تضع دعائم الإسلام » (١) .

وقبيل معركة السبيكة (٢) ، جمع الشيخ أبو يعقوب (٣) قادة الجيش ، ووعظهم مذكراً بما لهم من الأجر عند الله تعالى إذا صدقوا في جهاد الكفرة (٤) .

وفي معركة وبذة بايع قادة الجيش الخليفة على الجهاد . وما أن بدأ الهجوم حتى « كبر المسلمون على المدينة بأصواتهم ، رافعين أعلى ما يقدرون عليه بالتوحيد والتكبير » (٥) . ولما انكشفت المعركة عن تفوق الصليبيين وخذلان المسلمين جمع الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر (٦) الناس ، ووقف فيهم خطيباً يجرّسهم على الجهاد . ومما قاله : « قد كنتم بمراكش تقولون : — لو كنّا غزونا النصارى لجاهدنا الله عزّ وجلّ واجتهدنا . فلما حضرتم معهم قصرتم ، وجبنتم ، وخنتم الله عزّ وجلّ ، ونكلتم وما نصحتم ! ما أنتم بمؤمنين ولا بموحّدين إن تسمعوا التواقيس تضرب ، وتعابنوا الكفر ، ولا تدفعوا المنكر » (٧) .

ومن الأمور التي توضّح نظرة المسلمين إلى الصراع ما روي عن الخليفة يوسف من أمره بجمع الأحاديث النبوية التي تحث على الجهاد ، ودراستها ، والقائها على الجند (٨) .

كذلك فإنّ سفارة ابن منقذ إلى الخليفة يعقوب المنصور ، بغضّ النظر عن نتائجها ، تصوّر المشاعر الإسلامية المشتركة نحو الصراع ، كما تدلّ على فهم واحد له . فبينما كان الموحّدون يواجهون الهجمات الصليبية على الأندلس ، كان

- ١ — المكتبة العربية الصقلية : ص ٣٠٣ .
- ٢ — وقعت سنة ٥٥٧ هـ . انظر الحلة السراء : ج ٢ ص ٢٥٨ .
- ٣ — هو أبو يعقوب يوسف بن سليمان ، من زعماء الموحّدين ، وقد استخلصه عبد المؤمن لنفسه . أخبار المهدي : ص ٣٣ — ٣٥ .
- ٤ — المن : ج ٢ ص ١٩٧ .
- ٥ — المن : ج ٢ ص ٤٩٣ .
- ٦ — من فقهاء إفريقية ، تعلق بابن تومرت ، وأصبح من أتباعه الأثمنين . نظم الجمان : ج ٦ ص ٢٢ .
- ٧ — المن : ج ٢ ص ٥٠١ .
- ٨ — المعجب : ص ٣٢٨ .

صلاح الدين الأيوبي يتصدى للحملات الصليبية على المشرق . لذلك فقد أحسّ صلاح الدين أنّ الدولة الموحّدية هي خير صديق يمكن طلب العون منه ، لإيمانه بأن القضية التي يدافعان عنها قضية واحدة ، وأن العدو الذي يجاهدانه عدو واحد (١) .

أزرت الكنيسة في روما الحرب التي شنتها الفرنجة على مسلمي الأندلس . واعتبر البابا هذه الحرب حربا صليبية مقدّسة (٢) ضد المسلمين الذين نعتم بهم بـ « أعداء الدين » (٣) . فعندما عزم الصليبيون على محاربة المسلمين في عهد الخليفة الناصر ، أرسل مطران طليطلة مبعوثيه الى فرنسا والأُمم المجاورة لاستشارة حماسة التّصاري على العبور إلى الأندلس . كذلك فقد أرسل ملك قشتالة مبعوثا إلى البابا يرجوه أن يدعو أمم أوروبا التّصراية لمؤازرته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضدّ المسلمين في الأندلس .

نجحت مساعي ملك قشتالة تلك . فقد اجتمعت لديه حشود هائلة من الصليبيين الوافدين من أنحاء أوروبا (٤) ، وأقيمت الصلوات طلبا للنصر (٥) ، وألقى رجال الدين التّصاري الخطب والمواعظ في الجند حتّى يبعثوا الحماسة فيهم (٦) .

أشار المؤرخون المسلمون إلى جهود ملك قشتالة تلك . وقد كان عبد الواحد المرّاكشي أكثر المؤرخين إدراكا لذلك ، حيث قال :- « وخرج الأذفنس — لعنه الله — إلى قاصية بلاد الروم ، مستنفرا من الجزيرة نفسها ، ومن الشام ، حتى بلغ نفيوه إلى القسطنطينية . وجاء معه صاحب بلاد أرغن ، المعروف بالبرشونوي ، لعنه الله » (٧) .

١ — انظر حديثا مفصلا عن سفارة ابن منقذ وظروفها ونتائجها كتاب : جولات في تاريخ المغرب : ص ٦٩ — ١٠١ .

٢ — انظر : أوروبا العصور الوسطى : ج ٢ ص ٥٠١ .

Moorish Culture, P. 195; Moors in Spain, P. 168 .

٣ — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين : ص ٢٦٩ و ص ٣٣٥ .

٤ — انظر :- العرب في أسبانيا : ص ١٨٤ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين : ص ٣٦٠ — ٣٦١ . A Hist. of the Middle Ages, P. 199. Out lines of the Med. Hist, P. 261, Apolitical Hist. of the Moslim in Spain, P. 273 .

٥ — المعجب : ص ٣٢٤ .

٦ — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين : ص ٢٦٨ .

٧ — المعجب : ص ٣٩٩ .

أما صاحب الروض المعطار فقد قال :— « ثم استغاث الأذفنش بأهل ملته ، وحثهم على حماية دينهم ، فاستجابوا له ، واثالوا عليه من كل مكان » (١) . كما أشار صاحب شذرات الذهب إلى ذلك بقوله : « واستنفر الأذفنش عليه — أي على الخليفة الناصر — حتى فرنج الشام وقسطنطينية الكبرى » (٢) .

وقد أشار إلى ذلك بصورة بليغة واضحة الخليفة الناصر في كتابه عن معركة العقاب ، حيث قال :— « فبثّ — أي ملك قشتالة — القسيسين والرهبان من برتغال إلى القسطنطينية العظمى ... فجاءه عبّاد الصليب من كل فجّ ومكان سحيق » (٣) .

اضطرت الحماسة الصليبية في نفوس النصارى ، فقامت جماعات الفرسان الدينية . وقد نذرت هذه الجماعات نفسها للدفاع عن النصرانية ، ونزول الميدان دائما لمقاتلة المسلمين (٤) . فقامت في قشتالة جماعة « فرسان القنطرة » ، وجماعة « فرسان قلعة رباح » . كما قامت في جليقة جماعة « القديس ياقب » . أما البرتغال فقد ظهر فيها فرسان « الداوية » ، وفرسان « القديس يوحنا » ، وجماعة « المحاربة الجديدة » ، وجماعة « القديس ميخائيل ذى الجناح » (٥) .

شجعت الكنيسة هذه المنظمات التي قامت بنفس الدور الذي قامت به الداوية والاستراية في الأراضي المقدسة . بل أن البابا اسكندر الثالث ، والبابا أنوسنت الثالث ، وكلاهما يتمتع بروح صليبية عالية ، أسهما إسهاما مباشرا في قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها الأندلس ، وهي منظمة سنتياجو Santiago (٦) .

١ — صفة جزيرة الأندلس : ص ١٣٧ .

٢ — شذرات الذهب : ج ٥ ص ٤٤ .

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٠ .

٤ — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : ص ٢٦٩ .

٥ — The Empire and the Papacy, P. 431 .

وانظر : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : ص ٢٦٦ — ٢٧٠ .

٦ — أوروبا المصور الوسطى : ج ١ ص ٥١١ .

وقد كانت الجيوش الصليبية المتجهة نحو المشرق ، تغير وجهتها نحو الأندلس ، لمساعدة الصليبيين الذين كانوا يقاتلون المسلمين في هذه الجهة (١) . وهذا يدل على أن الحرب التي خاضها الصليبيون في المشرق والمغرب حرب ذات طابع واحد . فلم يكن ميدان الحروب الصليبية مقصورا على المشرق وإنما شمل الأندلس أيضا . وهذه الحروب في نظر الأوروبيين المعاصرين لا تقل أهمية عن الحروب الصليبية التي احتدمت في مشرق العالم الإسلامي . بل أن ابن الأثير جعل ابتداء الحروب الصليبية في الأندلس ، ثم امتدت فشملت بلاد الشام (٢) .

واكب الشعراء في المغرب والأندلس أحداث هذا الصراع ، وعبروا عنه تعبيرا واضحا ، وذهبوا في ذلك مذهبا يدل على عمق إحساسهم به .

ففي سنة ٥٥٥ هـ ، انتصر المسلمون على الفرنجة في المهديّة ، وأخرجوهم منها (٣) . وقد نسب إلى الخليفة عبد المؤمن قصيدة قالها في هذا الفتح ، منها :—

وأشرقَت الشمسُ المنيرةُ فوقنا (٤) وأصبح وجه الحقِّ غيرَ محجَّبِ
وطَهَّرَ هذا الصُّقْعَ من كلِّ كافرٍ وعاد به الإسلامُ بعدَ تقلُّبِ
وكسَّرتِ الصُّلبانُ في كلِّ بيعةٍ ونادى منادي الحقِّ في كلِّ مرقبِ (٥)

فقد وضع الشاعر انتصار المسلمين على الفرنجة في المهديّة في إطاره الإسلامي الشامل . وتوضيحا لذلك ، فقد ربط هزيمة النصارى بطقوس عقيدتهم ، وانتصار

١ — انظر : Med. Hist., P. 48 .

٢ — يقول ابن الأثير في هذا العدد :— « كان ابتداء ظهور دولة الفرنج ، واشتداد أمرهم ، وخروجهم الى بلاد الإسلام ، واستيلائهم على بعضها ، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ... ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها ... وتطرقوا الى أطراف افريقية فملكوا منها شيئا ، وأخذ منهم ... فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا الى بلاد الشام ... » .

انظر : تاريخ الكامل : ج ١ ص ٢٧٢ .

٣ — تاريخ الكامل : ج ١١ ص ٢٤٢ — ٢٤٤ ، المن : ج ٢ ص ١٤٧ .

٤ — قرئت في المن « موهنا » .

٥ — المن : ج ٢ ص ١٢٤ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .

المسلمين بشعائر دينهم ، مستخدما في ذلك ألفاظا مرتبطة بعقيدة طرفي الصراع .
مثل :— « كافر » ، و « الإسلام » ، و « الصلبان » ، و « بيعة » .

وقد استوعب الشاعر المعنى القرآني في البيت الثاني ، حين جعل المشركين
« نجسا » (١) ، وعدّ إخراجهم من ديار الإسلام تطهيرا لها .

وفي هذا المعنى قال ابن الأثير (٢) .

ظَهَرُ بِلادِكْ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجِسٌ وَلَا طَهارةَ إِنْ لَمْ تَغسِلِ النَّجِسا (٣)

وفي سنة ٥٥٥ هـ ، جاز الخليفة عبد المؤمن البحر إلى الأندلس على رأس
جيش . وقد هدد ابن سيد الأشبيلي الصليبيين بهذا الجيش قائلا :

لا أَيْنَ يا آلَ الصليبِ وحزبِهِ حتى يعمَّ القتلُ كلَّ مُصلِبِ
ويورثُ التوحيدُ عرضَ بلادكم من بعدِ بَحْثِ عَنْكُمْ وتَنْقِبِ

* * *

حتى تقرَّ عيوننا في أرضنا وتقرَّ عينُ نبيِّنا في يثرب (٥)

ونلمح في الأبيات المشاعر الإسلامية الدافقة التي أوحت إلى الشاعر بتهديد
الأعداء على هذا النحو . وهو تهديد حافل بالمؤثرات الوجدانية التي تستمد تأثيرها
من العقيدة الإسلامية ، وتثير مشاعر الإيمان في النفوس : ومن أبرز تلك المؤثرات ،
وصف الأعداء بـ « آل الصليب وحزبه » ، وربط الصراع بشخص سيدنا محمد عليه
السلام .

-
- ١ — سورة التوبة : آية ٢٨ .
 - ٢ — هو الكاتب المشهور أبو عبدالله محمد بن الأثير ، صاحب كتاب التكملة . كان « فاضلا في الشر والتاريخ وملح
الأدب » . توفي قتل سنة ٦٥٨ هـ . انظر : المغرب : ج ٢ ص ٣٠٩ ، الرابات : ص ١١٤ ، أزهار الرياض : ج ٣
ص ٢٢٤ .
 - ٣ — النسخ : ج ٤ ص ٤٦٠ .
 - ٤ — الحلل المشوية : ص ١٢٩ ، المن : ج ٢ ص ١٤٧ .
 - ٥ — المن : ج ٢ ص ١٧٠ .

وقد قال الشاعر نفسه قصيدة أخرى في المناسبة ذاتها . ومما ورد فيها قوله :

أبلغ ذوي الشرك والإلحاد قاطبة أن ما لهم من جنود الله من قبل
أتاكم الجيشُ محفوفًا جوانبه بالمشرفية والخطية الذبيل
ريعوا إلى السلم والإسلام ويحكم لا تحسبوا دولة التوحيد كالذول^(١)

ويؤكد الشاعر في هذه الأبيات فهمه الإسلامي الشامل للصراع . وحتى يقرر ذلك ، فقد نعت الأعداء بـ « ذوى الشرك والإلحاد » ، ونعت المسلمين بـ « جنود الله » ، وحث الصليبيين على التسليم والدخول في الإسلام ، لأنه لا قدرة لهم بهؤلاء الجند الذين يجاهدون في سبيل الله ، وبدولة الموحدين التي تقاتل لإعلاء كلمة الله .

ويستين القارىء لقصيدة أبي العباس الجراوى التي قالها في انتصار المسلمين سنة ٥٥٦ هـ^(٢) ، الطابع الديني الذي اضفاه على هذا الانتصار ، حيث اعتبره إعلاء لدين الواحد القهار وتمكينه له ، يقول :

أعليت دين الواحد القهار بالمشرفية والقنا الخطار
ورأى بك الإسلام قرّة عينه وغدت بك الغراء دار قرار^(٣)

وقد نقل أبو عمر الأشيري^(٤) الصراع إلى ميدان العقائد عندما نظر إلى هزيمة الصليبيين سنة ٥٦٨ هـ^(٥) ، باعتبارها إهانة للشرك عامة ، يقول :

دارت رحا الهلكات بالسبّاط^(٦) وسطا بها ربّ الزمان الساطي
وأهينَ فيها الشرك أيّ إهانة شفعت كرية هياطها بمياط*^(٧)

١ - المن : ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٠٦ .

٤ - هو حسن بن عبدالله بن حسن ، من أهل تلمسان . كان من أهل العلم بالقراءات ، إلا أن الأدب غلب عليه . التكملة : ج ١ ص ٢٧٠ .

٥ - المن : ج ٢ ص ٥٢١ .

٦ - السبّاط : تقع جنوب طليطلة . ويقوم مقامها الآن المدينة الملكية . عنده مسلمي الاندلس : ص ٩٦ .

* الهياط والبياط : الإقبال والإدبار . لسان العرب : مادّتا « هيط » و « ميط » .

٧ - زاد المسافر : ص ١٠١ .

وقد استوحى أبو بكر بن مجير التعابير المرتبطة بالعبقيدة الإسلامية (١) ،
والتاريخ الإسلامي لإحداث إيجاءات معينة ، عندما وصف تحرك الجيش الإسلامي
سنة ٥٨٦ هـ (٢) . حيث قال :

بشرايَ هذا لواءُ قلِّ ما عُقدا إلاَّ ومدَّ له الرُّوحُ الأمينُ يدَا

* * *

إمامُ جيشٍ أرادَ اللهُ نُصْرتهُ فأرسلَ الملائمَ الأعلى له مَدَدًا
إتني لأحکمُ بالنصرِ العزيزِ له وإن سَكَتُ فإنَّ الوحيَ قد شَهِدَا(٣)

والشاعر لم يورد تلك المعاني القرآنية إلا ليؤكد المعنى الذي أراده . وهو أن
الحرب التي يخوضها المسلمون ضد الصليبيين حرب في سبيل الله ؛ لذلك فان
السماء تمدها بالعون ، وتؤيدها .

ولمَّا كان المسلمون في قاتلم الأعداء مجاهدين في سبيل الله ، فقد وصفهم
الشعراء بـ « حزب الله » . وقد ورد هذا النعت في القرآن الكريم (٤) . من ذلك قول
الشواش الشلبي (٥) .

يا سعد دين الله أفلح حزبه وهوت عِداه في عذابِ واصبِ (٦)

أما الصليبيون فهم « حزب الكفر » :

فأولئك حزبُ الكفرِ ألاَّ إنَّ الكفَّارَ لفي نكسٍ(٧)

١ - التوبة : آية ٢٦ و ٤٠ ، الأحزاب : آية ٩ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩ .

٤ - المائدة : آية ٥٦ ، المجادلة : آية ٢٢ .

٥ - هو أبو الوليد اسماعيل بن عمر ، المعروف بـ « الشواش الشلبي » . توفي سنة ٥٩٩ هـ . سماه السيوطي : محمدا . بغية

الروعة : ص ٨٦ ، الأعلام : ج ٢ ص ٢٤٠ .

٦ - المن : ج ٢ ص ٢٠٨ .

٧ - المعجب : ص ٣٧١ .

وكذلك فان أرضهم « أرض كفر » :

فطاف بأرض الكفر حتى أعادها إلى الحق وانقاد الأبي المشاقق^(١)

وهي أيضا « أرض المشركين » :

أوطأت أرض المشركين كتابيا كادت تصير الأرض من وطأتها كالبحر يطفح موجها جريا إذا هبت رياح النصر في راياتها^(٢)

وما دام الصراع بين الاسلام والكفر ، فقد صور الشعراء الأمر الذي يقاتل من أجله المسلمون « أمر الله » . فالخليفة المنصور عندما خرج إلى معركة « الأرك » خرج لـ « أمر الله » واثقا من النصر :

ومضيت لأمر الله على ثقة بالله ولم تخس^(٣)

والصليبيون عندما ذلوا في غزوة المنصور سنة ٥٩٢ هـ ، إنما ذلوا لـ « أمر

الله » :

ذلوا لأمر الله قسراً وهم أولو نجدة أباة^(٤)

وفي هذا المعنى قال أبو العباس الجراوى :

الأمر أمر الله ليس يضره ما حاولت من كيد الأعداء^(٥)

ومن المعالم البارزة التي توضح نظرة الشعراء إلى الصراع ، وتؤكد فهمهم الإسلامي له ، التركيز على استثارة المشاعر الإسلامية لدى القبائل العربية التي تقطن إفريقية ، وذلك بتبصيرها بالخطر الذي يهدد الاسلام في الأندلس ، وتحميلها مسؤولية الاشتراك في الدفاع عنه ، واعتبار ذلك امتدادا لما قامت به أصولها في نصرة الإسلام أول مرة .

١ - المن : ج ٢ ص ١٦٧ .

٢ - تحفة القادم ، نشر في مجلة المشرق ، بيروت ، المجلد ٤١ ، سنة ١٩٤٥ ، ص ٥٦٨ .

٣ - المعجب : ص ٣٧١ .

٤ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٠ .

٥ - المن : ج ٢ ص ١٦٧ .

ففي سنة ٥٥٤ هـ ، وجه القاضي ابن عمران (١) قصيدة الى بني سليم (٢) ،
يحثهم على الجهاد ، ويدعوهم إلى الالتحاق بالجيوش الموحدية في الأندلس . ولم يبق
من هذه القصيدة إلا ما يلي :

أَسْلِمُ دَعْوَةَ ذِي إِخَاءٍ مَرشِدٍ هَادٍ إِلَى الْحَقِّ الْمَبِينِ الْمُسْعِدِ
وَمَذَكَّرٍ مَا كَانَ أَسْلَافَ لَكُمْ فَضَلُوا بِهِ أَفْعَالَ كُلِّ مَسَدِّ
بِجِهَادِ أَعْدَاءِ الْإِلَهِ وَنَصْرِهِمْ لِرَسُولِ رَبِّهِمُ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
وَتَعَرَّفُوا أَنَا عَلَيْكُمْ صَبْرٍ حَتَّى يَعُودَ جَوَابُ هَذَا الْمُنشِدِ (٣)

فقد استوحى الشاعر بعض مواقف بني سليم في نصرة سيدنا محمد عليه
السلام ، وجهاد الكافرين أيام الإسلام الأولى ، وربط ذلك بالجهود التي سبذها هذه
القبيلة في جهاد الصليبيين في الأندلس ، إيمانا منه بأن كلا الجهدين امتداد للآخر .
ولا شك أن الشاعر أراد من هذا الربط أن يحقق استثارات وجدانية في نفوس أبناء
هذه القبيلة ، تحفزها على تلبية النداء .

وفي هذا المعنى قال ابن طفيل قصيدة وجهها الى العرب مستدعيا ومحرضا
على قتال الصليبيين . حيث ذكّر بالروابط الإسلامية التي تربط هؤلاء العرب
بالموحدين . كما ذكّر بالدور الذي اضطلعت به هذه القبائل في حمل الرسالة
الإسلامية ونشرها ، ودعاها إلى مواصلة ذلك ، وإحياء مناقبها الأولى . يقول :

نصحنكم والتصح في الدين واجبٌ بما لكم فيه صلاحُ العواقبِ

* * *

بكم نُصِرَ الإسلامُ بدءاً ، فنصره عليكم ، وهذا عوده جدٌ واجبٍ
فقوموا بما قامت أوائلكم به ولا تُغفلوا إحياء تلك المناقب (٤)

١ - هو القاضي أبو موسى عيسى بن عمران ، قاضي الجماعة في مراكش . وقد كان فريدا زمانه دينيا وعلميا وأديبا . توفي سنة
٥٧٣ هـ . المن : ج ٢ ص ٤٤١ .

٢ - بنو سليم : من أوسع بطون مضر وأكثرهم جموعا ، فيهم شعوب كثيرة . الاستقصا : ج ٢ ص ١٤٦ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٩ .

٤ - المن : ج ٢ ص ٤١٢ - ٤١٣ .

وفي سنة ٦٤٠ هـ أمر السيد أبو عمران ، والي اشبيلية يومئذ ، ابن سهل الأندلسي (١) . بمخاطبة عرب المعقل (٢) بكتاب استنفار . وقد ضمن هذا الكتاب قصيدة في ذلك المعنى ، مطلعها :

وَرِداً فَمَضْمُونٌ نَجَاحُ الْمَصْدَرِ هِيَ عَزَّةُ الدُّنْيَا وَفَوْزُ الْمَحْشَرِ

وواضح ما في هذا الاستهلال البارع ، من حث على الجهاد ، وترغيب فيه .

وقد غمرت الروح الجهادية القصيدة ، وظللتها بثتى الظلال ، حيث استوحى ابن سهل ثقافته الإسلامية حين أسهب في الحديث عن الثواب الذي أعده الله للمجاهدين في سبيله . يقول :

خَلَوْا الدِّيَارَ لِدَارِ خَلْدٍ وَارْكَبُوا غَمَرَ الْعِجَاجِ إِلَى النِّعَمِ الْأَخْضَرِ
وَتَسَوَّغُوا كَدَرَ الْمَنَاهِلِ فِي السَّرَى تَرَوُوا بِمَاءِ الْحَوْضِ غَيْرَ مَكْدَرِ
وَتَجَشَّمُوا بَحَرَ الْأَجَاجِ فَإِنَّهُ سَبَبٌ بِهِ تَرْدُونَ نَهْرَ الْكَوْثَرِ
وَتَحْمَلُوا حَرَّ الْهَجِيرِ فَإِنَّهُ ظَلٌّ لَكُمْ يَوْمَ الْمَقَامِ الْأَكْبَرِ

وتثير الأبيات المشاعر الإسلامية في نفوس المؤمنين حين تبصرهم بالجزاء الذي أعده الله للمجاهدين في سبيله . وقد استعان الشاعر لتوضيح ذلك ببعض الألفاظ الإسلامية المرتبطة بالحياة الأخرى لإحداث إيماءات معينة . مثل : « الحوض » ، « الكوثر » ، « دار الخلد » ، « يوم المقام الأكبر » .

وقد رد ابن سهل معنى رده الشعراء من قبله ، وذلك حين دعا العرب إلى مواصلة الدفاع عن الإسلام ، وأكد لهم أن ذلك فرض عليهم ، لأنه دين نبهم :
أَنْتُمْ أَحَقُّ بِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّكُمْ وَبِكُمْ تَمَهَّدُ فِي قَدِيمِ الْأَعْصُرِ
أَنْتُمْ بِنَيْتِمِ رِكَنِهِ فَلْتَدْعُمُوا ذَاكَ الْبِنَاءَ بِكُلِّ أَلْسِ أَسْمَرِ

١ - هو أبو اسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي . كان من عجائب الزمان في ذكاته . وقد شك المؤرخون في إسلامه . توفي سنة ٦٤٩ هـ . المغرب : ج ١ ص ٢٦٩ ، الرابات : ص ٥١ .

٢ - عرب المعقل : نسبهم خفي مجهول . بعدهم بعض نسائي العرب من بطون هلال . وهم يدعون أنهم من آل البيت . كانت مساكنهم قرب البحرين . هاجروا إلى المغرب ، وتفرقوا في أنحاءه . قبائل المغرب : ج ١ ص ٤١٢ .

واستمراراً في استشارة المشاعر الإسلامية لدى القبائل العربية ، فقد قدّم ابن سهل صورة مؤثرة لتضعضع الوجود الإسلامي في الأندلس وانحساره ، وعلوّ الكفر وتقدّمه :-

أضحى الهدى يشكو الظما ولأنتمم طلل ورئى كالربيع المطر
وعلا الجزيرة غيبٌ وعمودكم مطوية فوق الصباح المسفر
الدين ناداكم وفوق سروجكم غوث الصرخ وبغية المستنصر
لم يبق للإسلام غير بقية قد وُطنت للحادث المتنكر^(١)

فمصير الوجود الإسلامي في الأندلس يلحّ على الشاعر ويقلقه في كلّ بيت من تلك الأبيات . وقد قدّم التعبير الشعريّ الإسلام صورة حيّة ، تهتف بالعرب مستنجدة . وهي صورة مؤثرة . وخلال ذلك جاء النكير على العرب بسبب تقاعسهم وتحاذلهم عن الجهاد ، فيوقظهم من هود الإلف والعادة ، ويلفتهم إلى تأمل واقع الإسلام من حولهم .

ومن الأمور التي تلقانا كثيرا في شعر الجهاد ، التفات الشعراء إلى الماضي ، واستيحاء بعض المواقف والأحداث التي تحتلّ مكانة سامية في التراث الإسلامي ، وربطها ببعض الوقائع والشخصيات الإسلامية التي وجدت في عهد الموحّدين .

فقد أوحّت هزيمة الصليبيين في معركة الأرك إلى أبي العباس الجراوي بهزيمة الكفار يوم بدر ، فربط بين الهزيمتين إيمانا بأن كليهما نصر للإسلام ، وهزيمة للكفر : يقول :-

لقد أورد الأذفنشُ شيعته الرديّ وساقهم جهلاً الى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأصحابه الأولى تبرأ منهم حين أوردتهم بدر^(٢)

١ - ديوان ابن سهل : ص ١٤٠ - ١٤١ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ ، شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق ص ٧ .

وقد استثار عبور الجيوش الموحدية الى الأندلس سنة ٥٦٠هـ (١) المشاعر الإسلامية في نفس ابن حربون (٢) ، فأوحت إليه بتهديد الأعداء بمعركة كبرى على غرار معركة اليرموك ، حيث قال :-

فَالآنَ قَلَّ لِدَوِي الْإِلْحَادِ شَأْنَكُمْ فَمَا لَكُمْ دُونَ هَذَا الْأَمْرِ مَلْتَحِدُ
هَاتِيكَ ثَانِيَةَ الْيَرْمُوكِ قَدْ رَجَفَتْ مَا إِنْ لَكُمْ صَبَبٌ عَنْهَا وَلَا صَعْدُ (٣)

ويرتبط التاريخ الإسلامي للأندلس بشخصيتي : موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، اللذين قادا جيوش الفتح الاسلامي لها . فلا غرابة إذن أن وجدنا بعض الشعراء يستلهمون مواقف تينك الشخصيتين ، ويقرنونها بمواقف بعض الشخصيات الموحدية المجاهدة . من ذلك ، ما فعله أبو العباس الجراوي ، حيث اعتبر جهود الخليفة عبد المؤمن في محاربة الكفار مكملة لجهود هذين القائدين في فتح الأندلس ، ونشر الإسلام فيها . يقول :-

لَوْ رَأَى مُوسَى مَا فَعَلْتَ وَطَارِقُ زُرِيَا بِمَا لَهُمَا مِنَ الْأَثَارِ
أَتَمَمْتَ مَا قَدْ أَمَلُوهُ ففَاتَهُمْ مِنْ نَصْرِ دِينِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤)

واستمرار في استيحاء أحداث الماضي وربطها بالحاضر ، فقد قرن عبد الواحد المرآكشي شخصية ابراهيم بن ابي يوسف (٥) بشخصية الخليفة العباسي المنصور ، حيث قال :-

أَحْيَيْتُمُ الْمَنْصُورَ فَهُوَ كَأَنَّهُ لَمْ تَفْتَقِدْهُ مَعَالِمٌ وَعِلْمٌ
وَمَحَابِرٌ وَمَنَابِرٌ وَمَحَارِبٌ وَجِمَىٰ بِحَاظٍ وَأَرْمَلٌ وَيَتِيمٌ

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٦٣ ، المَن : ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥٣ .

٢ - هو أبو عمر بن عبدالله بن حربون ، كان أولًا في جملة كتاب ابن قسي زعيم المرينيين ، ثم في جملة كتاب السيد أبي حفص . أورد ابن صاحب الصلاة عدّة قصائد له . وابن حربون هذا غير ابن حزمون . انظر : المَن : ج ٢ ص ٢٤٥ ، تعليق رقم (١) .

٣ - المَن : ج ٢ ص ٢٥٥ .

٤ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

٥ - هو ابن الخليفة المنصور . قال عنه المرآكشي : « من خيرة ولده ، وأجدرهم بالأمر » ، ولي إشبيلية سنة ٦٠٥هـ .

المعجب : ص ٣٨٧ .

وقد استلهم المراكشي القصص القرآني بحذق ، عندما قرن مدينة طليطلة التي تعاني من الاحتلال الصليبي بشخصية السيدة هاجر التي قاست من الآلام كثيرا ، حيث قال :-

وأرى طليطلة كهاجر إثرها سيزفها الأذفنش وهو ذميم^(١)

وهذا الالتفات إلى الماضي ، واستيحاء بعض الأحداث والشخصيات التاريخية التي تتبوأ مكانة سامية في التراث الإسلامي ، أكسب بعض القصائد هالة إسلامية وضاعة قادرة على استثارة « إيجاعات فكرية وعاطفية في نفوس المسلمين جميعا ، والمقاتلين منهم بصورة خاصة »^(٢) . ولا شك أن لهذه الإيجاعات آثارا فاعلة في النفوس .

ولما كان المسلمون في حربهم ضد الصليبيين مجاهدين في سبيل الله ، فقد اعتبر الشعراء قتلاهم شهداء : من ذلك ، ما ورد في قصيدة ابن الأبار التي رثى فيها أبا سليمان الكلاعي خاصة ، ومن استشهد في معركة أنيشة عامّة^(٣) ، حيث قال :-

| | |
|--|---|
| وعوجا عليها مأربا وحفاوة ^(٤) | مصارع غصت بالطلّى والجماجم |
| نحبي وجوها في الجنان وجبهة | بما لقيت ^(٥) حمرا وجوه الملاحم |
| وأجساد ايمان كساها نجيؤها ^(٦) | مجاد من حوك ^(٧) الظبا واللهازم |
| مكرمة حتى عن الدفن في الثرى | وما يكرم الرحمن غير الأكارم |
| هم القوم راحوا للشهادة فاغتندوا ^(٨) | وما لهم في فوزهم من مقاوم |
| مضوا في سبيل الله قدما كأنما | يطيرون من إقدامهم بقوادم |
| يزرون جوار الله أكبر مغنم | كذاك جوار الله أسنى المغانم |

١ - المعجب : ص ٣٨٧ .

٢ - صدى الغزو الصليبي : ص ٨٦ - ٨٧ .

٣ - وقعت سنة ٦٣٤ هـ . وقد هزم فيها المسلمون . مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٥٢ .

٤ - قرئت في الرقية العليا « مفازة » .

٥ - قرئت في الرقية العليا « بقيت » .

٦ - قرئت في الرقية العليا « نحيفها » .

٧ - قرئت في الرقية العليا « نسج » .

٨ - قرئت في الرقية العليا « واغتندوا » .

فقد ربط ابن الأثير مقتل كثير من المسلمين في معركة أنيشة بمعان دينية مستوحاة من القرآن الكريم . كما صور الروح الجهادية العارمة التي ملأت قلوب أولئك المجاهدين ، ودفعتهم إلى الإقدام على الموت ، وطلب الشهادة . لذلك جاء التعبير الشعري زاخرا بالمعاني الإسلامية التي تثير المشاعر ، وتأسر الوجدان . والشاعر لم يورد هذه المعاني إلا بوحى من الطابع الإسلامي للصراع .

وقد ردّد ابن الأثير في قصيدته كثيرا من التعابير الإسلامية المرتبطة بالحياة الأخرى . مثل : « دار السلام » و « الحور » :

مناجٍ إلى دار السلام منادم بها الحورُ ، واهأ للمنادى المنادم
و « جنات التّعيم » :-

تَبَوَّاتِ جَنَاتِ التَّعِيمِ ولم تزلْ نزيلَ الثُّرَيَّا قبلها والنَّعَائِمِ
و « الفردوس » :-

وُحِّمَتْ عَلَى الْفَرْدُوسِ حَتَّى وَرَدَتْهُ فَفَزَّتْ بِأَشْتَاتِ الْمُنَى فَوْزَ غَانِمِ (١)

وقد ناقش الشعراء المسلمون الصليبيين في عقيدتهم ، ونعوتها بصفات مستوحاة ممّا ورد في القرآن الكريم عنها . مثل :- الشرك ، والكفر ، والضلال... (٢)

وبعد ، فقد قدّم الشعراء الصراع الذي احتدم بين الموحّدين والصليبيين في إطاره الإسلامي الشامل :باعتباره صراعا بين المسلمين عامّة وغزاة الديار الإسلامية . فقد نظر الشعراء إلى هؤلاء الغزاة على أنّهم قوم مختلفون في العقيدة ، ويقاثلون المسلمين تحت لواء تلك العقيدة ، واعتبروا أيّ انتصار يحرزه المسلمون على أولئك الغزاة انتصاراً للإسلام ، وأيّ هزيمة تلحق الصليبيين هزيمة للكفر عامّة . ومن

١ - المرقبة العليا : ص ١٢٠ - ١٢٢ ، الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠ - ٩٥ .

٢ - حتى لا يكون في الحديث تكرار ، فإنّ الدارس لم يتحدث عن عقيدة الصليبيين في هذا الموضوع . وإنما أرجأ ذلك إلى فصل تال .

ثمّ فقد رأى الشعراء أنّ جهاد الموحّدين للصليبيين في الأندلس متمّم لجهاد الفاتحين الأوّلين لها . كما اعتبروا جهود العرب في نضال الصليبيين امتدادا للجهود التي بذها العرب الأوّلون لنصرة الإسلام ، ومؤازرة سيدنا محمد عليه السلام .

وقد كان مصير الإسلام في الأندلس محور تفكير الشعراء ، وخاصّة في السنوات الأخيرة للدولة الموحّدية ، وهي السنوات التي اشتدّت فيها وطأة العدوان الصليبي . وقد بدا ذلك واضحا في قصيدة ابن سهل .

لذلك فقد غمرت المشاعر الإسلامية شعر الجهاد ، فما من قصيدة قيلت ، وطالعاها الدّارس ، إلّا كانت العقيدة الإسلاميّة توجّه مشاعر قائلها ، بحيث باتت تلك القصائد تمثّل روح الصّراع .

وإذ يضع الشعراء الصّراع في إطاره الإسلاميّ الشامل ، فإنّهم يخرجونه من الدائرة الإقليمية الضيقة ، أو العنصرية البغيضة . وهم بذلك لم يكونوا أمّناء على التاريخ فحسب ، وإتّما يحافظون على المشاعر الإسلاميّة الموحّدة ، وبالتالي يستقطبون أكبر قدر من المسلمين على درب الجهاد^(١) . وتتجلى أهمية ذلك في دولة مثل الدولة الموحّدية : اتّسعت رقعتها ، وتعدّدت عناصر سكانها .

ب — العروبة في شعر الجهاد :

من الأمور التي تركت لمسات واضحة في شعر الجهاد ، الدور الذي اضطلعت به القبائل العربية ، التي تقطن إفريقيا ، في جهاد الصليبيين في الأندلس على عهد الموحّدين .

وقد دخل قسم من أولئك العرب إفريقية مع حركة الفتوح الإسلامية الأولى ، واستقروا هناك^(١) . إلا أنّ القسم الأكبر منهم كان من العرب الذين استوطنوا مصر ، ثمّ نقلهم الفاطميون في القرن الخامس إلى إفريقية^(٢) . وتضم هذه القبائل شعوبا من بني هلال^(٣) ، وبني سليم ، وعرب المعقل^(٤) .

ولمّا فتح الموحّدون إفريقية ، قدم إلى الخليفة عبد المؤمن أمراء تلك القبائل ، فتلقّاهم بالمبرّة ، وأحسن اليهم . إلا أنّ العرب الهلاليين شغبوا على الموحّدين ، وتحذوهم ، فلقيتهم جيوش الخلافة في سطيف^(٥) . وقد هزمهم الموحّدون في هذه الموقعة هزيمة نكراء . وفي إثر هذه الهزيمة ، راجع الهلاليون بصائرهم ، واستكانوا لعزّ الموحّدين ، ووفدوا على الخليفة عبد المؤمن في مراكش ، فأكرم زعماءهم ، وأطلق أسراهم ، وردّ سباياهم^(٦) .

وما كادت الجيوش الموحدية تقضي على تشغيب بني هلال ، حتّى بلغ عبد المؤمن أنّ بني سليم قد قاموا في قابس^(٧) ، فخطبهم بشعر من قول ابن عمران ، ثمّ كتب لهم شعرا آخر من قول ابن طفيل يستدعيهم ، ويحثهم على الهدوء والسكينة . إلا أنّهم لم يستجيبوا له ، فجردّ الموحّدون لهم جيشا استطاع أن يهزمهم^(٨) .

- ١ — انظر : فوح إفريقية : ج ١ ص ١٣٥ .
- ٢ — انظر : تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٢٨ .
- ٣ — هم بنو هلال بن عامر بن صعصعة ، من قبائل مضر . كانت منازلهم في نجد . جمهرة أنساب العرب : ص ٢٧٢ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٣٧ .
- ٤ — قبائل المغرب : ج ٢ ص ٤١٢ .
- ٥ — مدينة حصينة في إفريقية . وهي قديمة أزلية كثيرة الخلق . الرّوض المعطار : مادة سطيف ، ص ٣١٨ .
- ٦ — تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٤ ، اللّحل السنديّة في الأخبار التونسيّة : ج ١ ق ١ ص ٤٧٨ .
- ٧ — من بلاد إفريقية ، بينها وبين القيروان أربع مراحل . الرّوض المعطار : مادة قابس ، ص ٤٥٠ .
- ٨ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٩ .

كذلك عادت القبائل الهلالية بقيادة بني رياح^(١) إلى التشغيب ، فسرح لهم عبد المؤمن جيشا نازهم قرب القيروان^(٢) ، وأوقع بهم ، وقتل شيخهم^(٣) .

أمر الخليفة عبد المؤمن — مرة أخرى — بعدم المساس بالغنائم التي أخذت من العرب الهلالية ، وحراستها بعين الشرف والنبيل . وحين أقبلت عليه وفودهم أكرم مشاهيرهم ، وأحسن إليهم ، وردّ أشياءهم كاملة غير منقوصة^(٤) .

استطاع عبد المؤمن بهذا الصنيع المتكرّر أن يستميل العرب إليه ، ويسلس قيادتهم . ولم يعد من حركته إلى إفريقية إلّا وهو يجرّ وراءه حشودا ضخمة من العرب^(٥) .

رأى الخلفاء الموحدون الذين نجاءوا بعد عبد المؤمن أن سياسة لين الجانب هي خير وسيلة يمكن استئالة القبائل العربية بها ، لذلك فقد أجزلوا لها ولشيوخها العطاء . ويحدثنا ابن صاحب الصلاة — وهو مؤرّخ معاصر للموحدين — عن مادب الطعام الضخمة التي كانت تقام لهم ، والأعطيات الجزيلة التي كانوا يختصونهم بها ، والكسوات العجيبة التي كانوا يسدلونها عليهم^(٦) .

ويبدو أنّ رغبة أكيدة في الاستفادة من قوّة القبائل العربية لجهاد العدو الصليبي في الأندلس كانت عند الموحدون . وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله :— « ولم يزل الموحدون يستفرونهم في جهادهم في الأندلس ، وربما بعثوا إليهم في ذلك المخاطبات الشعرية »^(٧) . فعندما أراد الخليفة عبد المؤمن العبور إلى الأندلس استنفر القبائل الهلالية^(٨) . كذلك فقد استدعى الخليفة يوسف العرب ، وحرّضهم على الجهاد بكتاب بعثه إليهم^(٩) . وقد تكرر هذا الأمر منه^(١٠) .

- ١ — من القبائل العربية التي زحفت إلى إفريقية ، الانسفاصا : ج ٢ ص ١٥١ .
- ٢ — القيروان — مدينة بإفريقية ، مُصنّرت في الإسلام زمن معاوية بن أبي سفيان . تقوم البلدان : ص ١٤٥ .
- ٣ — رحلة التجاني : ص ٣٤١ ، رسائل موحدة : ص ١١٣ .
- ٤ — أخبار المهدي : ص ١١٧ .
- ٥ — التّن : ج ٢ ص ١٤٤ .
- ٦ — انظر : التّن : ج ٢ ص ٣٩٨ و ص ٤٣٣ و ص ٤٣٧ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ١٣٨ .
- ٧ — تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٤ .
- ٨ — المعجب : ص ٣٩٣ .
- ٩ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٨٨ .
- ١٠ — انظر : التّن : ج ٢ ص ٤١١ — ٤١٦ .

كثيرا ما كانت القبائل العربيّة تلبّي النداء ، يدفعها إلى ذلك العقيدة الإسلاميّة ، والإيمان بالجهاد وسيلة للدّفاع عن حرمة الدّين الحنيف . فعندما جاز عبد المؤمن إلى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ عبرت معه حشود ضخمة من العرب (١) . وقد وصلت إلى الخليفة يوسف جموع وفيرة منهم ، وقد كان يوم قدومهم مشهودا (٢) . أمّا الخليفة الناصر ، فقد وصل إليه من العرب « أم لا يعلمهم إلّا الله ولا يحصيهم . وجاءوا كأمواج البحر في جيوش لا يطلّ على مصباحها السّاري » (٣) .

شكّل متطوّعة هذه القبائل فئة هامّة في الجيش الموحدى . وقد أبلت هذه الفئة في جهاد الأعداء ، والدّفاع عن الإسلام بلاء حسنا . ظهر ذلك في مرحلة مبكّرة من تاريخ الدّولة الموحدية ، حيث اشترك بعض فرسان القبائل العربيّة في فتح مدينة المهدية سنة ٥٥٥ هـ (٤) .

كان المتطوّعون من أبناء القبائل العربيّة يجوزون إلى الأندلس لتأدية فرض الجهاد كلّما دعت الحاجة إلى ذلك . ففي عام ٥٦٠ هـ ، تحرّك السيّد أبو حفص إلى الأندلس على رأس جيش ، وصحبه في هذه الحركة جملة وافرة من العرب ليتقدم بهم إلى إشبيلية وقرطبة لحماية ثغورهما (٥) .

وقد توجهت فئة من هؤلاء العرب إلى بطليوس ، وانتصرت على حامية المدينة . كما توجهت مجموعة نحو غرناطة ، ومجموعة لمقاتلة ابن مردنيش (٦) .

وفي سنة ٥٦١ هـ وجّه الخليفة يوسف جيشا من العرب إلى إشبيلية (٧) . ووجّه سنة ٥٦٣ هـ جيشا آخر إلى قرطبة (٨) . وفي سنة ٥٦٥ هـ اشترك جند من

١ - السّن : ج ٢ ص ١٤٤ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٩٢ ، السّن : ج ٢ ص ٤١٧ ، الاستقصا : ج ٢ ص ١٤٩ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٣٨ .

٤ - الاستقصا : ج ٢ ص ١٣٧ .

٥ - السّن : ج ٢ ص ٢٥٠ .

٦ - السّن : ج ٢ ص ٢٦٩ ، وعن ابن مردنيش انظر الإحاطة : ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٧ .

٧ - السّن : ج ٢ ص ٢٩٤ .

٨ - السّن : ج ٢ ص ٣٥٥ .

العرب في التوجه نحو بطليوس^(١) . وفي السنة التالية اشترك جند من العرب في فتح بسطة^(٢) * . كما أبلى الجند العرب في معركة وبذة^(٣) .

كذلك اشترك المتطوعة من أبناء القبائل العربية في جهاد الصليبيين مع الخليفة المنصور^(٤) . وقد أوضحت رسالة الفتح التي أرسلت بمناسبة فتح حصن « شلبطرة »^(٥) سنة ٦٠٨ هـ ، أنّ العرب أوّل من هاجم الصليبيين ، وقتلوا منهم أربعمائة فارس^(٦) .

هذه بعض الأمثلة التي تشير إلى اشتراك العرب المسلمين الذين يقطنون إفريقية في الدفاع عن الإسلام في الأندلس زمن الموحدين . وقد كان لهذا الدور أصداء واضحة في شعر الجهاد .

فقد توالى قصائد الاستنفار على هذه القبائل تدعوها إلى الإسراع في التوجه إلى الأندلس لمجاهدة الصليبيين ، وإعلاء كلمة الله . وقد بذل الشعراء وسعهم في ذلك . فقد أشادوا بمواقف هذه القبائل من الإسلام وحمل لوائه منذ البداية ، وبصروهم بالخطر المحدق بالدين الحنيف ، وحملوهم مسؤولية الاشتراك في الدفاع عنه . كما أشادوا بشرف أرومتهم ، ومضاء عزيمتهم ، ونجدتهم ، وكفائتهم في الحروب ، وشجاعتهم .

وكان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من أبرز الخلفاء الموحدين الذين لجأوا إلى سياسة استنفار العرب واستدعائهم من إفريقية . ففي سنة ٥٦٦ هـ ، وجّه قصيدة من إنشاء ابن طفيل إلى بني هلال يستدعيهم ويحرضهم على الجهاد ، حيث قال :

١ - المنّ : ص ٤٠٠ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٧٦ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٤٠٥ .

* بسطة : مدينة بالأندلس ، من قرى وادي آش ، حسنة الموضع . الرّوض المعطار : مادة بسطة ص ١١٣ .

٣ - المنّ : ج ٢ ص ٤٩١ .

٤ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨٨ .

٥ - شلبطرة : حصن من عمل قلعة رياح . الرّوض المعطار : مادة شلبطرة ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

٦ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٣٩ .

ألا فابعثوها همةً عربيّةً تحفّ بأطرافِ القنا والقواضبِ
أفرسانَ قيس من هلال بن عامر وما جمعت من طاعنٍ ومضاربِ
لكم قبةً للمجد شدّوا عمادها بطاعة أمرِ الله من كلّ جانبِ

* * *

وما تُخلُق الأعرابِ اخلافٍ موعِد ولكنّ صدق الوعد تُخلُق الأعرابِ

فالشاعر يناشد بني هلال ، ويحثّهم على الجهاد . وهو في ذلك يستثير النخوة والحميّة في نفوسهم ، فيشيد بعلوّ همّتهم ، وشجاعة فرسانهم ، ويذكّرهم بأبجادهم القديمة ، ويدعوهم إلى المحافظة عليها بطاعة أمر الله في جهاد الأعداء . ويصفهم بالوفاء بالوعد ، والمحافظة عليه .

وإذ انكبّ الشاعر في الأبيات السّابقة على مخاطبة المشاعر العربيّة الأصيلّة لدى تلك القبائل ، فإنّه في الأبيات التالية يركّز على استشارة المشاعر الإسلاميّة التي تعمّقت نفوسها . وهنا تقترن العروبة بالإسلام اقتراناً رائعاً ، حتّى أنّ المرء لا يستطيع الفصل ما بين استشارة للمشاعر الدينيّة أو للحميّة العربيّة . حيث اتكأ الشاعر في استشارته على استيحاء التاريخ الأوّل لهذه القبائل التي أبّلت في حمل الرّسالة ونشرها ، وذكرها بالروابط المتينة التي تربطها بالإسلام ، وتربط الإسلام بها . يقول :-
وقوموا لنصرِ الدّين قومةً نائِرٍ وفيئوا إلى التحقيقِ فيقّةً راغِبِ

* * *

فقوموا بما قامت أوائلكم به ولا تُغفلوا إحياء تلك المناقبِ

* * *

وقد جعل الله النّبِي وآلهُ ومهدّيه منكم بلا عيب عائبِ

* * *

هو الأمرُ أمر الله منيِّج ومسعّد لكلّ منيبٍ ناصح الجيب تائبِ (١)

١ - المنّ : ج ٢ ص ٤١٢ - ٤١٣ ، وانظر القصيدة في مجلّة المعهد المصري للدراسات الاسلاميّة ، مدريد ، مجلد ٣ ، سنة ١٩٥٣ ، ص ٣٠ - ٣٢ .

وقد نحا ابن عيَّاش نحو ابن طفيل في أبياته التالية ، التي أخذت من قصيدة بعثها إلى العرب يستدعيهم ويستنفرهم :—

وقوموا لنصر الدِّين قومةً نائِرٍ وشدّوا على الأعداء شدّةً صائِلِ
 وأسروا بني قيس إلى نَيْلٍ غايةٍ من المجد تُجنى عند برد الأصائلِ
 فما العزُّ إلّا ظهرُ أجردٍ سابِحٍ تموتُ^(١) الصِّبا في شدّه المتواصلِ
 وأبيضُ مائورٌ كأنّ فرندهُ على الماء محبوبكُ^(٢) وليس بسائلِ
 بني العمّ من عُليا هلالِ بنِ عامرٍ وما جمعتُ من باسيلِ وابنِ باسيلِ
 تَعَالوا فقد شدّتْ إلى الغزوِ نيّةٌ عواقبها مقصورة^(٣) بالأوائِلِ

* * *

فَطَيِّرُوا إِلَيْهَا يَا هَلالِ بْنِ عامِرٍ ثقلاً خفافاً بينَ حافٍ وناعلِ^(٤)

فالشاعر يدعو العرب إلى نصره الدين الحنيف والدِّفاع عنه . وقد قدّم بين يدي دعوته أساليب استشارة مستوحاة من القيم العربيّة ، حيث زَيّن لهم النتائج التي يحققونها من الغزو ، فهو يحقّق لهم المجد الحرّبي الذي يفخرون به ، ويطمحون إليه . كما أشاد بأصالة نسبهم ، وشجاعة فرسانهم ، وذكرهم بصلة القرابة التي تربط الموحدّين بهم . وقد كان الشاعِر لبقاً في هذه الناحية ، حيث خاطب العرب بقوله :— « بني العمّ » . فلهذا التعبير في هذا الجوّ نداوة رحيّة تمسّ القلوب ، وروح رضى يلمس النفوس .

١ — قرئت في المعجب « تفوت » .

٢ — قرئت في المعجب « منسوج » .

٣ — قرئت في المعجب « منسورة » .

٤ — السّن : ج ٢ ص ٤١٥ — ٤١٧ . وقد نسب بعض المؤرّخين إلى عبد المؤمن ، وتبعهم في ذلك . بعض الباحثين المحدثين .

انظر :— المعجب : ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، الحلال الموشية : ص ١٣١ ، لنبوغ المغربي : ج ٢ ص ٢٦٦ ، العلوم والفنون

والآداب على عهد المرّحدين : ص ١٥٩ .

ومن تلك الأشعار التي خاطب بها الشعراء قبائل العرب في افريقية ، قصيدة أبي العباس الجراوي التي قالها مادحا وفود بني هلال التي وفدت إلى الحضرة الموحدية . ويمضي قسم كبير من القصيدة في الإشادة بأجداد تلك القبيلة ، وأصالة نسيها ، وكرم أجدادها ، وشجاعتهم وثقلهم السياسي ومكانتهم ، وحكمتهم ، وفصاحتهم . يقول :—

أحاطتْ بغاياتِ العُلا والمفاخرِ على قَدَمِ الدُّنيا هلالُ بنِ عامرِ
وزانوا سماءَ المجدِ بدءاً وعودَةً بزهرِ خصالِ كالنجومِ الزواهرِ
أوائلهم في الجودِ والبأسِ غايةً وكَم تركوا من غايَةٍ للأواخرِ
وكَم فيهمُ من مثلِ كعبِ وحاتمِ وكَم فهمُ من مثلِ عمرو وعامرِ
وكَم قَدْ أقاموا من عُروشِ موائلِ وكَم قَدْ أقالوا من جُدودِ عَوائِرِ
وكَم لهمُ من حكمة تبهِّرُ النَّدَى ومن مَثَلٍ في الشَّرِقِ والغربِ سائِرِ

ويمضي قسم آخر من القصيدة على هذا النحو ، فيشيد الشاعر بالأبناء ، وبمحافظتهم على أجداد الآباء ومفاخرهم ، مركزاً إشادته على شجاعتهم ، وقوتهم ، وتمرسهم بفنون القتال ، ومهارتهم .

وفي ظلّ هذه الإشادة المستمرة ، يتوجّه أبو العباس الجراوي بدعوة بني هلال إلى الالتحاق بالجيوش الموحدية المجاهدة . وهو في ذلك ما يزال يستثير هذه القبيلة ، فيصف أبناءها بالعزم ، والتصميم ، ورجاحة العقل :—

بني عامرِ أنتم صميمٌ فصمّموا إلى الموتِ تصميمَ اللَّيْثِ الخَوادِرِ
ولا تتوانوا في حُظوظِ نفوسِكُم فإنكُم أهلُ التُّهى والبصائرِ

والشاعر لا يدعو هؤلاء العرب من أجل مطمح شخصي ، أو غاية ذاتية ، وإنما يدعوهم إلى جهاد الكفرة :—
ولا بدّ من يومٍ على الكفرِ أيّومٍ تعمّ به الدنيا وفودُ البشائرِ (١)

وعندما خرج قراقوش^(١) الأرميني على طاعة الدولة الموحدية ، وقام بالأمر في إفريقيا^(٢) ، بعث الخليفة المنصور الأبيات التالية الى قبيلة سليم العربية ، يحثها على نبد طاعة هذا الرجل الوافد الغريب وإخلاص النية في طاعة الموحدين .

يقول :

يا أيها الراكبُ المزجي مطيته^(٣) على عذافرة تشقى بها الأكم^(٤)
 بلغ سليماً على بعدِ الديار^(٥) بيني وبينكم الرحمن والرحم
 يا قومنا لا تشبوا الحرب إن خمدت واستمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا
 كم جربَّ الحرب من قد كان قبلكم من القرون فبادت دونها الأمم
 حاشا الأعراب أن ترضى بمنقصة ياليت شعري هل تراهم علموا
 يقودهم أرمي لا خلاق له كأنه فيهم من جهله^(٦) علم
 الله يعلم أنني ما دعوتكم دعاء ذي ثرة^(٧) يوماً فيتقم
 ولا لجأت لأمرٍ يستعان به من الأمور وهذا الخلق^(٨) قد علموا
 لكن لأجزي رسول الله عن نسب يُنمى^(٩) إليه وترعى تلكم الذمم
 فإن أتيتم فحبل الله متصل

- ١ - أحد مماليك صلاح الدين بن أيوب ، ظهر في المغرب على عهد المنصور ، واستولى على طرابلس وقابس ، عظم أمره وتبعه كثير من العرب . مخطوط الوالي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٥ .
- ٢ - السلوك لمعرفة دول الملوك : ج ١ ق ١ ص ٦٠ و ص ١٦٤ .
- ٣ - قرئت في الحلل السندسية « الساري لطيته » .
- ٤ - قرئت في الحلل السندسية « يشقى بها الأمم » ، وفي الوالي بالوفيات « يشقى » .
- ٥ - قرئت في الحلل السندسية « المزار » .
- ٦ - قرئت في نفع الطيب « كأنه بينهم من جهلهم علم » .
- ٧ - قرئت في نفع الطيب « دعاء قوة » .
- ٨ - قرئت في الحلل السندسية « وأهل الخلق » .
- ٩ - قرئت في الحلل السندسية « تنمى » .
- ١٠ - انظر : — نفع الطيب : ج ٣ ص ١٠٢ ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية : — ج ٢ ق ٢ ص ٣٦٩ ، مخطوط الوالي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٥ .

ويركز الشاعر في الأبيات السابقة على استشارة مشاعر قبيلة سليم العربية ،
لعلها تخلد إلى الهدوء والسكينة ، وتكف عن مناصرة قراقوش . وقد ألقى الشاعر
أبياته مصحوبة بمؤثرات متنوعة ذات تأثير في القلب ، فذكر بروابط العقيدة والرحم
التي تربط الموحدين بهذه القبيلة ، ونفر من الحرب وويلاتها ، مشيراً إلى عزة العرب
الذين يأنفون من الذل ، ويفضون أن يقودهم رجل أرمي بصفات قراقوش ، معلناً
أنه غير طامع بهم ، وإنما يريد أن يحافظ على شرفهم ، وعزتهم ، ونسبهم المتصل
بالرسول الكريم . ومع ذلك فإن الأبيات لم تخل من تهديد لهذه القبيلة .

وتصور الأبيات سياسة الموحدين تجاه العرب الذين يقطنون افريقية . فهم
يذلون وسعهم في استمالتهم حتى يخلصوا الطاعة لهم ، ويكسبهم جنداً مجاهدين في
الأندلس . لذلك أوصى الخليفة المنصور الذي قال الأبيات « بمداواة العرب
وملاطفتهم والإحسان إليهم »^(١) .

كان لهذه المخاطبات المتوالية فعل السحر في نفوس أبناء القبائل العربية . فقد
لبوا النداء ، والتحقوا بالجيوش الإسلامية المجاهدة في الأندلس ، وأبلوا في قتال
الأعداء .

أشاد الشعراء بالدور الذي اضطلع به العرب في جهاد الكفر . فتحدثوا عن
قوة فرسانهم ، وشجاعة أبنائهم ، وبسالة جندهم في الدفاع عن الإسلام وحمايته .
والشعراء في ذلك يصدرن عن روح إسلامية عميقة .

فهذا الخليفة عبد المؤمن ، يعد أهل الأندلس بغزوة كبرى تشفي صدور
المؤمنين ، جهز لها جيشاً ضخماً من العرب المتمرسين بفنون القتال . يقول : —

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٨ .

ولا بدّ من يومٍ أعزّ محجّل يُسيلُ دماءَ الكفرِ في كلِّ مذنبٍ
وتُشفَى صدورُ المؤمنينَ بغزوةٍ تكونُ على حكمِ الحسامِ المدرّبِ
ويغزو بلادَ الرّومِ جيشٌ عرمرمٌ تُخَيِّرُ^(١) من قيسٍ وأبناءِ يَعْرُبِ^(٢)

وعندما جاز الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ، عبرت معه
حشود ضخمة من العرب لجهاد الصليبيين . وقد بشر شاعر مجهول أهل الأندلس
بقدم هؤلاء العرب الذين سيغزون الكفر ، ويفتكون به . يقول :

نُبشِرُكُمْ أَنَا اهتَمَمْنَا بِأَمْرِكُمْ فَلَيْتَكُمْ مَنَا الْمَسُومَةُ الْجُرْدُ
وَيَصْحَبُنَا مِنْ خَالِصِ الْعَرَبِ مَعَشْرٌ أَنَابُوا فَمَا رُدُّوا ، وَتَابُوا فَمَا ارْتَدُّوا

* * *

ستغزو بلادَ الرّومِ منهم عصاباتٌ وتحمي حمى التوحيدِ من خيلهم جُنْدُ

* * *

جُيُوشٌ بِنَصْرِ اللَّهِ تَهْمِي عَلَيْكُمْ يَرُوقُ بِهَا وَهْدٌ وَيَزْهِي بِهَا نَجْدُ
وَيَشْجَى بِمَرَاةِ الْأَعَادِي كَأَنَّمَا عَلَيْكُمْ بِهَا صَمٌّ الشَّوَاحِخُ تَنْهَدُ
سَتَعْلَمُ أَرْضُ الرُّومِ أَيَّ فُؤَارِسٍ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْهُمْ إِذَا وَفَدَ الْوَفْدُ^(٣)

وندرك من الأبيات تطوّع كثير من العرب للجهاد في الأندلس . وقد أوحى
ذلك إلى الشاعر بالإشادة بهم على هذا النحو . وهي إشادة أظهر فيها أنّ العروبة
والإسلام من نسيج واحد . فالحرب التي سيخوضها هؤلاء العرب ليست حرب
أوطان ولا حرب أجناس ، وإنّما هي حرب إسلامية شاملة .

وفي هذا المعنى قال الأصمّ المرواني قصيدة في المناسبة السابقة :

١ - قرئت في البيان المغرب ٥ بحل .

٢ - انظر : المتن : ج ٢ ص ١٢٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .

٣ - المتن : ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحرُ قد ملأ العبرين بالعرب
من كل من يترك الهيجاء في حلك جَمْرٌ إذا اخضرت الغبراء بالعُشْبِ
مقلّب بين مشتاةٍ وهاجرةٍ تقلّب السيف بين الماءِ واللّهْبِ
يرمي بهم ظهرُ طرفِ بطنِ ساجحةٍ فالبر في شُعْلٍ والبحرُ في صَحْبِ
وتعبر الماءَ منهم نارٌ عاديةٍ يصلى بها عابدُ الأوثانِ والصلْبِ (١)

والأبيات فيها إشادة قويّة بالعرب الذين جازوا إلى الأندلس . وقد كان الشاعر صريحاً في تحديد الهدف الذي جازوا من أجله ، ألا وهو جهاد « عابد الأوثان والصلب » .

وقد أبلى الفرسان العرب في فحص بلقون (٢) بلاء حسنا ، ممّا دفع أبا العباس الجراوى إلى الاشادة بهم قائلا :

أتممت ما قد أمّله ففائهم من نصر دين الواحد القهار
بعراب خيل فوقهن أعارب من كل مقتحم على الأخطار
أكرمهن قبائلاً أقلاها في الحرب يُغنيها عن الإكثار
هم أظهوره مع النبي وواجب أن يتبعوا الإظهار بالإظهار (٣)

ويصوّر الشاعر في هذه الأبيات الوشائج القويّة التي تربط العروبة بالإسلام . فهو إذ يشيد بالدور الذي اضطلع به العرب في جهاد الصليبيين في الأندلس ، فإنه يعد ذلك استمراراً لما بذله آباؤهم وأجدادهم في حمل الرسالة الإسلامية ونشرها ،

١ - المتن : ج ٢ ص ١٦٠ .

٢ - لم نستطع تحقيق المكان . وربما كان اسماً آخر لفحص مرسية الذي تطلق عليه المصادر « حامة بلقواد » . انظر : المتن : ج ٢ ص ٢٧٣ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ - ٤٧ .

ويدعوهم إلى مواصلة الدفاع عن الدين الحنيف ، والانتصار له ، لأن ذلك فرض عليهم كما كان فرضاً على الذين خلوا من قبلهم .

وفي سنة ٥٦٠ هـ عبرت إلى الأندلس حشود ضخمة من العرب بصحبة السيّد إني حفص^(١) . وقد أشار أبو عمر بن حربون إلى ضخامة هذه الحشود في قصيدة قالها ، منها : —

جمعتم من بني قيس شعوباً تسيل بها المحاني والشعاب
تجانس جيشهم لفظاً ومعنى فهم عرب ، وخيلهم عراب^(٢)

وربّما أوحى اشتراك العرب في المعارك ضدّ الصليبيين ، وحسن بلائهم فيها ، وما ترتّب على ذلك من إشادة بهم ، تعتمد على استيحاء تاريخهم الإسلاميّ الأوّل ، ربّما أوحى ذلك إلى الشعراء أن ينعتوا الصليبيين بـ « العجم » ، ويعمّموا وصف « العرب » ، على جميع المسلمين . وهنا تمتزج العروبة بالإسلام امتزاجاً عجيبيّاً ، حتّى ليخيّل إلى المرء أنّه ليس ثمة فارق بين دافع دينيٍّ إلى الجهاد ، أو حميّة عربيّة تحفز على القتال . ولعلّ مكانة العرب في التاريخ الإسلاميّ ، وارتباطهم بالحياة الأولى للإسلام ؛ قد جعل للعروبة أكثر من مجرد معنى عرقيّ ، بل أصبحت هي والاسلام من « مادّة » واحدة .

فهذا ابن حربون يهدّد « العجم » بـ « العرب » المسلمين ، الذين سيّدلفون اليهم على سهوات خيولهم الأصيلّة : —

وبشرّ العجم أنّ العرب قد دلّفت على العراب ، وأنّ الملتقى صدّد^(٣)

١ — التّن : ج ٢ ص ٢٥٠ .

٢ — التّن : ج ٢ ص ٢٦٣ .

٣ — التّن : ج ٢ ص ٢٥٥ .

كما أشار الشاعر نفسه الى أنفة العرب المسلمين من الخضوع للأعاجم الصليبيين في فتح بطليوس : —

فَسَعَدَكَ مَوْلَانَا حَمْدَنَا ، وَلَمْ تَكُنْ لِتَحْمَدِ هَذَا الْعَرَبِ تِلْكَ الْأَعَاجِمَا (١)

وكان للعرب القادمين من إفريقية دور محمود في معركة السبباط . وقد أشاد أبو عمر الأشيري بهذا الدور ، حيث تحدّث عن شجاعة الفرسان العرب المسلمين ، وعنف فتكهم بالأعاجم الصليبيين ، وإهانتهم لهم : —

جَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ إِذَا غَزَوْا كَوَّوْا الْأَعَاجِمَ فِي الطَّلَا بِعِلَاطِ*
قَوْمٌ إِذَا شَمَخَ الزَّمَانُ بِأَنْفِهِ وَضَعُوا السِّيُوفَ مَوَاضِعَ الْأَسْوَاطِ (٢)

وعندما سقطت بلنسية ، وجّه شاعر مجهول قصيدة إلى صاحب إفريقية ، يحثّه على توجيه العرب الى الأندلس ، وارسالهم لاغاثة أهلها . يقول : —

مَوْلَايَ ، هَاكَ مَعَادَةَ أَنْبَاءِهَا لِتَنْبِيلَ مِنْكَ سَعَادَةَ أَنْبَاءِهَا
إِنَّ الْأَعَاجِمَ لِلْأَعَارِبِ نَهْيَةٌ مَهْمَا أَمَرْتَ بِغَزْوِهَا أَحْيَاءِهَا
تَاللَّهِ لَوْ دَبَّتْ لَهَا دَبَّابُهَا (٣) لَطَوَّتْ عَلَيْهَا أَرْضَهَا وَسَمَاءِهَا
وَلَوْ اسْتَقَلَّتْ عَوْفُهَا (٤) لِقَاتَلِهَا لِاسْتَقْبَلَتْ بِالْمَقْرِبَاتِ عَفَاءِهَا
أَرْسَلْ جَوَانِحَهَا تَجْحَكَ بِصَيْدِهَا وَنَادِ لَطْحَنِهَا أَرْحَاءِهَا

١ — القن : ج ٢ ص ٣٨٥ .

* العلاط : الوم . لسان العرب : مادة علط .

٢ — زاد المسافر : ص ١٠١ .

٣ — دباب : من شعوب بني سليم . تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٣٤ .

٤ — عوف : هم بنو عوف بن بهثة بن سليم . مواطنهم من وادي قابس الى أرض بونة . تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤٤ .

أولوا الجزيرة نصرةً إنَّ العدا تبغي على أقطارها استيلاءها
نُقِضَتْ بأهل الشرك من أطرافها فاستحفظوا بالمسلمين نساءها (١)

ولم يسلك الشاعر في الأبيات السابقة العروبة عن رسالتها الكبرى ، وإنما هي
في سبيل الدفاع عن تلك الرسالة ، وحمل لوائها . فهو يبصر الأمير الحفصي بقوة
بعض القبائل العربية ، ويدعوه إلى استقطاب طاقاتها ، وحشد امكاناتها ، لجهاد
« أهل الشرك » في الأندلس . والشاعر لم يذكر قبائل العرب خاصة ، إلا لإيمانه
القوي بالوشائج المتينة التي تربطهم بالإسلام ، وتحفزهم على تلبية النداء ، والاستماتة
في الدفاع عن الدين الحنيف .

وعندما أوشكت اشبيلية على السقوط ، بعث ابن سهل الأندلسي قصيدة إلى
عرب المعقل ، يستنفرهم ، ويحثهم على الجهاد . ومما قاله فيها :

يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية أكبرا عن أكبر

* * *

لكم صرائم لو ركبت بعضها أغنتكم عن كل طرف مضمر
ولو انكم جهزتم عزماتكم لهزتم منها العدو بعسكر

* * *

أين الحفاظ ما لها لا تنبعث؟ أين العزائم ما لها لا تنبيري؟
أهز منكم فارس في كفه سيفاً ، ودين محمد لم ينصر!

* * *

جدوا ونموا بالجهاد أجوركم ما خاب قصد مشر ومشر

* * *

لو صور الإسلام شخصاً جاءكم عمدا بنفس الوامق المتحير
لو أنه نادى لنصر خصكم ودعاًم : يا أسرتي يا معشري (٢)

١ - نفع الطيب : ج ١ ص ٤٨٠ - ٤٨١ .

٢ - ديوان ابن سهل : ص ١٤١ - ١٤٢ .

وتثير الآيات المشاعر الإسلامية والحمية العربية معا . فإذ يحث الشاعر العرب المسلمين على جهاد الأعداء ، فإنه يلفتهم إلى تصور واقع الإسلام في الأندلس ، ويؤكد لهم ارتباطهم بهذا الدين الذي يهتف بهم مستنجدا ، ويحدد لهم مسؤولياتهم تجاهه .

ويتخلل ذلك إشادة بقوة العرب ، وشجاعتهم ، وشهامتهم التي تأتي عليهم رؤية الخطر محققا بالإسلام ، ولا يخرجون للدفاع عنه .

وهكذا أبرز الشعراء الدور الذي اضطلع به العرب في جهاد الصليبيين في الأندلس على عهد الموحدين . وقد كان هذا الدور واسعا إلى حد جعل الشعراء يتصورون الصراع بين عرب وعجم ، دون أن يخرجوه من إطاره الإسلامي الشامل : — فيفصلوا العروبة عن الإسلام ، أو يفصلوا الإسلام عن العروبة . ومن ثم فقد اعتبر الشعراء جهاد الصليبيين فرضا على العرب والمسلمين ، واعتبروا هذا الجهاد امتدادا لجهاد آباؤهم وأجدادهم في نصره الإسلام أيامه الأولى . بل أنهم ذهبوا في ذلك إلى حدّ اعتبر فيه الشعراء العرب أحق الناس في الدفاع عن الدين الحنيف .

والشعراء إذ يفعلون ذلك ينطلقون من أساس فكري متين ، وهو إيمانهم العميق بالأواصر القائمة بين العروبة والإسلام ، حتى بات كل منهما يمثل جزءا من حقيقة الآخر . فهم حين يتصورون هذا الدين ، لا يستطيعون نسيان العرب الذين آمنوا به ، وطوّقوا أرجاء العالمين برسالاته . وكذلك حين يتصورون العرب ، لم ينسوا هذه الرسالة الخالدة التي خالطت نفوسهم ، وأعلت شأنهم ، وأنشأتهم خلّقا آخر .

لذلك فقد برزت العروبة عنصرا واضحا في شعر الجهاد . فأشاد الشعراء بمواقف العرب في نصره الدين ، والدفاع عنه ، وتحمل تبعاته . كما أشادوا بقوة أولئك العرب ، وعزّتهم ، وشجاعتهم ، وشهامتهم . والشعراء في ذلك يصعدون عن روح إسلامية عميقة . ومن هنا لم يعثر الدارس على موقف واحد تحدث فيه الشعراء عن العروبة منفصلة عن الإسلام ، وإنما كانوا يقرنونها دائما بالدين الحنيف . وكانت الروح الإسلامية تسير جنبا إلى جنب مع الروح العربية ، محتضنة إياها وموجهة لها .

الفصل الثاني

شخصية البطل في شعر الجهاد :

- أ - مفهوم البطولة .
- ب - دور البطل في الصراع .
- ج - القيم والمثل العليا في شعر الجهاد .

(أ) مفهوم البطولة

البطولة في اللغة : الغلبة على الأقران (١) . وهي غلبة يرتفع بها البطل عن حوله من الناس ارتفاعاً يملأ نفوسهم له إجلالاً وإكباراً (٢) .

وقد عرف العرب قبل الإسلام البطولة . وهي عندهم بطولة إنسانية لا تتشع بقوى خفية ، وتستند على مقومات ثلاثة : — حربّي يقوم على الشجاعة والبسالة في القتال ، ونفسي يقوم على احتمال الشدائد والحلم والأنفة والعزّة ، وخلقي يقوم على صيانة الشرف ، وعلى الكرم والوفاء وحماية الجار ... وبذلك تعانقت « بطولة السيف مع بطولة النفس والخلق والطموح إلى المثل الرفيعة » (٣) .

وعندما أضاءت الجزيرة العربية بنور ربها ، لم يرفض الدين الحنيف القيم الجاهلية كلها ، وإنما رسّخ بعضها بعد أن هدّبها ، وصقلها ، ووجهها وجهة تخدم العقيدة ، وأمدّها بروحانية مضطربة : فأضاف إليها ما أضاف ، وأبعد منها ما أبعد . وقد عبر عن ذلك بصورة واضحة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام حيث قال : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حَسَنَ الْأَخْلَاقِ » (٤) .

وقد ظلّت البطولة العربية الإسلامية تستمد مقوماتها من تلك الروافد الثلاثة : الحربي ، والخلقي ، والنفسي .

-
- ١ — انظر : لسان العرب : مادة « البطل » ، الفروسية : ص ١٣٠ .
 - ٢ — البطولة في الشعر العربي : ص ٩ .
 - ٣ — المصدر السابق : ص ٥ .
 - ٤ — موطأ مالك : ج ٢ ص ٩٠٤ .

ب - دور البطل في الصراع : -

ظهر في عصر الموحّدين عدد من القادة الذين أبلوا في جهاد الأعداء ، وتجسدت فيهم الفضائل والمثل العليا المتعارف عليها في المجتمع الموحّدي . وإذا كان وجود القائد البطل أمرا لا بدّ منه في كل حرب ، فإنّ الحاجة إليه تزداد في الحروب القديمة . « لأنّ دوره إذ ذاك كان يتجاوز حدود التخطيط والتوجيه من بعيد إلى المشاركة الفعلية في القتال ، مع ما يترتب على ذلك من اتصال شخصي بجنوده ، يعرفهم على ما يستمتع من فضائل ومزايا ، قائدا ومقاتلا » (١) .

وأهمّ أبطال الصراع الذين تغنّى الشعر ببطولتهم في عهد الموحّدين هم : - الخليفة عبد المؤمن ، والخليفة يوسف ، والخليفة يعقوب المنصور . بالإضافة إلى البطولة الجماعية للمجاهدين المسلمين . فقد مجّد الشعراء بطولة الخليفة عبد المؤمن يوم قاد الجيوش وفتح المهديّة ، ويوم قاد تلك الجيوش وعبر بها إلى الأندلس . وأكبر الشعر بطولة الخليفة يوسف حين عبر بجيوشه الجراة إلى الأندلس مرات عديدة دفاعا عن الإسلام ، وانتصارا له . وتغنّى الشعراء ببطولة المنصور غداة قاد الجحافل الإسلاميّة ، ونزل موضع الأرك ، وألحق بالصليبيين هزيمة قاسية .

وقد ينجّل إلى البعض أن التركيز على دور البطل في الصراع العسكري ضد الأعداء ، نوع من إنكار المجهود الجماعي . إلّا أنّ هذا التخيّل مخالف للواقع ، فالأحداث التاريخية تثبت أن للقائد الصالح دورا كبيرا في استغلال طاقات الأمة ، والإفادة منها ، وتوجيهها وجهة صحيحة للدفاع عن نفسها . ثم إنّ الشعراء لم يغفلوا تصوير البطولة الجماعية للجيوش الإسلاميّة .

فقد تحدّث ابن صاحب الصلاة (٢) عن الجيوش الضخمة التي جهزها الخليفة عبد المؤمن وقادها إلى الأندلس تلبية لنداء أهلها ، حيث قال :

١ - صدى الغزو الصليبي : ص ١٥٥ .

٢ - هو غير عبد الملك بن صاحب الصلاة ، صاحب كتاب المن بالإمامة . ولم نعر على ترجمة له .

وَكَّرَ إِلَى نَصْرِ الْجَزِيرَةِ بَعْدَمَا أَتَاهُ مَعَ الرُّكْبَانِ نَاعٍ وَنَاعِقُ
بِجَيْشٍ تَضِيقُ الْأَرْضَ عَنْهُ بِطَوْلِهَا وَتَرْهَبُهُ لَوْ عَايَنَتْهُ الْعِمَالِقُ
وَأَبْيَضَ وَرَدَى الْقَمِيضِ كَأَتَمَّا تَفْتَحُ فَوْقَ النَّصْلِ مِنْهُ شَقَائِقُ
تُجْرَدُهُ أَيْدِي الْأَحْبَةِ فِي الْوَعَى وَتُعْمِدُهُ هَامُ الْعَدَى وَالْمَفَارِقُ (١)

ويبرز التعبير الشعري محركا قدح زناد البطولة في عهد الموحدين ، وهو الخطر الصليبي الذي كان يهدد المسلمين . وتتبدى في الأبيات الفروسية في أسمى صورها . فقد صور الشاعر البطل فارسا ، يعز عليه أن يسمع الصرير من المسلمين دون أن يستجيب لهم ، ويدفع الظلم والعدوان عنهم . والشاعر في ذلك ، لم يغفل تصوير البطولة الجماعية للجيش المسلم الذي يتحمل عبء القتال : فهو جيش ضخمة العدد ، كامل العدة ، يهرب كل من يعاينه .

وقد تغنى أبو بكر بن المنخل الشلبي بالبطولة الحربية للخليفة عبد المؤمن في المعارك حيث قال : —

يَلْوَدُونَ فِي الْهَيْجَا بِأُرُوعِ مَاجِدٍ إِذَا دَارَتْ الْهَيْجَاءُ كَانَ لَهَا قُطْبَا
وَإِنْ عَصَفَتْ رِيحُ الْوَعَى أَحَدَقُوا بِهِ فَكَانُوا لَهُ جِسْمَا ، وَكَانَ لَهُمْ قَلْبَا (٢)

والتركيز في البيتين السابقين على إبراز التفاعل بين البطل وجنده في القتال . فقد صور الشاعر الخليفة عبد المؤمن فارسا ، يتقدم الفرسان في العراك والنزال ، ويتحمل العبء الأكبر من القتال ، ويبعث الحمية في نفوس جنده ، الذين يلتفون حوله ، لائذين به .

١ — المتن : ج ٢ ص ١٦٧ .

٢ — المتن : ج ٢ ص ١٥٣ .

وقد أبرز الشعراء عناية « البطل » بالجيش وتجهيزها ، وتوجيهها نحو العدو ، وقيادتها . يظهر ذلك في الأبيات التالية التي قالها ابن المنخل الشلبي في الخليفة يوسف : —

لَمَّا رَأَيْتَ الدِّينَ أَظْلَمَ جَوُّهُ والحربُ قد سَدَلَتْ عليه قَتَامَهَا
 أَقْبَلْتَهَا شَعَثَ التَّوَاصِي شُرْبَاً جُرْدًا تُبَارِي فِي الْفَلَاحِ سَمَامَهَا (١)
 مِنْ كُلِّ مُشْرِفَةِ التَّلِيلِ (٢) كَأَنَّمَا عَقَدُوا بِبَاسِقَةِ التَّخِيلِ لِحَامَهَا
 وَأَغْرَّ وَضَّاحَ الْحَجُولِ مَطْهَمِمْ (٣) يَجْلُو إِذَا خَاضَ الْغَمَارَ ظَلَامَهَا
 تَسْرِي بِخَيْرِ عَصَابَةٍ قَيْسِيَّةٍ تَسْرِي الْفَتْوحُ مُشِيحَةً قَدَامَهَا
 هُنَّ الْقَيْسِيَّ ضَوَامراً فَإِذَا رَمَى عَنْ نَزْعِهَا الْأَعْدَاءَ كَنَّ سِيَامَهَا
 يَلْقَى الْعِدَاةَ الرَّعْبُ دُونَ لِقَائِهَا فَيَزِلُّ قَبْلَ قِتَالِهَا أَقْدَامَهَا (٤)

وتمتزج في هذه الأبيات البطولة الحربية بالبطولة الخلقية . فإذ يشيد الشاعر بشجاعة البطل ، وقيادته الجيوش ، وإشرافه عليها ، فإنه لم يغفل تصوير الدافع الذي قدح زناد ذلك في نفسه ، وهو العقيدة .

والبطولة في الأبيات السابقة بطولة جماعية . فالشاعر لم يصور البطل وحده ، وإنما صور جماعة المسلمين المجاهدين معه ، وأشاد بهم ، وأبرز دورهم .

وقد أشاد ابن حربون بحسن بلاء الخليفة يوسف في معركة السبيكة سنة

٥٥٧ هـ ، حيث قال : —

- ١ — السَّمَامُ : طائر دون القطا في الخُلُقَةِ . لسان العرب : مادة « سم » .
- ٢ — التَّلِيلُ : العنق . لسان العرب : مادة « تلك » .
- ٣ — المَطْهَمُ : المُجْتَمِعُ المَدْرُورُ . لسان العرب . مادة « طهم » .
- ٤ — المَنْ : ج ٢ ص ٤٥٩ — ٤٦٠ .

وسائلٌ به تُخبرك عن عزماته
سوائلٌ من ماء الحديد رواكده
عليها لرقراق السراب غلايل
علمين من رذع الدماء مجاسيد
تجمعن من ماء ونار تالقا
فلا الماء مناسب ولا الجمر هامد^(١)

فالشاعر يفاخر ببسالة الخليفة يوسف في معركة السبيكة ، تلك البسالة التي تعرفها أدوات الحرب ، وتقر له بها . إلا أن الأبيات يعوزها التفصيل الدقيق للدور العملي الذي اضطلع به « البطل » في تلك المعركة ، ولعل ذلك يعود إلى أنها جاءت ضمن قصيدة مدحية استعداد فيها الشاعر ذكريات وقائع ماضية للبطل . فالمعركة حدثت سنة ٥٥٧هـ ، والقصيدة قيلت سنة ٥٦٠هـ^(٢) .

وتشير المصادر إلى قيادة الخليفة المنصور معركة الأرك ، واشتراكه فيها . وقد أشاد ابن حزمون ببطولة ذلك الخليفة في تلك المعركة قائلاً : —

لاقيت جمعهم فعدوا
فرصاً في قبضة مفترس
جاؤوك تضيق الأرض بهم
عدداً لم يحص ولم يقس
خرجوا بطراً ورياء الناس
س ليختلسوا مع مختلس
ومضيت لأمر الله على
ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلاكه
بظباك على بشر رجس^(٣)

وتفتتح الأبيات السابقة على إبراز شجاعة البطل في القتال ، وفنكه بالأعداء وغيرته على الإسلام ، وإخلاصه له . إلا أن الشاعر لم يعط تفصيلاً شافياً لبطولة المنصور في المعركة ، وإنما اكتفى بالإشارة السريعة حتى يتحدث عن الهزيمة التي ألمت بالصليبيين .

١ — المتن : ج ٢ ص ٢٤٨ .

٢ — انظر المتن : ج ٢ ص ١٩٨ و ص ٢٤٥ .

٣ — المعجب : ص ٣٧٢ .

وكثيرا ما يخلط الشعراء الموحدون المدح بالحماسة وروح الفروسية^(١) . ويظهر ذلك في الأبيات التالية لأبي الوليد يونس القسطلي^(٢) : —

وعذراء من بكر الفتوح افتضضتها
وليس لها إلا بحكم الوغى عقد
دفعت لها سمر الرماح نسيئة
وكان لها من واضحات الطي نقد
ومبهمة لا يهتدى لسيلها
بقارعة يُنسى لها الأبلق الفرد*
صبت عليها الخيل أهدي من القطا
إلى أن هوت أعلامها الشم تنهد
فمن أهيف أهداه رمح مُهفّف
ومن ناهد يقاتده فرس نهد
أمام الخميس الأرجواني كأنه
هلال تمام والنجوم له جند
وسحت دموع السّمهري كأنها
وقد دميّت خرصائها ، الأعين الرمد
كأمة إذا هزوا القنا وتدرّعوا
تثنت على غدرانها القضب الملد^(٣)

وتبرز هذه الأبيات دافعا آخر قدح زناد البطولة في عهد الموحدين ، وهو الفتوة التي تترفع عن أي متاع مادي . فليس بغير الفتوة يمكن أن نعلل قوة احتمال البطل وشجاعة فرسانه الذين فتكوا بقلاع الأعداء ؛ فتهاوت أمامهم .

وتظهر أخلاق الفتيان وتقاليدهم واضحة في شخصية الشهيد أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد الجذامي^(٤) ، قائد الأعتة بيلنسية . وقد صور ذلك ابن حزمون في موشحة رثاه فيها ، منها : —

-
- ١ — الأدب الأندلسي في عهد الموحدين : ص ١٥٤ .
٢ — هو أبو الوليد يونس بن محمد القسطلي . شاعر مشهور رحل إلى المشرق . توفي سنة ٥٧٦ هـ ، انظر : المغرب : ج ١ ص ١٥٤ .
* الأبلق الفرد : هو حصن السمائل بن عاديا . الروض المطار : مادة الأبلق الفرد ، ص ١٠ .
٣ — زاد المسافر : ص ٥٧ .
٤ — لم نعر له على ترجمة : ووالده علم مشهور . انظر التفح : ج ١ ص ٤٥٦ .

يا عين بكّي السراج الأزهر الأثر النيرا اللامع
 وكان نعم الرّجاج فكسرا كي تثرّا مدامع
 من آل سعدي أغرّ مثل الشهاب المتقد
 بكّي جميع البشر عليه لما أن فقد
 والمشرفي الذكّر والسهمري المطرد
 شق الصفوف وكرّ على العدو متبد
 لو أنه منعاج على الوري من الثرى أو راجع
 عادت لنا الأفراح بلا افترا ولا امترّا تضاجع^(١)

فقد استلهم ابن حزمون قيم المجتمع الموحدوي ومثله العليا عندما صوّر أبا
 الحملات فارسا مقداما ، أزهر الوجه ، واثقا من شجاعته حين يكرّ على الأعداء ،
 ويفتك بهم .

وظهر في عهد الموحدين أبطال آخرون من غير الخلفاء ، نذكر منهم — عدا
 أبي الحملات — عبد الملك بن سعيد^(٢) . وقد قدّم ابن أبي جعفر بن سعيد صورة
 مشرقة له ، وقد شدّ عليه درعا ، وخرج بجنده غازيا ، يقول : —
 أيا قائد الأبطال في كلّ وجهة تطير قلوب الأسد فيها من الذعر
 لقد قلت لما أن رأيتك دارعا : أيا حسن ما لاح الحباب على التّحر !
 وأنشدت والأبطال حولك هالة : أيا حسن ما دار النجوم على البدر !
 فسّر مثلما سار الصباح إلى الدجى وأب مثلما آب النسيم عن الزهر^(٣)

١ — المغرب : ج ٢ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

٢ — أحد مؤلفي كتاب « المغرب في حلّ المغرب » ، توفي سنة ٥٦٢ هـ . المغرب : ج ١ ص ٢ .

٣ — المغرب : ج ٢ ص ١٦٧ .

والأبيات فيها تصوير رائع للبطولة الفردية التي تعضدها بطولة جماعية . فقد صور الشاعر « البطل » فارسا مقداما ، يقود جندا أبطالا إلى أصعب الموارد دون أن تخور عزائمهم ، وإنما يستبشرون بها ، ويقدمون عليها .

ويلاحظ أن الشاعر قد اتكأ على الطبيعة في تقديم الصورة الشعرية . وهي صورة ناعمة رقيقة . ولا غرابة أن يكون ذلك في بيئة عرفت بجمال الطبيعة ، وفي مجتمع شغف بالطبيعة ، ومن شاعر قضى كثيرا من وقته في المنازه والرياض يبحث عن المتعة والجمال .

وقد أبلى المسلمون في معركة أنيشة بلاء حسنا ، ومن بينهم أبو سليمان الكلاعي ، « وقد كان رحمه الله من أولي الحزم والجُرة والبسالة ... وثبات الجأش ويُمن النقية ، يحضر الغزوات ، ويباشر بنفسه القتال ، ويُبلي فيه البلاء الحسن ، وآخرها الغزاة التي استشهد فيها بالكائنة على المسلمين بظاهر أنيشة من عمل بكنسية على نحو سبعة أميال منها ، حضرها ، وحرّض المسلمين ، وقد اختلوا ، على قتال عدوهم ، ورجبهم في مكافحته ، ولم يزل متقدما أمام الصفوف زخفاً إلى الكفار ، مقبلا غير مدبر (والراية بيده)^(١) ينادي المنهزمين : أعن الجئة تفرون ؟ حتى قتل صابرا محتسبا غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذي حجة أربع وثلاثين وست مائة ... »^(٢) .

زنى ابن الأبار أبا سليمان الكلاعي خاصة ، ومن استشهد في معركة أنيشة عامة في قصيدة طويلة أشاد فيها ببسالة المسلمين وبطولتهم في هذه المعركة ، منها قوله : —

١ — المرقبة العليا : ص ١١٩ .

٢ — الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠ ، وانظر : إعجاب الكتاب : ص ٢٤٩ ، برنامج شيوخ الزعماني : ص ٦٦ — ٧٢ .

تَسَاقَوْا كَوْوسَ المَوْتِ فِي حَوْمَةِ الوَعَى فَمَالَتْ بِهِم مِيلَ العِصُونِ التَّوَاعِمِ
مَضَوْا فِي سَبِيلِ اللهِ قُدَمَاءُ كَأَتْمَا يَطِيرُونَ مِنْ إِقْدَامِهِمْ بِقَوَادِمِ
يَرُونَ جَوَارِ اللهِ أَكْبَرَ مَغْنَمِ كَذَلِكَ جَوَارُ اللهِ أَسْنَى المَغَانِمِ
عِظَائِمُ رَامَوْهَا فَخَاضُوا لِنَيْلِهَا وَلَا رَوْعَ يَشْنِيهِمْ ، صُدُورَ العِظَائِمِ

* * *

وَيَسْنَ الشَّيَا وَالْمَخَارِمَ رِمَّةً سَرَى فِي الشَّيَا طَيْبُهَا وَالْمَخَارِمِ
بَكْنَهَا المَعَالِي وَالْمَعَالِمُ جُهِدَهَا فَلَهْفَ المَعَالِي بَعْدَهَا وَالْمَعَالِمِ

* * *

لَقِيَتْ الرَّدَى فِي الرُّوعِ جِذْلَانٌ بِاسْمَا فَبُورَكَتْ مِنْ جِذْلَانٍ فِي الرُّوعِ بِاسْمِ^(١)

فقد وجه الشاعر القلوب في معرض تصويره مصاب المسلمين في هذه المعركة إلى تصور البطولة الجماعية للمجاهدين المسلمين ، الذين سعوا إلى جهاد الأعداء ، وأبلوا في حربهم أحسن البلاء ، وهم في ذلك يصدرن عن شعور عميق بوجوب نصره الدين الحنيف ، والدفاع عنه ، حتى ينالوا الثواب الذي أعدّه الله للمجاهدين في سبيله .

ولم يكن حديث الشعراء عن دور البطل في الصراع العكسرى مقصورا على إبراز الدور الذي اضطلع به في تجهيز الجيوش ، وقيادتها ، والاشتراك الفعلي في المارك ، وإنما تعداه إلى إبراز الآثار النفسية التي تنجم عن وجوده في الأمة . فقد رأى الشعراء أنّ البطل ، بما يستمتع من مزايا وصفات ، قادر على حفز الأمة ، وبعث طاقاتها ، وتفريج أزماتها النفسية ، وإشعارها بالثقة ، وبالتالي خلق حالة من الأمن والاطمئنان بين صفوفها . ومن هؤلاء الشعراء ابن سيّد الاشبيلي الذي قال في عبد المؤمن : —

١ — المرقبة العليا : ص ١٢٠ — ١٢٢ ، الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠ — ٩٥ .

فكان كالنوم في أجفانِ ذى سَهْدٍ أو كالأمان على أحشاء ذى وجَلٍ
أضحى بِكَرَّتِهِ الإسلامُ في جدلٍ والمُشركونَ وأهلُ الكُفْرِ في جدلٍ (١)

فالتعبير الشعريّ يرسم صورة معبّرة للحالة النفسية التي نجمت عن وجود
البطل ، وهو عبد المؤمن ، في الأمة : فقد أمن المسلمون به ، أما المشركون فقد شاع
الرّعب والفرع في قلوبهم ، والاضطراب بين صفوفهم ، بل إنّ التعبير الشعريّ قدّم
الإسلام صورة حيّة سعدت بهذا البطل .

وقد قال الأَصمّ المرواني في المعنى نفسه : —

جَلَى إِيَابُكَ عَتَا كُلِّ مَظْلَمَةٍ وَأَتَسَ الدِّينَ مِنْ إِجْحَاشِ مَغْتَرِبِ

* * *

صَافِحِ بَتَلِكِ اليَدِ البِيضَاءِ قَبْتَهَا فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ مُسَوَّدَةَ الطَّنْبِ (٢)

فقد أبرز الشّاعر دور البطل في تأنيس الرّعيّة ، وإخراجها من وحشتها ،
وكشف شدّاتها ، وتفريج أزماتها ، وما ينتج عن ذلك من راحة نفسيّة ، وشعور
بالأمن والاستقرار .

وقد أشاد أبو الحكم رضى البنسني (٣) بجهود الخليفة يوسف في إحياء الأُمّة ،
وبعث الثّقة والنّشاط في نفوس أبنائها في قصيدة ذكر فيها ما تقدّم من الفتح ،
حيث قال : —

أَعَادَ وَالْقَوْمُ قَدْ مَلَّوْا السَّرَى فَهَمُّ مِنْ الدَّرُوبِ عَلَى أَكْوَارِهِمْ مِيلُ
فَخَلَّتْهُمْ مِنْ عَقَالٍ أَتَشِطُّوْا طَرِبًا وَالنَّفْسُ تَبْعُهَا هَذَى التَّعَالِيلِ
وَحَلَّتْ أَنْ الحَيَا لَمَّا أَعَادَهُمَا فَاَلْمَاءُ مَطْرَدٌ ، وَالزَّهْرُ مَطْلُولُ (٤)

١ — التّن : ج ٢ ص ١٥٨ .

٢ — التّن : ج ٢ ص ١٥٨ .

٣ — هو المنذر بن رضى ، من أهل سَرْقَنْطَه ، وسكن بلنسية . كان أدبياً شاعراً . التكملة : ج ٢ ص ٧٠٦ .

٤ — التّن : ج ٢ ص ٤٢٢ .

ويظهر من الأبيات أنّ بعض المسلمين قد ملّوا الغزو ، وأشفقوا من الإبعاد فيه ، إلا أنّ الخليفة يوسف استطاع بوعوده وجهوده أن يعيد الأمل إليهم ، ويملأهم نشاطاً وثقة ، ويوجههم نحو أهدافهم .

وإذا أبرز الشعراء دور البطولة الفرديّة في طمأنة الأمة ، فإنّهم لم يغفلوا دور البطولة الجماعيّة في ذلك . يظهر هذا في الأبيات التالية التي قالها ابن حريون عندما عبرت الجيوش الإسلاميّة إلى الأندلس سنة ٥٦٠ هـ ، يقول : —

دلفتُم بِالْأَسْوَدِ إِلَى بِلَادِ ثَوْتٍ حَجَجَا تَعِيثُ بِهَا الذَّنَابُ
أَشْبَهُهَا غَدَاةَ حَلَلْتُمُوهَا بِلَادَ الْجُدْبِ حَلَّ بِهَا السَّحَابُ
فَلَوْلَاكُمْ لَقَدْ أَضْحَتْ مَوَاتَا يُسْنُ عَلَى تَرَائِيهَا التُّرَابُ
فَقَدْ أَلْقَى عَصَى الْعُمَرَانَ فِيهَا وَقَوَّضَ رَحْلَهُ عَنْهَا الْخَرَابُ^(١)

فالشاعر الذي عاصر سوء الأوضاع في الأندلس قبيل عبور هؤلاء المجاهدين ، لم تفته ملاحظة الوضع الجديد فيها بعد عبورهم إليها ، وعنايتهم بها : فقد كان الأعداء يعيشون فيها فساداً ، ويرهقون أهلها ، إلا أنّ هؤلاء المجاهدين كشفوا كربها ، وأزاحوا الغمّة عنها ، ونشروا العمران فيها .

وهكذا أبرز الشعراء دور « البطل » في الصراع العسكريّ ضدّ العدو . فهو يجهزّ الجيوش ، ويقودها ، ويشارك في المعارك ، ويبعث طاقات الأمة ، ويوجهها للدفاع عن نفسها .

ولم يغفل الشعراء تصوير البطولة الجماعيّة للمجاهدين المسلمين . فقد تشابكت الوشائج بين البطل وجنده ، وهم يسعون بما أوتوا من قوّة ، ويلحون في السعيّ إلى جهاد المعتدين ، مرخصين مهجهم وأرواحهم .

١ - التن : ج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

جـ - القيم والمثل العليا في شعر الجهاد : -

البطولة العربيّة الإسلاميّة بطولة إنسانية ، تقوم على مجموعة من الفضائل الخلقية والنفسية والحربية . وهذا فإنّ البطولة مفهوم يشمل جميع الفضائل والقيم الحسنة التي تميّز البطل في مجتمع معيّن .

والبطولة بهذا المعنى تلتقي مع مفهوم « الفتوة » العربيّة الإسلاميّة في بعض الفضائل دون أن ترادفها ؛ ذلك أنّ الفتوة الإسلاميّة لها تقاليدھا الخاصة^(١) ، أمّا البطولة فتفلت من أسر تلك التقاليد لتتخذ مفاهيم معيّنة من المجتمع الذي توجد فيه .

والشعراء حين يخلعون الفضائل على البطل ، فإنّهم يستوحون قيم المجتمع ومثله العليا في عصر معيّن . وهم بذلك يحاولون تقريب صورته من صورة الإنسان النموذج ، التي تعدّ المثل الأعلى في ذلك المجتمع .

ويمكن أن نجمل الفضائل التي خلعها الشعراء على البطل المسلم في المغرب والأندلس زمن الموحّدين فيما يلي : -

الشجاعة ، الجهاد في سبيل الله ، الكرم ، التقوى والعدل ، الرحمة ، سعة العلم ، وأصالة النسب .

والشجاعة من أبرز سمات البطل في شعر الجهاد ، لأنّها عدّته في الحرب وسلاحه ، وهي شجاعة تعتمد على ثبات القلب ، وقوة العقيدة . ويمكن أن نجمل صورها في شعر الجهاد في الحماسة للقتال ، والإقدام عليه ، والثبات والجلد ، وقوة الاحتمال ، والتّمرّس بفنون القتال ، والعناية بأدواته ، والفتك بالأعداء ، والثقة بالنفس ، والهيبة ...

١ - انظر : الفتوة عند العرب : ص ١٣ و ص ١٩ ، الملامية والصوفية : ص ٢٤ ،

فقد أشاد الأصمّ المرواني^(١) بحماسة عبد المؤمن للقتال وإقدامه عليه . فهو إذا ما دعت الحرب لبي نداءها ، وطار إليها ، متقدماً الجيوش الضخمة ، يقول : —

ملك إذا ما دعت الحرب من بُعد طار السفين أمام الجحفل اللجب^(٢)

وقد ربط ابن الأبار أروع معاني الشجاعة بالعميقة الدينية ، عندما أشاد ببسالة أبي سليمان الكلاعي في القتال ؛ فهو يقدم على الموت ، مبتهجا به ، حتى ينال الثواب الذي أعدّه الله للمجاهدين في سبيله : —

أتاه رداه مقبلاً غير مديبر ليحظى بإقبال من الله دائم^(٣)

وثبات القلب عند النوازل مظهر آخر من مظاهر الشجاعة . وقد صور الشوّاش الشلبي رباطة جأش الخليفة يوسف ، وقوة احتماله ، وصبره على منازلة الأقران ، وشدة قلبه في المعارك التي يهرب منها أشجع الأبطال : —

لله درك والفوارس تدعي والحرب حاسرة المتاع زبون
واليوم يظلم للعيون قتامة فنيه* لك غرة وجبين
في مازق ضنك نزل كمامته ومقامكم صدق هناك رصين
ولرب صوال الزبير حطمته فعدا له بعد الزبير أين^(٤)

كما أشاد ابن المنخل الشلبي بجلد الخليفة يوسف وصلابته ؛ فهو يظل قائما على القلاع والحصون يذلها ؛ حتى يقتحمها عنوة : —

١ — سماء صاحب المن : القرشي الأمي القرطبي المعروف بالطلق . انظر : —

المن : ج ٢ ص ١٥٩ ، النفع : ج ٣ ص ٥٩٢ ، زاد المسافر : ص ١٢٦ .

٢ — المن : ج ٢ ص ١٦١ .

٣ — الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٤ .

* قرئت في المن « وتنيه » .

٤ — المن : ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

فلربّ نايبة السّنام منيعة ذلّتها حتّى وطيت سنامها
ومنيعة صعبت وعزّ مرأها سهلت بالبيض الرّقاق مرأها^(١)

وقد تحدّث الشّواش الشّليبي عن تمكّن الخليفة عبد المؤمن من أساليب القتال ، وتمّرسه بها ، حتّى بات الانتصار في المعارك من عاداته : —

عادات منصور العزائم غالب ضمّنت فتوح مشارق ومغارب
عادات مخترم العداة مظفر مغتال كلّ معاند ومُحارب^(٢)

وقد أشار الشّاعر السّابق إلى النشأة الحربيّة للخليفة يوسف ، حيث أخذ بوسائل الفروسية صغيرا ، وتمّرس بها كبيرا ؛ لذلك فإنّ ميادين القتال تحنو عليه حتو الأمّ البرّة بولدها ، لأنّها ألفته : —

عزّ ريبّ والعُلم لِدائه والمشرفيّ أخ له وحدين
ترك المهاد لسرج* أجردَ سابج وصفا عليه سرّده الموضوعون**
شيل غدّته لحوم أسادِ الوغى في حيث ملتفّ الوشيح عرين
وكأتما الهيجاء أمّ برّة تحنو عليه برفقة وتلين^(٣)

. ويستشفّ من هذه الأبيات الطريقة التي كان ينهاجها الموحّدون في تربية أبنائهم . فهم يُؤخذون بأسباب الفروسية صغارا ، ويشبون عليها .

١ — التّن : ج ٢ ص ٤٦٠ .

٢ — التّن : ج ٢ ص ٢٠٨ .

* ورد في التّن « لسرج » ، وبذا ينكسر الوزن .

** السّرد الموضوعون : — الذّرع المنسوجة .

٣ — التّن : ج ٢ ص ٢٤١ .

وقد ردّد الشاعر المعنى السابق في قصيدة أخرى قالها في الخليفة نفسه (١) .

وتحدّثت المصادر عن عناية الموحّدين بالأسلحة ، واقتنائهم أيّاه . وقد قدّم الشعراء طرفا من ذلك . فوصفوا عنايتهم بالخيل ، وقيامهم على أمرها . كما صوّروا اهتمامهم بالسفن ، وسعيهم إلى بنائها (٢) .

ولطول ألفة بني عبد المؤمن للرماح وعنايتهم بها ، فإنّهم لم يعودوا قادرين على تمييز كعوبها من أيديهم ، وإنّما التبست عليهم ، كما يقول ابن حريون :

وقد ألفوا الأرماح حتّى لأوشكت كعوبُ القنا أن يحسبوا برّاجما* (٣)

والثقة بالنفس مظهر آخر من مظاهر الشجاعة . فالبطل إذ يقتحم الخطوب بقلب ثبت ، وشجاعة فائقة ، كان واثقا من شجاعته ، وبأسه ، ودرسته ، في حميا القتال .

فالخليفة عبد المؤمن لو شاء لخاض المعركة راجلا :

فلو شاء لم يركب جوادا لجحفيل ولا حملته للسفّار الأيازيق (٤)

وهو يستخفّ بالأعداء ، ولا يرهب لقاءهم ، وإنّما :

تلقاه آسادُ الوغى وكأثمه فكأنّما يلقاه سربُ كواعب (٥)

وقد صوّر ابن المنخّل الشلبي الخليفة يوسف فارسا أزهر الوجه ، بيدّ أقرانه ، ويتفوق عليهم :

١ — انظر : — العن : ج ٢ ص ٤٢١ .

٢ — انظر : — النفع : ج ٣ ص ٢٣٨ ، مخطوط الوالي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ١٦ .

* — ورد في الأصل «مراجما» ، ولا معنى له .

٣ — العن : ج ٢ ص ٣٨٧ .

٤ — العن : ج ٢ ص ١٦٥ .

٥ — العن : ج ٢ ص ٢١٠ .

وإذا امتطى ظهر الحصان رأيته بدرَ الكتاب ليثها جَحَاحها(١)
ويقدّم ابن سيّد الاشبيلي في الأبيات التالية ، صورة مشرقة للبطولة الحربيّة
للمجاهدين المسلمين ، وما كان يملأ نفوسهم من قوّة وبأس ، وإقدام على القتال ،
وارتياح إلى الموت ، وابتهاج به :

مِنْ كُلِّ أَزْهَرٍ لِلْحَيَاءِ بِوَجْهِهِ فِي السَّلْمِ رِقْرَاقُ اللَّجِينِ الْمَذْهَبِ
يَرْتَاخُ لِلْمَوْتِ ارْتِيَاخَ قَنَاتِهِ لِلطَّعْنِ أَوْ صَمَّامِهِ لِلْمَضْرِبِ
مَرِيحٌ بِمَعْتَرِكِ الْهِيَاجِ كَأَنَّهُ فِي ضَنْكِهِ مَتَقَلَّبٌ فِي مَلْعَبِ(٢)

وكان الصراع بين الموحّدين والصليبيين بالغ العنف . لذلك كان التغنّي بقوّة
البطل ، وفتكه بالأعداء ، وإرهابهم ، وقدرته عليهم ، سمّة من سمات شعر الجهاد .

فسيفوف الخليفة عبد المؤمن قطعت أجسام العداة ، وفتكت بها ، كما يقول
ابن صاحب الصلاة :

تُقَسِّمُ أَجْسَامَ الْعِدَاةِ سَيْوْفُهُ وَوَلْدُنَ بِأَيْدِي الطَّاعِنِينَ بَوَاسِقُ(٣)

وقد قدّم ابن سيّد الأستاذ(٤) صورة ساخرة للرعب الذي دبّ في قلوب
الأعداء من بطش الخليفة يوسف وفتكه ، يقول :

١ - التّن : ج ٢ ص ٢٤٤ .

٢ - التّن : ج ٢ ص ١٦٩ .

٣ - التّن : ج ٢ ص ١٦٦ .

٤ - لم يوضح ابن صاحب الصلاة المقصود بابن سيّد . فهناك ابن سيد الملقب ، وابن سيّد الاشبيلي . والمرجح أنّ المقصود ابن
سيّد الاشبيلي ؛ لأنّ الملقب توفي بعد سنة ٥٦٠ هـ ، والثاني مات بعد سنة ٥٧٦ هـ ، والقصيدة قيلت سنة ٥٦٦ هـ .
انظر : التّن : ج ٢ ص ٤٥٣ تعليق رقم ٧ ، الرّايات : ص ٤٨ .

راعَ الممالكَ فأتقتَ بملوكِها حتى كأنَّ بها حُبالي تطلقُ
شقيَ العدى منه ببطشةَ مُحنِّقٍ عجباً ، وهل يتأبُه ما يُحنِّقُ؟ (١)

وصورة القتلى الذين ملأت جثثهم الرِّحْب ، فلا تجد الخيول مكانا على الأرض
تضع سنابكها عليه ، صورة قديمة تدلُّ على كثرة القتلى . وقد استعان الأمير الشاعر
أبو الرِّبيع الموحَّد (٢) بها ، عندما صوَّر فتك الخليفة المنصور بالأعداء ، حيث
قال :

أوطانها هام الكماة فلم تضع إلا على خيدٍ طريحٍ مُبتكسى (٣)
وقد صوَّر ابن سيِّد الاشبيلي خوف الصليبيين من المجاهدين المسلمين ، حتى
بات هذا الخوف لا يفارقهم . فهم يتوهَّمون وقع أسلحتهم ، فيهمَّون بالفرار عن
أوطانهم ، يقول :

توهَّم الكفار وقع سلاحهم فتمُّ عن أوطانهم * بتغرُّب (٤)
ولم تكن هذه الشجاعة التي تحلَّى بها البطل المسلم موجَّهة نحو مجد فردي أو
قبلي . وإنما هي شجاعة موجَّهة إلى خدمة الأمة ، والدِّفاع عن الإسلام ، وجهاد
الكفار .

ولعلَّ أبرز صورة يقدِّمها الشعراء للبطل المسلم ، هي صورة المجاهد في سبيل
الله . ولا شك أنَّ هذه هي الصورة الطبيعية لمقاتل تحت لواء الإسلام ، ضدَّ أعداء
يقاتلون باسم الكفر .

١ - التَّن : ج ٢ ص ٤٥٤ و ص ٤٥٦ .

٢ - هو أبو الرِّبيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، أحد أمراء الموحَّدين . كان شاعرا أدبيا ماهرا . وديوانه مطبوع . توفي
سنة ٦٠٤ هـ . انظر : - الغصون البانعة : ص ١٣١ - ١٣٤ ، الأمير الشاعر : ص ١٢٨ ، ذكريات المشاهير : عدد

(١٠) ص ٧ وما بعدها .

٣ - ديوان أبي الرِّبيع : ص ٢٨ .

* ورد في التَّن : أوطارهم .

٤ - التَّن : ج ٢ ص ١٧٠ .

فقد اعتبر الأصمّ الرواني جهاد الخليفة عبد المؤمن للصليبيين في الأندلس
استمراراً لجهاد السابقين الأولين للكفار ، يقول :

منه يعاودُ هذا الفتح ثانيةً أضعافَ ما حدثوا في سالفِ الحقبِ
وَيَلْبِسُ الدِّينَ غَضًّا ثوبَ عَزَّتِهِ كَانَ أَيَّامَ بدرٍ عنه لم تَغِبِ (١)

ويقدم ابن المنخل الشلبي الخليفة يوسف في صورة إنسان غيور على الدين .
فهو عندما رأى الضيق الذي يعانيه الإسلام وجه الخيول الأصيلة الجرداء لقتال
أعدائه ، يقول :

لَمَّا رَأَيْتَ الدِّينَ أَظْلَمَ جَوْهُ وَالْحَرْبُ قَدْ سَدَلَتْ عَلَيْهِ قَتَامَهَا
أَقْبَلْتَهَا شَعَثَ النَّوَاصِي شُرْبًا جُرْدًا تَبَارِي فِي الْفَلَاةِ سَمَامَهَا (٢)

والعقيدة هي التي أورت زناد البطولة في نفس الخليفة المنصور عندما رأى
الضيم الذي حلّ بالإسلام :

غَصِبَتْ وَمَا لِلدِّينِ غَيْرَكَ نَاصِرٌ لِمَنَابِرِ الْإِسْلَامِ أَنْ تَتَمَلَّكَ
شَكَّتِ الثَّفُورُ الْخَطْبَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَيْكَ مِنَ الْخُطُوبِ الْمُشْتَكَى (٣)

وقد ردّد القاضي أبو بكر بن محمد الزّهري (٤) المعنى نفسه ، في قصيدة
وصف فيها إحدى غارات الموحّدين على الصليبيين :

خَرَجْتَ لِلْإِسْلَامِ أَنَّهُ مُوجِعٌ تَذَوُّبُهَا الصَّمُّ الْقَوَاسِي مِنَ الصَّخْرِ (٥)

١ - الثّن : ج ٢ ص ١٦١ .

٢ - الثّن : ج ٢ ص ٤٥٩ .

٣ - ديوان أبي الرّبيع : ص ٢٨ .

٤ - هو القاضي أبو بكر محمد بن عمر الزّهري . من أهل بلنسية . رحل إلى مصر ، كان حافظاً للغة والغريب ، وله شعر رائق .
توفي سنة ٦٥٥ هـ . النّسخ : ج ٢ ص ٦٦ .

٥ - تحفة القادم ، نشر في مجلة المشرق ، بيروت ، مجلّد ٤١ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٧٢ .

والجيوش التي وجهها الخليفة يوسف إلى الأندلس ، إنما وجهها لنصرة دين الله ، كما يقول ابن حريون :

نَصَرَ اللهُ دِينَهُ مِنْ لَدُنْكُمْ بِجِيُوشِ جَاسَتْ خِلَالَ الدِّيَارِ (١)

وقد وصف أبو العباس الجراوي الخليفة المنصور بأنه « معز الهدى » وحمي ذماره ، لذلك فإن السماء تؤيده :

مُعَزُّ الْهَدَىٰ عَلَيْهِ حَامِي ذِمَارِهِ يَجِيرُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ الْبَرِّ وَالْبَحْرَىٰ
مُعَانَ بِإِمْدَادِ الْمَلَائِكِ مُنْزِلٌ مِنَ الْعَقْلِ الْأَسْمَىٰ مَنَاوِيَهُ قَسْرًا (٢)

وتمتزع الغيرة الدينية بالشجاعة الموجهة نحو خدمة الإسلام في شخصية المجاهد أبي حفص ، ويظهر ذلك في قول الشاعر :

الْقَىٰ عَلَىٰ أَهْلِ الضَّلَالَةِ كَلْكَالًا فَلَهُمْ عَوِيلٌ تَحْتَهُ وَأَيْنُ (٣)

وقد أبرز أبو العباس الجراوي جهود أبي حفص الحق في نصرته دين الله ، وإعلاء أمره ، حيث قال :

جَاهَدْتُمْ بِاللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَنَهَضْتُمْ بِحِمَايَةِ الْأَدْيَانِ (٤)

والكرم من الفضائل البارزة التي خلعتها الشعراء على البطل المسلم . وهم إذ يخلعون هذه الفضيلة عليه ، فإنهم يستوحون قيم المجتمع الموحد ومثله العليا ، ويعملون على تقريب صورته — أي البطل — منها .

١ - التّن : ج ٢ ص ٢٨٨ .

٢ - شاعر الخلافة الموحّدة : الملحق : ص ٧ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٨١ .

٤ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤ .

وقد تعددت مظاهر الكرم في شعر الجهاد . ويمكن حصرها في : — حبّ
البذل وسعته ، والكرم وقت الضيق ، والابتهاج بالزّوار ، وتقديم المساعدة السريعة الى
المحتاجين .

فصورة الطيور التي يصيها العطاء لكثرة ؛ فترنّ شكرا ، صورة تقليدية تدلّ
على سعة البذل . وقد اتكأ الشّواش الشّليبي على هذه الصورة عندما أشاد بكرم عبد
المؤمن ، حيث قال :

تَحْوِي نَدَاهُ الطَّيْرُ فِي وَكِنَاتِهَا فَتَرْنُ تَرْجِيْعاً بِشُكْرِ دَائِبِ
عَرَفَتْ عَوَارِفَهُ فَتَشْكُرُ فَضْلَهُ وَتَدِينُ إِعْظَامًا بِحُكْمِ الْوَاجِبِ^(١)

وابتهاج المضيف بزواره الذين يطرقون ريعه معنى تقليدي . وقد استعان به
الأصمّ الرواني عندما أشاد بكرم نفس الخليفة عبد المؤمن . فهو إذا حلّ الزّوار ريعه
يهشّ ويهشّ لهم ، ويسعد بعطائهم ، حيث قال :

جُمُ الْمَوَاهِبِ لِلزَّوَارِ مَبْتَسِمٌ يَسْتَعْرِبُ النَّاسَ وَقْتًا فِيهِ لَمْ يَهَبِ^(٢)

والجواد الحقّ هو من يسخو بماله في اليسر والعسر ، وكذلك كان
عبد المؤمن . فهو إذا ما ضنت السماء بمائها ، وأجدبت أرض على أهلها ، أفاض
على النَّاس من خيره وماله رزقا كثيرا :

إِذَا أَجْدَبَتْ أَرْضٌ نَحَاها بِجُودِهِ فَمَا أَغْزَرَ السَّقِيَا ، وَمَا أَكْثَرَ الْخِصْبَا^(٣)

١ — التّن : ج ٢ ص ٢١٠ .

٢ — التّن : ج ٢ ص ١٦٣ .

٣ — التّن : ج ٢ ص ١٥٣ .

وقد صوّر ابن صاحب الصلاة الخليفة عبد المؤمن إنسانا قياض النفس
بالمشاعر الكريمة ، ورجلا وفيا لأصدقائه ، وجوادا يبذل المال لمن يقصده ، ويقدم
الحماية والأمن لمن يلوذ به ، يقول :

جوادٌ إذا ضَنَّ الغمامُ بويلِهِ وَصُولٌ إذا صَدَّ الصَّدِيقُ المِصَادِقُ
أزاحَ الرّدى عن من* يلوذ بظلِّهِ وبثَّ النّدى فاسترزقته الخلائقُ
ففي ظلِّهِ أمنٌ من الخوفِ مانعٌ وفي كَفِّهِ بحرٌ من الجودِ رازِقُ^(١)

والكرم الذي يفوق انبجاس الماء من السحاب معنى قديم يدلّ على السخاء .
وقد استوحى ابن حريون هذا المعنى عندما أشاد بكرم الخليفة يوسف ؛ هذا الكرم
الذي يصدر عن طبع أصيل فيه ، يقول :

لَهُ راحةٌ لو أنَّ للمزِنِ جودَها لما سار يبغي الخصبَ في الأرضِ رائدُ
وطبعُ تَمَنى الرّافِدانِ لو أتَهُ يَمُدُّها منه مُعِينٌ ورافِدُ^(٢)

وقد صوّر الأستاذ ابن سيّد ابتهاج الخليفة يوسف ، وسعادته ، وتهلّل أساريه
ساعة العطاء ، حيث قال :

يُعطي الجزيلَ ووجهه متهلّلٌ وكذا السحاب إذا تبجسَ يُغرقُ^(٣)

وبنو عبد المؤمن إذا أعطوا فإنّهم يعطون عن طيب نفس :

كِرَامٌ لهم في الجودِ أرفعُ همةٍ فما يهبونَ المالَ إلّا كِرَامًا^(٤)

* — هكذا ورد .

١ — التّن : ج ٢ ص ١٦٦ .

٢ — التّن : ج ٢ ص ٢٤٧ .

٣ — التّن : ج ٢ ص ٤٥٦ .

٤ — التّن : ج ٢ ص ٣٨٦ .

وتفخر العرب إذا أعطت بأنها تبذل أجود ما عندها. وكذلك بنو عبد المؤمن ، فهم إذا جادوا بذلوا أغلى ما يحصلون عليه :

لا يُطعمون سوى ما أنضجت لهم نَارُ الوغى ، وصفايا الزَّادِ مَبْدُولٌ^(١)

وكثيرا ما ربط الشعراء بين الكرم والشجاعة . ولا غرو في ذلك ، فالشجاعة « والكرم متلازمان ، فالشجاع يقدم على الخطر مضحيا بقوته بل بنفسه ، والكرم يضحي بماله »^(٢) . بل إن بعضهم جعل الشجاع ضدَّ البخيل ؛ « لأنَّ البخيل يضمن بماله ، والشجاع يجود بنفسه »^(٣) .

فهذا شاعر مجهول يشيد بكرم بني عبد المؤمن وشجاعتهم . فهم يسارعون إلى الحرب ، ويضرمون نيرانها ، ويجودون بأنفسهم فيها ، كما أنهم يبادرون إلى الكرم ، ويشبِّون نيران القرى ، مضحين بما لهم . يقول :

مساعيرُ في الهيجا مسارع للندى بأيديهم يحمى الهجير ويردُ
تَشُبُّ بهم ناران : للحر والقِسى ويجري بهم سيلان : جيش وعَسَجَدُ^(٤)
وكذلك فإنَّ الخليفة عبد المؤمن شغوف بالفتك بالأعداء شغفه بالبدل
والعطاء :

له سيمة تترأخ للبدل والندى وكف لتفليق الجماجم وامق^(٥)

أما الخليفة يوسف فهو شديد التعلق بالحرب والكرم معا :

صبَّ يوكل بالوغى أو بالندى لا تُرتجى من وجده مسلاته^(٦)

١ - المَن : ج ٢ ص ٤٢٤ .

٢ - الفتوة عند العرب : ص ٨٨ .

٣ - الفروسية : ص ١٢٨ .

٤ - التفتح : ج ١ ص ٦٠٨ - ٦٠٩ .

٥ - المَن : ج ٢ ص ١٦٦ .

٦ - المَن : ج ٢ ص ٢٦١ .

ومن الفضائل التي خلعتها الشعراء على البطل المسلم : التقوى والعدل . وهاتان الفضيلتان من القيم التي جاء بها الاسلام ، وحثّ عليها . لذلك فإن المتبع « للتاريخ الاسلامي ، ومنذ أمد غير بعيد ، لا بد أن يلحظ أنّ شخصية القائد الصالح في المجتمع الاسلامي لم تنسلخ يوما عن شخصية الانسان التقوي » (١) .

لم يخرج الخلفاء الموحّدون الأول عن ذلك . فقد كان عبد المؤمن شديدا صارما في أحكام الدين ، كثير التلاوة والخشوع ، أما يوسف فقد كان متحريرا للحق والعدل ، مطاردا للظلم والبغي . وأما المنصور فقد كان ذا دين وحسن سيرة ، مقيما للحدود في العام والخاص (٢) .

أشاد الشعراء بتقوى البطل وعدله . فهذا ابن صاحب الصلاة يمزج بين المعاني القرآنية والمعتقدات الشيعية في الامامة (٣) ، عندما أشاد بتقوى عبد المؤمن ؛ هذه التقوى التي أضاءت قلبه ، وأنارت سريره ، فكشفت له الحقائق . يقول : —
ومن جعل التقوى سراجا لقلبه أضاء ولم تُحجَبْ لديه الحقائق(٤)
وقد استوحى الشواش الشلبي معتقدات الموحدين في الإمامة ، عندما صور الخليفة يوسف نورا يتناقل في الأصلاب (٥) ، ووصفه بالبر ، والتقوى والطهارة ، واليمن ، حيث قال :

بشرى الخلافة إذ تقلّد عهدها البرّ التقوي الطاهر الميمون

* * *

حَدَّنْ التقى وسليل أنوار الهدى أدتّه عن خير الظهور بَطُونُ (٦)

١ — صدى الغزو الصليبي : ص ١٥٦ .

٢ — انظر : — زهر الأفنان : ج ٢ ص ١٧٠ ، البداية والنهاية : ج ١٣ ص ١٩ ، العبر في خبر من غير : ج ٤ ص ١٦٥ ، مخطوط الاغتباط بتراجم أعمال الرباط : ج ١ ورقة ٢١٥ ، عصر المنصور الموحدي : ص ٤٩ — ٥١ .

٣ — ضحى الاسلام : ج ٣ ص ٢١٨ .

٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .

٥ — أعز ما يطلب : ص ٢٤٥ — ٢٤٩ .

٦ — المنّ : ج ٢ ، ص ٢٤٠ و ٢٤٢ .

ويقدم ابن حربون الخليفة يوسف في صورة إنسان تقى عابد إذا جته الليل ،
وإنسان قوى مهيب إذا أبداه النهار ، حيث قال :

ملك إذا لاح النهار معظم وأما إذا جنّ الظلام فعابد (١)
والصبر والتقوى عدة الخليفة المنصور في جهاد الأعداء :

له عسكرٌ مجر من الصبر والثقى يردّ على أعقابهِ العسكرُ المُجرا (٢) .
وقد صور الرصافي البنسي الخليفة عبد المؤمن إنسانا ناسكا ، مطبوعا على
الورع والتقوى وصفاء النفس :

وحيث قامت قناة الدين ترفل في لواء نصر على البرين منشور
في كف منشمر البردين ذي ورع على التقى وصفاء النفس مفطور (٣)
كما استوحى أبو العباس الجراوي المعنى القرآني (٤) عندما أشاد بتقوى الخليفة
المنصور وورعه :

رأى السبيل شتى فاتقاها تورعاً وسار على المثلى فيسر لليسرى (٥)
وعدل الحاكم لا ينفصل عن تقواه . وقد أشار الشعراء إلى العدالة الاجتماعية
التي حققها الخلفاء الموحدون ، وتحدثوا عن الآثار التي ترتبت على ذلك .

فاطمئنان المخلوقات إلى عدل الخليفة عبد المؤمن ، نزع العداوة من قلوبها ،
وألف بينها ، كما يقول الشواش الشلبي :

وعدلك ألف الأشتات حتى توادّ الذيب والرّشأ الرّيب (٦)

-
- ١ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٦ .
 - ٢ - شاعر الخلافة الموحدة : المعلق : ص ٠٨ .
 - ٣ - ديوان الرصافي البنسي : ص ١٢٩ .
 - ٤ - سورة الليل : آية ٧ .
 - ٥ - شاعر الخلافة الموحدة : المعلق : ص ٧ .
 - ٦ - المنّ : ج ٢ ص ٢١١ .

وقد اطمأنت الأمة إلى عدل الخليفة يوسف : فأمن الخائف ، وجُبر المنهاض ، وأصلح الفاسد :

بعدل أبي يعقوب يأمنُ خائفٌ ويُجبرُ منهاضٌ ، ويصلحُ فاسدٌ (١)

ويلتفت أحد الشعراء إلى معتقدات الموحدين في الإمامة ، عندما أشاد بعدل الخليفة المنصور ، الذي عمّ البسيطة ، في الوقت الذي أريد فيه وجه الأرض بالظلم والطغيان :

إمام الورى عمّ البسيطة عدلُه على حين وجهُ الأرض بالجور أريدُ (٢)

فهذا البيت يستند إلى نظرة الموحدين في الإمامة . فهم يرون أن الإمام سيملاً الأرض عدلا بعد أن ملكت جورا وظلما (٣) . ولا يخفى أنهم بذلك متأثرون بالشيعة .

ومن الفضائل التي خلعتها الشعراء على البطل المسلم : الرحمة والرقّة والعطف . « فالبطل الصارم الشجاع ليس أسدا فراسا ، وإنما هو أنسان اتسع قلبه للشجاعة والبأس ، وللرحمة والعطف » (٤) .

والرحمة من الفضائل العربية التي تغنى بها الفرسان العرب في الجاهلية ، وحث عليها الإسلام ، لذلك فإن من أسماء رب العزة : « الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » .

وقد قدّم الشعراء صوراً مختلفة للرحمة عندما أشادوا ببطولة المجاهدين المسلمين . ويمكن أن نجملها في : الصفح عن المخطئين ، والعفو عن الأعداء وإغاثة الملهوف ، والانتصار للمظلوم ، والسهر على مصالح الأمة والعناية بها .

١ - المرنّ : ج ٢ ص ٢٤٨ .

٢ - التفتح : ج ١ ص ٦٠٩ .

٣ - أعزّ ما يطلب : ص ٢٥١ ، نظم الجمان : ج ٦ ص ٧٥ - ٧٦ .

٤ - البطولة والأبطال : ص ٣٣ .

ف عندما انتصر المسلمون على الصليبيين في المهديّة ، أعطاهم الخليفة عبد المؤمن الأمان ، وعفا عنهم ، وأطلق سراحهم ، وقدم السفن لهم حتى يجلبوا عن البلاد (١) . وقد قدم الأصبم المرواني صورة معبرة لفرح هؤلاء الأعداء الذين منّ عليهم الخليفة بالعفو :

سارَ العلوجُ وفي أعناقهم مننٌ من عفو مقتدِرٍ للغزو منتدبٍ مدّوا الأكفَّ للمسّ النجم من فرح وشمّروا لوثوبَ البحر من طربٍ (٢) وعفو الخليفة عبد المؤمن عن الأعداء السابقين عفو قوي مقتدر لا عفو ضعيف :

ف عفوتُ عفوُ القادرينَ تكراً عنهم ، وعفُوُ القادرينَ جميلٌ (٣)

وعندما خرج أهل قفصة (٤) على الموحدين ، وجهوا إليهم جيشاً ضخماً تغلب عليهم . إلا أن الخليفة عبد المؤمن عفا عنهم ، وأمر برد أشياءهم إليهم . وفي ذلك قال أبو العباس الجراوي :

لم يُغنِ عنهم إذ أتاهم من عِلٍ أن يَحرسوا الأسوارَ والأبوابا

* * *

نالهمُ رحمى الخليفةِ بعدما نادى الردى بنفوسهم وأهاباً (٥)

١ — المكتبة العربية الصقلية : ص ٣٣ .

٢ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٢ .

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٨ .

٤ — قفصة : — بلدة صغيرة من ناحية المغرب ، من عمل الزّاب الكبير بالجزيرة ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . معجم البلدان : مادة قفصة .

٥ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٦٩ .

وقد عجب ابن سيد الاشيبلي من أناة الخليفة عبد المؤمن وحلمه ، وحذره من عاقبة ذلك الحلم الذي قد يطر العاصين ، ويحملهم على الزلل :

ما زال يُغضي فيُعطي صافحاً كرمأً والصَّفْحُ قد يحمل العاصي على الزلل (١)
وعناية القائد بالرعية وسهره على مصالحها مظهر آخر من مظاهر الرّحمة والرفق . فهو إذا كان رؤوفاً بأعدائه ، فمن الأولى أن يكون رحيماً برعيته .

أبرز الشعراء هذه السمة في القادة الموحدين . فالخليفة عبد المؤمن لا يفتأ يهدي الرعية ، ويعلمها ، ويقدم المشورة لها ، كأنه أب عطوف يحنو على أبنائه :

فأوسعت الأنام هُدَى يُرِيهم معالم دينهم وندى يصبوب
فأنتم للجميع أب عطوف وكل في كفالتكم ريب (٢)

وقد أبرز ابن المنحل الشلبي دور الخليفة يوسف في طمأننة الأمة ، والدفاع عنها ، ورعايته إياها ، وقيامه على شؤونها ، بعد أن كاد الأعداء يعصفون بها . يقول :

لله رعيك في رعاية أمّةٍ ذعرت ديات المشركين سوامها
أسكنتها أرسى محلّ بعدما كادت تُفوّض للجلال خيامها (٣)

لذلك فإن وجود هذا الخليفة في الأمة رحمة من الله لها ، كما يقول ابن حربون :

بُعِثْتُمْ لهذا الخلق أمناً ورحمةً على حين لم يلقوا على الأرض راحماً (٤)

-
- ١ - المنّ: ج ٢ ص ١٥٧ .
 - ٢ - المنّ: ج ٢ ص ١٥٧ .
 - ٣ - المنّ: ج ٢ ص ٤٥٨ .
 - ٤ - المنّ: ج ٢ ص ٣٨٧ .

وقد ربط أبو الحكم بن رضى البلسي بين أسمى صور الشجاعة ، وأروع مظاهر العناية بالأمة عندما أشاد بالخليفة يوسف :

ثَبَّتَ الجِنَانِ رِبِيظَ الجَأْشِ ذُو دَعِيَةٍ إِذَا تَعَارَضَ تَأْوِيلٌ وَتَأْوِيلٌ
عِلْمًا بَأَنَّ الرَّعَايَا فِي كِفَالَتِهِ وَأَنَّهُ عَنْهُمْ لَا بَدَّ مَسْئُولٌ (١)

ولفيض اهتمام الخليفة يوسف بالأمة ، وشدة عنايته بها ، فقد بدا كأنه أب حان على ابنائه ، أو ابن بار بآبائه ، كما يقول الاستاذ ابن سيّد :

عَمَّ البَرِيَّةَ رَفَقَهُ فَكَأَنَّهُ لَهُمْ أَبٌ حَانٍ أَوْ ابْنٌ مُشْفِقٌ (٢)

أشارت المصادر الى عناية الخليفة المنصور بالأمة ، وقيامه على أمرها ، وسهره على مصالحها (٣) . وقد كان لذلك أصداء واضحة في الشعر . ولعل في الأبيات التالية ما يوضح ذلك :

وَأَضْفَى عَلَى الدُّنْيَا مَلَابِسَ رَحْمَةٍ . نُضَارَتْهَا فِي كُلِّ حِينٍ تَجَدُّدُ
وَأَخْضَلَ أَرْجَاءَ الرُّبَا فَكَأَنَّمَا عَلَيْهَا مِنَ النَّبْتِ النُّضِيرُ زَبْرَجْدُ
فَمَنْ طَرِبَ مَا أَصْبَحَ البَرِّقُ بِاسِمَا وَمَنْ فَرِحَ مَا أَضْحَتِ المُنْزَنُ تُرْعِدُ
وَعَتَى عَلَى أَفْنَانِ كُلِّ أَرَاكِيَةِ غَذَاهَا حَيَا التُّعْمَى حَمَامٌ مَعْرَدُ
وَكَبَّرَ ذُو نَطِيقٍ ، وَسَبَّحَ صَامِتٌ وَكَادَ بِهِ المَعْدُومُ يُحْيَا وَيُوجَدُ (٤)

فقد قدمت الأبيات صور معبرة أوضحت مدى عناية المنصور بالأمة ، فهو قد أحياها ، وأضفى عليها ملابس الرحمة والعطف ، فازدهت الأيام ، وكثرت الأرزاق ، ونمت الخيرات ؛ لذلك فإنّ مظاهر الوجود عبرت عن فرحها بعهد هذا القائد .

١ - المُنْ: ج ٢ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

٢ - المُنْ: ج ٢ ص ٤٥٦ .

٣ - انظر: المعجب: ص ٤٦٢ و ص ٣٦٥ .

٤ - النفع: ج ١ ص ٦٠٩ .

والبطل في شعر الجهاد واسع العلم ، غزير المعرفة ، معتن بالفكر ، قائم عليه ، ولا غرابة في ذلك ؛ فالعلم سلاح ماضٍ في المعركة .

فقد أشاد أبو جعفر بن سعيد بعناية عبد المؤمن بالآداب ، وقيامه على أمرها ، على الرغم من الكبر الذي يظهره الشعراء ، يقول :

يَقُومُ عَلَى الْآدَابِ حَقُّ قِيَامِهَا وَيَكْبُرُ عَمَّا يُظْهِرُونَ مِنَ الْكِبَرِ^(١)

وتشير المصادر إلى المجالس العلمية التي كان يقيمها الخلفاء الموحّدون في قصورهم ، وقد أشار ابن حريون إلى تلك المجالس في قصيدة مدح بها الخليفة يوسف ، مذكرا بوقية السبيكة . وما ورد قوله :

مَجَالِسُهُمْ رَوْضَاتُ نَجْدٍ يَزِينُهَا مِنَ التَّوْرِ أَجْناسُ ثُوَامٍ وَقَارِدُ
مَجَالِسُ لَوْ تَرَقَى الْكَوَاكِبُ نَحْوَهَا لَقَدْ بَاتَ تَلْمِيذًا لَدَيْهِمْ عَطَّارِدُ
لَقَدْ عَمَرَتْ بِالْعِلْمِ حَتَّى كَانَتْهَا لِكثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا مَسَاجِدُ^(٢)

ويظهر من الأبيات أنّ العلوم الدينية كانت من أكثر العلوم التي عمّرت بها تلك المجالس ؛ فهي لكثرة ذكر الله فيها تحال مساجد .

ولم يكن اهتمام الخلفاء الموحّدين مقصورا على العلوم الدينية ، وإنّما شمل علوماً أخرى . وقد أشار إلى ذلك شاعر مجهول ، فأشاد بعناية المنصور بأصول الشريعة وبغيرها من العلوم الجديدة التي لم تعهد من قبل :

مَعِيْدٌ عِلْمِ الدِّينِ بَعْدَ ارْتِفَاعِهَا وَمُبْدِي عِلْمِهَا لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَعْهَدِ^(٣)

١ - المغرب : ج ٢ ص ١٦٥ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٧ .

٣ - النّفق : ج ١ ص ٦٠٩ .

ويستشف من البيت اهتمام الموحدين بعلم أصول الدين ، وهو اهتمام نابع من دعوتهم إلى الأخذ بالكتاب والسنة ، ونيز كتب الفروع التي راجت على عهد المرابطين . وقد اعتبر الشاعر الخليفة المنصور معيدا تلك العلوم — أي علوم أصول الدين — بعد ارتفاعها ، ولا غرابة في ذلك ؛ فقد أبدى هذا الخليفة تشددا كبيرا في دعوة الناس إلى الأخذ بأصول الشريعة ، وترك كتب الفروع ، لذلك فقد أحرق أعدادا ضخمة من تلك الكتب (١) .

وقد استوحى عبد الواحد المراكشي سيرة الخليفة العباسي المنصور وعنايته بالفكر عندما أشاد باهتمام إبراهيم بن أبي يوسف — وهو أحد امراء الموحدين — بالعلوم ، وقيامه على أمرها ؛ فربط بين الشخصيتين على النحو التالي : —

أَحْيَيْتُمُ الْمَنْصُورَ فَهُوَ كَأَنَّهُ لَمْ تَفْتَقِدْهُ مَعَالِمٌ وَعِلْمٌ (٢)

ولم يكن العلم بعيدا عن ميدان المعركة ، فهو سلاح فعال يعتمد عليه في قتال العدو . فقد استعمل الخليفة المنصور القلم إلى جانب السيف في جهاد الأعداء كما يقول ابن مجير :

رَأَى الْعِدَاةَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَنَا وَنَأَى فَاسْتَعْمَلَ الْمَاضِيِينَ : السَّيْفَ وَالْقَلَمَ (٣)

وقد كان من الخلفاء الموحدين أنفسهم علماء (٤) . لذلك أشار الشعراء إلى هذه النزعة وأفاضوا فيها .

فالخليفة عبد المؤمن علمه بإد للناس جميعا :

خَلِيفَةَ اللَّهِ بَادِي الْعِلْمِ مَبْتَسِمٌ عَن جَوْهَرٍ مِنْ بَدِيعِ النَّظْمِ مُتَّخِبٌ (٥)

١ — العبر في خبر من غير : ج ٤ ص ٢٨٩ ، مخطوط الواقي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٢ .

٢ — المعجب : ص ٣٨٧ .

٣ — زاد المسافر : ص ٥٣ .

٤ — المعجب : ص ٣٠٩ ، مخطوط الحلال السندسية : ورقة ٤٦ ، مخطوط الواقي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٢ .

٥ — المن : ج ٢ ص ١٦٣ .

وهو — أي عبد المؤمن — لا يستأثر بالعلم لنفسه ، وإنما لا يزال يهدي الأمة ، ويربها معالم دينها ؛ فإذا دخل عليه الجاهل خرج من عنده عليما ، رشيدا ، لبيبا :

وعلمت الجهول فليس إلّا عليمً راشدً فطنً لبيبً
وأوسعت الأنام هدى يُرِيهم معالمَ دينهم وندى يصوبُ^(١)

ولقد أشار الشّواش الشّليبي إلى النشأة العلمية التي نشأها الخليفة يوسف ، حيث قال :

غرّ لبيبً ، والعلوم لدائهُ والمعلوات كرائمًا دايأثهُ^(٢)

ولفيض علم هذا الخليفة — أي يوسف — فإنّ الجاهل إذا دخل عليه خرج من عنده عالما :

فِيرِجُعُ عنه جاهلٌ وهو عالمٌ وَيَرِجُعُ عنه معدم وهو واجِدٌ^(٣)

والبطل في شعر الجهاد أصيل التّسب . والإشادة بنسب المدوح تقليد شعريّ نشأ عن اهتمام العرب البالغ بأنسابهم . وقد اختلف المؤرّخون القدامى في نسب الموحّدين : فبعضهم أقر لهم التّسب العربي القيسي الذي ادّعوه^(٤) ، وبعضهم خلع عنهم ذلك التّسب ، وجعلهم في البربر^(٥) . أمّا ابن خلدون فردّ أصلهم إلى البربر ، وجعل نشأتهم في العرب^(٦) .

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢١٢ .

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٦٠ ، وقارن بما ورد في ص ٢٤١ .

٣ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤٧ .

٤ — نظم الجمان : ج ٦ ص ٣٤ ، أخبار المهدي : ص ٢١ ، القرطاس : ص ١٧٢ ، الحلال الموشية : ص ٨٤ ، مخطوط الحلال السنديّة : ورقة ١٣ .

٥ — المعجب : ص ٢٤٥ .

٦ — تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .

أنكر الباحثون المحدثون النسب القيسي للموحّدين دون أن يعتمدوا في ذلك على دليل علمي ، وجعلوا تشبّث الموحّدين بذلك النسب من مقتضيات الخلافة المهدويّة ، التي من شروطها النسب الذي يرتفع إلى آل البيت (١) . ومهما يكن من أمر ، فهم قوم الإسلام دينهم ، والعربيّة لغتهم .

والمراجع للأشعار التي تعرّضت لنسب الموحّدين يلاحظ أنّ الشعراء غالبا ما يصدرون في إشاداتهم بنسبهم عن بيان لحقهم في الخلافة دون غيرهم . ممّا يعزّز القول أنّ تشبّث الموحّدين بالنسب القيسي ضرورة سياسية . ولكنّ ذلك لا يجزم القول في نسبهم .

وقد تكون الإشادة بنسبهم إشادة تقليديّة خالية من الأغراض السياسيّة . وقد يستغل بعض الشعراء ذلك في إثارتهم وحثّهم على جهاد الأعداء .

فقد استوحى ابن سيّد الاشبليّ تعاليم الموحّدين في الإمامة عندما حتّ القبائل العربيّة على الاقتداء بالموحّدين ، يقول :

هلاً اقتدوا بسُراة قيس إنّهَا جازت بمنسيها كريم المنسبِ
ترضى إذا رضى الخليفة دائما وكذلك إن يغضب لحق تغضب (٢)

فالشاعر لم يشد بنسب الموحّدين القيسيّ إلاّ لكّي يحثّ القبائل العربيّة على الاقتداء بهم ، والإذعان لهم . وتتضح آثار الفكر الموحّدي في البيت الثاني عندما دعا الشّاعر هؤلاء العرب إلى الرّضى المطلق عمّا يريد الخليفة ؛ لأنّ الخروج على الإمام كفر كما يرون (٣) .

١ - الدولة الموحّدية : ص ٨٥ ، عصر المرابطين والموحّدين : ج ١ ص ٢٢٢ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ١٦٩ .

٣ - أعز ما يطلب : ص ٢٥٢ .

والخليفة يوسف حقيق بالخلافة ، وجدير بها ، لأنه من قبيلة قيس
العربيّة : —

تَسْرِبَلَهَا مِنْ سُرِّ قَيْسٍ مَحَبَّبٍ إِلَى النَّاسِ مَيْمُونٌ النَّقِيَّةُ زَاهِدٌ^(١)
أما الخليفة المنصور فإنه ينحدر من دوحة قرشية شماء ، أصلها في الأرض ،
وفرعها في السماء ، لذلك فهو حقيق بمراث الخلافة :

هي الدّوحة الشّماء في الأرض أصلها وقد زاحت منها السّماء الدّوائِبُ
له نسبة قيسيّة قرشيّة تقر لها بالمعلوات المناسب
حقيق بمراث النبوة والهدى ولا عجب ، إنّ المزايا مواهب^(٢)

وقد راوح أبو الحكم بن رضى البنلسي بين المعاني التقليديّة والأهداف
السياسيّة عندما أشاد بنسب الخليفة يوسف ، حيث قال :

من قيس عيلان حيث الملّك متسقٌ وحيث كلّ فعال الخير مفعولٌ
وحيث للأمر قسطاً دعائمه قنا لدان ، وأسياف مقاصيل*
قوم إذا ما رضوا فالروض حوزتهم وإن هم غضبوا فالحوزة الغيل
القائمين بأمر الله لا رهنٌ ولا كسالى ولا عُثر مهاييل^(٣)

فقد جعل الشاعر الأشادة بنسب الموحدّين ، وبما يتصفون به من خصال
كريمة ، مقدّمه بين يدي غرضه الذي أراد الوصول إليه ، وهو القول : إن هذه
الفضائل تؤهلهم لحكم المسلمين .

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤٦ .

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٥٢ .

* أسياف مقاصيل : أسياف قاطعة . لسان العرب : مادة « فصل » .

٣ — المنّ : ج ٢ ص ٤٢٤ .

ويتخذ بعض الشعراء نسب الموحدّين وسيلة لاستشارتهم ، وحثّهم على جهاد الأعداء . ويدو هذا في الأبيات التالية لابن المنخّل الشّليبي :

ورأث عداة الله أنّ حمامها من قيس عيلانٍ فكنت حمامها
فعلى رماحك أن تشقّ جيوبها وعلى سيوفك أن تفلق هامها
وعلى جيوشك أن تدوّخ أرضها وتدوسّ في عرصاتها أصنامها^(١)

ويربط ابن حربون بين أسمى صور الشجاعة الموجهة لخدمة الدّين الخفيف ، وبين نسب الموحدّين ، حيث قال :

إذا ما دعت قيس بدعوة هاشمٍ ذرت من رماح المعتدين هشائمًا
بنو الملك المرهوب في الأرض كلّها ومن ملأ الدّنيا لهيً وملاجيمًا^(٢)

وقد ينهج بعض الشعراء في إشادتهم بنسب الموحدّين نهجا تقليديا خاليا من الأغراض السياسية . ويظهر هذا في قول ابن حربون :

عليه من سراة بني عليّ عليّ لا يُضاف إليه غابُ
كسوبُ الحمد متلافٌ وهوبٌ كمثل البحر يُرجى أو يُهابُ^(٣)

وغالبا ما تكون الإشادة التقليديّة في القصائد التي قيلت في غير الموحدّين . فعندما استشهد قائد الأعتة ببلنسية ، قال ابن حزمون موشحة رثاء فيها . وقد خلج عليه مجموعة من الفضائل ، من بينها : أصالة النسب^(٤) .

١ - المرنّ : ج ٢ ص ٤٥٨ .

٢ - المرنّ : ج ٢ ص ٣٨٦ .

٣ - المرنّ : ج ٢ ص ٢٦٤ .

٤ - انظر : المغرب : ج ٢ ص ٢١٧ .

وعندما استشهد أبو سليمان الكلاعي في معركة أنيثة ، أشاد ابن الأبار
بمناقب الفقيه ، ومن ضمنها : أصالة نسبه . حيث قال :

قضَى حاملُ الآدابِ من آلِ يعربٍ وحامي هدى المختار من آلِ هاشمٍ
يمانٍ كلاعيٍّ نماهُ إلى العُلَى تمامَ حواهُ قبلُ عقدِ التمامِ^(١)

تلك هي أبرز الفضائل والمثل العليا التي خلعتها الشعراء على البطل المسلم في
عهد الموحدين . وقد تبدت فيها البطولة العربية الإسلامية بجانبها الحربي والخلقي
والنفسي . فقد صور الشعراء ما كان يملأ حياة أولئك المجاهدين من نشاط فيه الأمل
والإبتهاج ، وفيه الثقة بالنفس ، والإيمان بالحق ، والارتفاع عن صغائر الأمور ، والسمو
إلى المثل العليا .

والشعراء إذ يصورون أبطالهم شجعانا كرماء ... فإنهم يستوحون قيم المجتمع
الموحدوي ومثله العليا ، ذلك المجتمع الذي عمل قاداته جاهدين لإحياء روح البطولة
والفروسية فيه^(٢) . وبذلك لم تكن البطولة في شعر الجهاد مجرد فكرة ، وإنما هي
بطولة مارستها الجماعة الإسلامية .

ومع ذلك فإن الشعراء لم يأتوا بمعان جديدة حين مجدّوا بطولة المجاهدين
المسلمين . وإنما هي معان مستوحاة من القيم والمثل العربية الإسلامية . فالعرب منذ
جاهليتهم يفخرون بالشجاعة ، والكرم ، والحلم ...

كما أن الإسلام حث على التحلي بالمثل العليا ، وقد تغنى الشعراء المسلمون
بذلك . إلا أن الشعراء المغاربة والأندلسيين أضفوا على تلك المعاني — في بعض
الأحيان — لمسات مستوحاة من الفكر الموحدوي .

١ — الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٢ و ص ٩٣ .

٢ — الحلال الموشية : ص ١٢٥ .

ويلاحظ أن الشعراء لم يكونوا يُعَنُونَ بتصوير أبطالهم تصويراً خَلْقياً ، وإنما اهتموا بإبراز صفاتهم الخَلْقِيَّة والنَّفْسِيَّة . وجلّ ما يقولونه عن أجسامهم ، أنّها قويّة ، وأنّ وجوههم وضّاءة .

ويظهر أنّ الشعراء لم يكونوا يعنون إلاّ بتصوير بطولة الخلفاء الموحّدين الأوّل . ولا تثريب عليهم ؛ فقد كان أولئك الخلفاء بحق هم أبطال الصراع بين المسلمين والصليبيين . إلاّ أنّ ذلك لا يعني أنّ الشعراء أغفلوا تصوير البطولة الجماعيّة للجيش الإسلامي . فهم لم يصوِّروا البطل وحده ، وإنّما صوِّروا جماعة المسلمين المجاهدين معه .

ولم يجد الدّارس شعراً يمجّد البطولة والأبطال بعد الخليفة المنصور إلاّ قليلاً . ولا غرو في ذلك ؛ فإنّ الخلفاء التالين لم يحقّقوا للأمة انتصارات كذلك التي حقّقها الخلفاء الأوّل . بل أنّ جلّ المعارك التي خاضها المسلمون حينئذ لم يحظوا بسهم وافر فيها . وشعر البطولة لا يعيش إلاّ في جوّ مفعم بالحماسة والانتصارات الحربيّة .

وقد مال الشعراء أحياناً إلى المبالغة في تمجيد البطولة . ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة الموقف ، وهو موقف حماسي ، وما يكتنفه من أجواء انفعاليّة تدعو إلى المبالغة في الوصف والقول . وقد تكون المبالغة من الوسائل التي تدرّج بها الشعراء للزيادة في المعاني القديمة ، ولإلتيان بالمبتكر من الشعر ، هذا إذا علمنا أنّ الشعراء أسرفوا في محاكاة الشعر القديم . إلاّ أنّه لا يمكن أن نغفل أثر المعتقدات الموحّدية في الإمامة حين تعليل ذلك . فالموحّدون يرون — كما يرى الشيعة — أنّ الامام — وهو البطل غالباً — يعيى البلغاء عن وصفه ، ويقرون بالعجز ، وأنّ أي وصف للإمام يكون ناقصاً^(١) . لذلك فإنّ الشعراء لا بد أن يلجأوا إلى المبالغة في وصف البطل حتّى يوفّوه حقه ، أو يصلوا إلى شيء من خصاله .

وجملة القول : إنّ الأمة إذ تخلع على أبطالها معاني البطولة ، فإنّها تعترف بفضلهم ، وتقدر جهودهم ، وتقرّ بتفوقهم وتمييزهم . وقد قدّم الشعراء بذلك صورة عن البطولة الإسلامية في الأندلس والمغرب في القرن السادس الهجري .

الفصل الثالث

صورة الصليبيّين في شعر الجهاد

- أ - عقيدة الصليبيّين .
- ب - الجيش الصليبي .
- ج - تصوير هزائم الصليبيّين .
- د - القائد الصليبي .
- هـ - الصراع الحضاري .
- و - حلفاء الصليبيّين .

صورة الصليبيين في شعر الجهاد

ترك الصراع الذي استمر في الأندلس بين الموحدين والصليبيين زهاء قرن من الزمان صورة خاصة عن العدو الصليبي في شعر الجهاد .

وغالبا ما كان الاتصال بين المسلمين والصليبيين مقصورا على ميدان القتال ، فأثر ذلك في طبيعة الصورة التي قدّما الشعراء المسلمون للأعداء . فقد صوروهم تصويرا يثير الحفيظة ، ويبين خطرهم ، ويحذّر المسلمين منهم . وهم بذلك يعبرون عن موقف الجماعة الإسلامية التي ينتمون إليها ، من أولئك المعتدين .

أ — عقيدة الصليبيين :

كانت المشاعر الإسلامية تغمر الشعراء وهم ينظمون قصائدهم الجهادية . يظهر ذلك في تركيزهم على عقيدة الصليبيين ، ونعتها بنعوت مستوحاة من طبيعة الصراع العقائدي . فقد نعت الشعراء المسلمون الصليبيين بـ « الشرك » ووصفوه بـ « المشركين » .

فهذا أبو المطرف بن عَميرة يشير إلى أنّ « الشرك » قد استولى على البلاد ، وصدّ المسلمين عنها ، مع حبّهم لها :

ويصدّنا في ذلك عن أوطاننا مع حبّها ، الشرك الذي فيها ثوى^(١)

ويقرر موسى بن هرون* أنّ « يد الشرك » قد اجتاحت مدينة إشبيلية ، ودمرت المعالم الحضارية فيها :

عَفَتْ يَدُ الشَّرِكِ ما شادَ الخِلايفَ من قصر ، ومن مصنعِ ضخمِ حَكى إرما^(٢)

١ - النّفق : ج ١ ص ٣١٠ .

* لم نبتد الى ترجمته .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٣ .

أما سفن الموحّدين فسترزأ « الإشراك » وتدمره :

تطيرها الرّيح غريانا بأجنحة ال حمائم البيض للإشراك تَرْزُوه^(١)

ويؤكد ابن الأبار أنّ سقوط المدن الإسلاميّة في أيدي الصليبيين هو سقوط في يد « الإشراك » ، يقول :

مدائن حلّها الإشراك ممتسما جذلان ، وارتحلَ الإيمان مُبتسماً^(٢)

وعندما ذكر ابن حربون أرض الصليبيين ومعاقلهم وصفها بـ « أرض المشركين » ، يقول :

واستقدمت للرّعب كلّ كتيبة شنت بأرض المشركين مغارها^(٣)

لذلك فإنّ خيل المنصور ستنسف هذه الأرض نسفا ، كما يقول ابن الأبار :

تهبّ على الأعداء منها عواصف ستنسّف أرض المشركين بها نسفا^(٤)

كما نعت الشعراء المسلمون الصليبيين بـ « الكفر » ووصفهم بـ « الكافرين » . فهذا الخليفة عبد المؤمن يحدث نفسه ، ويعد أصحابه بغزوة تسيل فيها « دماء الكفر » :

ولا بدّ من يوم أغرّ محجّل يُسيل دماء الكفر في كلّ مذنب^(٥)

١ - النسخ : ج ٤ ص ٥٩ ، مخطوط الرّواي بالهويات : ج ٢٦ ورقة ١٧ .

٢ - النسخ : ج ٤ ص ٤٥٧ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠١ .

٣ - المنّ : ج ٢ ص ٢٦٥ .

٤ - النسخ : ج ٣ ص ٢٣٩ .

٥ - المنّ : ج ٢ ص ١٢٤ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .

ويؤكد موسى بن هرون أنّ « الكفر » هو الذي اجتاحت مدينة إشبيلية واستولى عليها ، يقول :

سَطَا بِهَا الْكُفْرُ إِذْ قَلَّ النَّصِيرُ بِهَا فَمَنْ مُعِزٌّ بِهَا الْإِسْلَامَ مَا سَلِمًا
لذلك فلا عذر للمسلمين في ترك هذه المدينة مسلمة له : —

لا عذرَ في تركها للكفر مُسلمة إنَّ الزَّمانَ وأنتُمْ فيه ما عَقَمًا^(١)
وعندما عبر الخليفة عبد المؤمن الى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ مدحه ابن سيّد
الإشبيلي بقصيدة ذكر فيها حالة الملح والاضطراب التي انتابت « أهل الكفر » منه ،
حيث قال :

أضحى بكَرَّتِيهِ الْإِسْلَامُ فِي جَدَلٍ وَالْمَشْرُوكُونَ وَأَهْلَ الْكُفْرِ فِي جَدَلٍ^(٢)
وقد صورَ ابن سيّد المالقي^(٣) الصليبيين تصويراً يثير الحفيظة عندما وصفهم
بـ « الكفر » الذي عضّ المسلمين بأنياه ، بعدما كان عاجزاً عن ذلك فترة من
الوقت ، يقول :

فقد عَضُّهُمُ نَابٌ مِنَ الْكُفْرِ مُعْضِلٌ وَكَانُوا بِكُمْ دَهْرًا وَأَنْيَابُهُ دُرْدُ^(٤)
وإذا ما ذكر الشعراء أرضَ الصليبيين نعتوها بـ « أرض الكفر » ، لذلك فإنَّ
المسلمين بفتحها يعيدونها إلى الحقِّ كما يقول أبو الحسين بن صاحب الصلاة : —
فطافَ بِأَرْضِ الْكُفْرِ حَتَّى أَعَادَهَا إِلَى الْحَقِّ ، وَانْقَادَ الْأَبْيَ الْمَشَاقِقُ^(٥)

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٣ .

٢ — المَنّ : ج ٢ ص ١٥٨ .

٣ — هو أحمد بن حسن بن سيّد الجزائر المالقي ، أحد الأدباء الذين عاشوا في البلاط المرصدي . درس النحو والأدب ، وكان شاعراً كاتباً بليغاً . انظر المَنّ . ج ٢ ص ١٢٧ .

٤ — المَنّ : ج ٢ ص ١٢٨ .

٥ — المَنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .

وكذلك فإن جيشهم « جيش الكفر » كما يقول ابن الأثير :

سرعان ما عاث جيش الكفر وحرّبا عيث الدّبا في مغانيها التي كَبَسَا^(١)

وقد نعت الشعراء الصليبيين بـ « الضلال » . فهذا ابن سهل الأندلسي يحث ابن الجذّ^(٢) على حسم « الضلال » وقطع دابره :

فانهضُ بجذّك في حسم الضلال كما دبّ السنّا في الدّجى ، والبردُ في سقم^(٣)

وقد استوحى أبو المطرف بن عميره المعنى القرآني^(٤) عندما أشار إلى إظلام نهار بلنسية عندما احتلها الصليبيون الضلال ، بعدما كان ليها منيرا يهدى المسلمين ، حيث قال :

قد كان يُشرقُ بالهداية ليّله والآن أظلم بالضلال نهاره^(٥)

وقد نعت أبو العباس الجراوي الصليبيين بـ « أهل الضلالة » في قصيدة وصف فيها ما حلّ بهم عندما فتح المسلمون مدينة بطليوس ، حيث قال :

ألقي على أهل الضلالة كلّكلاً فلهم عويلٌ تحته وأنين^(٦)

وقد صوّر الأمير الشاعر أبو الربيع الموحّد الصراع صراعا عقائديا بين « جيش الضلال » و « جيش الحق » في قصيدة مدح فيها الخليفة المنصور :

١ - النَّعْج : ج ٤ ص ٤٥٧ .

٢ - هو حفيد الحافظ الشهر أبي بكر بن الجذّ ، وقد اضطلع بدور محمود في حماية إشبيلية والدفاع عنها في أواخر العهد الموحدى . انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٥٧ و ص ٣٨١ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ٢ ص ٤٧٠ .

٣ - ديوان ابن سهل : ص ٨٣ .

٤ - سورة التور : آية ٣٥ .

٥ - صفة جزيرة الأندلس : ص ٥١ .

٦ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٨١ .

جيش الضلال بجيش الحق مهزوم ففد العزم إن الفتح محتوم^(١)

ومن النعوت التي وصف الشعراء بها عقيدة الصليبيين « الإلحاد » يظهر هذا في قول ابن سيد المالقي الذي هدد « أولي الإلحاد » بقوة المسلمين حيث قال : —

ستلقى بلاد الروم منه حتوفها ويغشى أولي الإلحاد من ذكره جهد^(٢)

وعندما هدد ابن حربون الصليبيين استعار نعت « ذوي الإلحاد » ووصفهم به ، حيث قال :

فالآن قل لذوي الإلحاد شأنكم فما لكم دون هذا الأمر ملتحد^(٣)

وقد استعان ابن حربون بالمعنى القرآني عندما وصف الصليبيين بـ « النفاق » وأشار الى تيقظ المسلمين لهم ، وفتكهم بهم ، يقول :

فليس يصعد شيطان النفاق بها إلا تلقاه من خرصانها رصد^(٤)

ولما كان الصليبيون ملحدين — كما يرى الشعراء — فقد وصف ابن حربون أرضهم بـ « أرض الملحدين » وأشار الى ما نالها من بأس المسلمين ، حيث قال :

فكان أرض الملحدين لبأسكم ثكلى تمزق صدرها وصدارها^(٥)

١ — ديوان أبي الربيع : ص ٣٢ .

٢ — المن : ج ٢ ص ١٣٣ .

٣ — المن : ج ٢ ص ٢٥٥ .

٤ — المن : ج ٢ ص ٢٥٦ .

٥ — المن : ج ٢ ص ٢٦٦ .

وقد نعت أبو موسى بن هرون عقيدة الصليبيين بأنها عقيدة « تثلث » . وهو نعت مستوحى من الأقاليم الثلاثة التي تقول بها الديانة النصرانية :

ثارت حفاظٌ للثلث فابتدورا وأيقظوا من سبات الغفلة الهمما^(١)

كما نعت القرشي العامري^(٢) الصليبيين بـ « أهل الوثن » ، حيث قال : —

وكانت رباطا لأهل التقي فعاتت مناطا لأهل الوثن^(٣)

وأحال أن الشاعر قصد بـ « الوثن » تمثال السيدة العذراء .

وقد ردّد الشعراء ذكر « الصليب » في قصائدهم . ولا غرو في ذلك ؛ فهو شعار الحرب التي خاضها العدو ضدّ المسلمين ليستثير الحماسة الدينية للنصارى . ولفرط تشبّث الأعداء بـ « الصليب » ، وفرط تعلقهم به ، فقد نعتهم ابن سيد الاشبيلي بـ « آل الصليب وحزبه » ، وتوعّدهم ، وهدّدهم بالقتل ، حيث قال : —

لا أين يا آل الصليب وحزبه حتى يعمّ القتل كلّ مُصلّب^(٤)

كما نعتهم ابن حزمون بـ « ذوي الصلّبان » ، وصوّر ملاحقة خيول المسلمين لهم في معركة الأرك ، حيث قال : —

أذوي الصلّبان وراءكم خيلُ الملك الخبر النديس^(٥)

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٤ .

٢ — هو ابراهيم بن خلف بن محمد فرقد القرشي العامري ، كان متفتنا في معارفه ، محدّثا حافظا شاعرا ، توفي سنة ٥٧٢ هـ .

انظر الاحاطة : ج ١ ص ٣٦٤ — ٣٦٧ .

٣ — الاحاطة : ج ١ ص ٣٦٦ .

٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٧٠ .

٥ — المعجب : ص ٣٧١ .

فقد نظر ابن حزيون وابن سيد الإشبيلي إلى « الصليب » باعتباره رمزا للديانة النصرانية ، وسمية تميز الصليبيين دون غيرهم ، لذلك فإن أحد أهداف جهاد المسلمين ضد أعدائهم تكسير صلبانهم كما يقول أبو بكر بن المنخل الشلبي :

ضمانَ عليكم أن تُبيحوا حريمَهُ وأن تَكسروا فيها التماثيلَ والصُّلْبَانِ(١)

وغالباً ما كان هذا « الصليب » عزيزاً ، صلباً ، متيناً ، إلا أن ضربات المسلمين أهانتة وكسرتة . فقد أشار عبد المؤمن إلى الصلبان الكثيرة التي كسرها المسلمون في مدينة المهديّة عندما فتحوها سنة ٥٥٥ هـ ، حيث قال :

وَكَسَّرَتِ الصُّلْبَانُ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ وَنَادَى مُنَادَى الْحَقِّ فِي كُلِّ مَرْقَبٍ(٢)

ويذكر عبد الواحد المراكشي أن ابراهيم بن أبي يوسف (٣) قد سلط بأسه على الصليبيين فكسر صلبانهم : صغيرها وكبيرها ، وقتك بعلوجهم ، وقضى عليهم ، حيث قال :

يَذُرُّ الصُّلْبِ صَغِيرُهُ وَكَبِيرُهُ فِيهَا جُذْدًا ، وَالْعُلُوجَ جُثُومًا(٤)

وكما كان « الصليب » رمزا للديانة النصرانية ، فقد كان له عند بعض الشعراء معنى حضاري ، ويظهر ذلك جليا في البيت التالي من قصيدة لشاعر مجهول قالها عند سقوط بلنسية :

بِأبي مدارس كالطلول دوارسٍ نَسَحَتْ نواقيسُ الصليبِ نداءها(٥)

١ - المرّ : ج ٢ ص ١٥٢ .

٢ - المرّ : ج ٢ ص ١٢٤ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .

٣ - سبقت الترجمة له : انظر : ص ٦١ .

٤ - المعجب : ص ٣٨٧ .

٥ - النفع : ج ٤ ص ٤٨٠ .

ب - الجيش الصليبي :

قدّم الشعراء أثناء حديثهم عن بعض جوانب الصراع العسكري بين المسلمين والصليبيين صوراً مقتضبة للجيش الصليبي ، تظهر أنه جيش ضخم كثير العدد . فقد أشار ابن حزمون إلى كثافة الجيش الصليبي الذي اشترك في معركة الأرك ، وصور الهيئة التي خرج عليها . حيث بدا جنده متباهين بكثرتهم ، ومغرورين بقوتهم ، وواثقين من ضخامة جيشهم الذي ضاقت به الأرض . إلا أن المسلمين شدوا عليهم ، وفتكوا بهم . يقول :

جاؤوك تضيّق الأرض بهم عددا لم يُحصَ ولم يُقس
خرجوا بطرا ورتاء الناس ليختلسوا مع مُختلس

* * *

فأناخ الموت كلاكه بظباك على بشر رجس (١)

وقد صور موسى بن هرون ضخامة الجيوش الصليبية التي تقدمت نحو مدينة إشبيلية لاحتلالها ، وأشار إلى العنف الذي أخذ به المعتدون تلك المدينة ، حيث قال :

ويّموا حمصَ في جمع يضيق به ذرُع الفضاء فسوى الوهد والأكما
فالبحر بالمنشآت ارتجّ من دعر والبر بالمرهفات الماع فاكتسا
واستوطنوا الغبر في الوادي وقام لهم جسر من الفلك لا تشكو به السأما

* * *

وقد أحاطت بنا الأعداء فاغرةً أفواهاً تبتغي أرواحنا طُعماً
 عادت سواراً على سور المدينة قد اقتاد عصا*وكم من معصم عُصِمًا(١)
 ويصور التعبير الشعري ضخامة الجيوش الصليبية التي اشتركت في احتلال
 مدينة إشبيلية . فهناك الجموع البرية الضخمة التي ضاق بها ذرع الفضاء ،
 والحشود البحرية الكثيفة التي ارتج لها البحر ذعرا .

وقد صور الشاعر بتعبير موح الإمدادات المتتالية التي كانت تصل إلى العدو
 عن طريق البحر . فقد كان الأعداء دائبين على دعم قوتهم ، وشحن الأسلحة ،
 ونقل الجند ، لا يمسه في ذلك سأم أو تعب .

وندرك من الأبيات القسوة التي أخذ بها أعداء مدينة إشبيلية ، وعنف
 الحصار الذي ضربوه حولها . هذا وقد كان الحصار من الوسائل القاسية التي لجأ
 إليها الصليبيون لرغام المدن الإسلامية على الاستسلام ؛ مثلما فعلوا في مدينة
 إشبيلية (٢) .

وقد صور الشعراء قوة الجند الصليبيين وشجاعتهم ، وخاصة في المواقع التي
 ينتصر فيها المسلمون عليهم . وهم بذلك يستوحون تقليدا عربيا أصيلا في وصف قوة
 الخصم ، وذلك من أجل إبراز شجاعة الجند المسلمين ، وتصوير ضخامة الانتصار
 الذي حققوه . ويظهر هذا في الأبيات التالية للقائد أبي بكر بن عبدالله بن وزير
 الشلبي (٣) . يقول :

ولمَّا تلاقينا جرى الطعن بيننا فمنا ومنهم طائحون عديدُ
 وجال غرازُ الهندِ فينا وفيهمُ فمنا ومنهم قائمٌ وحصيدُ

* الوزن مكسور .

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨١ .

٣ - من أمراء كتابش اشبيلية المشهورين . توفي بعد حضوره معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ . انظر : النفع : ج ٤ ص ٣٨١ ،

المغرب : ج ١ ص ٣٨٢ ، الحلة السراء : ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٥ .

صَبْرْنَا وَلَا كَهْفَ سِوَى الْبَيْضِ وَالْقَنَا كَلَانَا عَلَى حَرِّ الْجَلَادِ جَلِيدُ
وَلَكِنْ شَدَدْنَا شِدَّةً فِتْبَلَدُوا وَمِنْ يَتَبَدَّلُ لَا يَزَالُ يَحِيدُ
فَوَلَوْا لِلْبَيْضِ الرَّقَاقِ بِهَامِهِمْ صَلِيلٌ ، وَلِلسُّمْرِ الطَّوَالِ وَرُودُ (١)

وقد قال الشاعر هذه الأبيات في حرب ظهر فيها على الروم سنة ٥٨٧ هـ (٢) . وقد صور الأعداء جلدتين ، صبورين على منازلة الأقران ، يبدلون وسعهم في سبيل النصر . إلا أنه وجنده شدوا عليهم شدة قوية ، تخاذل الأعداء أمامها ؛ فولوا هارين ، وقد اثختهم سيوف المسلمين ورماحهم .

وقد جرت عادة الشعراء على وصف الجند الصليبيين بالجبن ، والخوف ، والذعر والفرار . ولا تثريب عليهم في ذلك ؛ « فالانتقاص من شجاعة الخصوم من الأمور التي درجت عليها الشعوب في حروبها » (٣) ؛ لما لذلك من آثار نفسية تدعو الى الثقة .

فصورة النعام الجافل صورة قديمة تدل على الجبن والخوف . وقد اتكأ أبو العباس الجراوي على هذه الصورة عندما وصف فرار الجند الصليبيين في إحدى المعارك ، حيث قال :

جَاءُوا أَسْوَدًا لَا تُنْهِنُهُ فَاثْنَأُوا يَحْكُونَ فِي الْحَرْبِ النَّعْمَامَ الْمُجْفَلَا

* * *

خَامُوا وَرَاءَ النَّهْرِ حَتَّى أَنَّهُمْ ظَنُّوهُ مَسْلُولًا عَلَيْهِمْ مُنْصَلَا

١ - الفصح : ج ٤ ص ٣٨١ . وقارن بـرواية المغرب : ج ١ ص ٣٨٢ ، الحلة السبراء : ج ٢ ص ٢٧٣ .

٢ - الحلة السبراء : ج ٢ ص ٢٧٣ .

٣ - شعر الصراع مع الروم : ص ٢٢٤ .

فقد وصف الشاعر إقدام الأعداء وثقتهم بقوتهم ، إلا أنهم ولوا مدعورين
عندما أصلاهم المسلمون بنيران حربهم . وتعبير تهكمي ساخر ، صور الشاعر
الرب الذي دب في قلوب الأعداء . فهم لشدة خوفهم تمثل لهم النهر الذي جنبوا
وراءه سيفاً مسلولا عليهم .

وإذا كانت ظروف الحرب ، بما تولده من مشاعر جامحة ، تدعو الى الاندفاع
والمبالغة في الوصف والقول ، فان نظر أبي العباس الجراوي في شعر أبي الطيب المتنبي
أوحى اليه بذلك حين وصف رعب الأعداء . يقول :

أَلَقْتُ بَمَنْ فِيهَا الْمَاعِقْلَ طَاعَةً ، وَإِنَابَةً ، عَجَباً لَهَا أَنْ تَعْقِلَا(١)

فهذا القول يذكر بقول المتنبي التالي :

الْقَتِّ إِلَيْكَ دِمَاءُ الرُّومِ طَاعَتَهَا فُلُو دَعْوَتَ بِلَا ضَرْبٍ أَجَابَ دَمٌ(٢)

وقد أشار أبو العباس الجراوي كذلك إلى محاولات الصليبيين المتكررة للفرار
من معركة فحوص يلقون ، حيث قال :

وَكَمْ رَامُوا الْفِرَارَ مِنَ الرِّزَايَا وَلَكِنْ أَيْنَ مِنْ أَجْلِ فِرَارُ(٣)

كما أشار ابن مجبر إلى التجاء الصليبيين إلى الكهوف ، واختبائهم فيها من
المسلمين ، حيث قال :

أَوْ فَارَقَ الْمَغْرُورَ مِنْهُمْ كَهْفَهُ يَوْمًا فَكَانَ لَهُ إِلَيْهِ إِيَابٌ(٤)

١ - شاعر الخلافة المرحدية : الملحق : ص ٨ .

٢ - ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٢٦٧ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٧ .

٤ - زاد المسافر : ص ٥٣ .

وقد تحدث الشعراء عن أسلحة العدو حديثا مقتضبا . من ذلك حديث موسى بن هرون عن ضخامة الأسطول الصليبي . وقد وصف ابن حزمون الخيول المدججة بالسلاح التي استخدمها العدو في المعركة التي استشهد فيها أبو الحملات ، قائد الأعنة في بلنسية ، حيث قال :

إذا رأى الاعلاج وكبّرا ثم انبرى يماصغ
رأيتهم كالذجاج منقرا وسط العراء الواسغ
جالث بتلك الفجوج تحت العجاج الأخضر
خيولهم في بروج من الحديد الأخضر

(١).....

ويقدّم التعبير الشعري صورة ساخرة لجند الأعداء ، وقد كرّر عليهم أبو الحملات ، فتناثرت صفوفهم في الخلاء الواسع ، وتبدت خيولهم مكتسية لباسا سابغا من الحديد .

وقد وصف أبو العباس الجراوي حصون العدو وقلاعه التي استولى عليها المسلمون من الصليبيين في معركة الأرك . ويظهر أنها قلاع قديمة ، منيعة شاهقة الارتفاع ، موروثه عن الآباء والاجداد :

وأسلم مما أثلته جدوده نجوم قلاع تزحم الأنجم الزهرا
من النيرات الزهر ضوءاً ورفعةً وإن لم يسموها سِماكا ولا نَسْراً(٢)

وقد استعان أبو بكر بن مجبر بالمعنى القرآني عندما أشار إلى مسلك العدو في بث الجواسيس والعيون في صفوف المسلمين لاستراق السمع منهم ، إلا أن تيقظ

١ - المغرب : ج ٢ ص ٢١٧ .
٢ - شاعر الخلافة الموحدية : الملحق : ص ٧ .

الجند المسلمين يحول بينهم وبين ذلك ، حيث قال :

هل دبّ منهم في حماكم دارجٌ إلا وصبّ عليه منك عقابٌ
أو جاء مسترقاً إليكم مارداً إلا وأحرقه هناك شهابٌ (١)

ومن الوسائل الفعالة التي طالما لجأ إليها العدو للفت من عضد المسلمين
واضعاف قوتهم في الأندلس العمل على الفرقة بينهم ، فهم عندما رأوا تنازع
المسلمين ، وتفرق أهوائهم ، عملوا جاهدين بما أوتوا من قوة على توسيع الشقة ،
وإحياء الأحقاد في نفوسهم ، وذهبوا في ذلك إلى حد لو استطاعوا إحياء الأحقاد
بين الأموات لفعّلوا . وقد أشار الى ذلك موسى بن هرون ، حيث قال :

لَمَّا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَاضْطَرَمَّتْ نَارُ الْبَغَاةِ فَقَامَتِ لِلرَّدَى عِلْمًا
وَنَوَّزَ الْأَمْرَ أَهْلُوهُ وَقَامَ بِهِمْ مِنْ لَمْ يَجِدْ قَدَمًا فِيهِ وَلَا قَدَمًا
ثَارَتْ حَفَائِظُ لِلتَّحْلِيلِ فَابْتَدَرُوا وَأَيَّقُظُوا مِنْ سِنَاتِ الْغَفْلَةِ الْهَمَمًا
وَأَنْشَرُوا مِيتَ الْأَحْقَادِ بَيْنَهُمْ وَلَوْ أَطَاقُوا لَعَمْرِي أَنْشَرُوا الرَّمَمًا (٢)

١ - زاد المسافر : ص ٥٣ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٢ .

ج - تصوير هزائم الصليبيين :

رسم الشعراء صورة دمويّة لهزائم الصليبيين . وهي صورة يرى فيها منظر الفرار ، والقتل ، والأسر ، والسبي ، والتخريب ، والتدمير . ولا غرابة في ذلك ؛ فالصراع بالغ العنف . وأيّ عنف يفوق تعليق رؤوس القتلى بأبواب المدن^(١) :

انعكس عنف الصراع على معاني القصائد ، بحيث أضحي التغني بقوة المسلمين ، والفتك بالأعداء ، وإلحاق الهزائم بهم ، سمة مميّزة لهذا الشعر .

والصورة العامّة لهزائم الصليبيين ، هي صورة جيش يجبن في المعركة ؛ فيؤلي الأذبار ؛ فتلاحقه جيوش المسلمين ، وتفتك به ، وتأسر من نجا من القتل منه .

فالقتلى الذين يكثرون . الحصى صورة قديمة استوحاها أبو العباس الجراوي عندما أشار إلى كثرة قتلى الصليبيين في إحدى المعارك . يقول :

عدّد المصّرّع منهم غدد الحصى هيهات أن يُحصى وأن يُحصلاً
كم أجدل منهم أدلّ بيأسه ما هم أن ينقض حتى جدلاً^(٢)

وصورة القتلى الذين تناثرت أشلاؤهم فوق الهضاب ، فأكلت منها سباع الأرض حتى شبت صورة قديمة أيضا . وقد اتكأ ابن حربون على هذه الصورة عندما تحدّث عن كثرة قتلى الأعداء :

قرّيم سباع الأرض منها فأصبحت كأن رباها للعوافي موائد
كئائب كالحامات خاموا فأصبحوا وهم للسيوف المرهفات حصائد^(٣)

١ - انظر : المنّ : ج ٢ ص ١٩٨ .

٢ - شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٨ .

٣ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٩ .

وكما ارتبطت صورة القتلى قديما بالسبع ، فقد ارتبطت بالطيور القشاعم التي
تطير بالأشلاء . وقد استحوذت هذه الصورة على أبي العباس الجراوي عندما وصف
قتلى الصليبيين في معركة الأرك :

ألوف غدت مأهولة بهم الفلا وأمسّت خلاءً منهم دورهم قفرا
ودارت رحي الهيجا عليهم فأصبحوا هشيما طحيننا في مهب الصبا يدرى
يطير بأشلاء لهم كل قشعيم فما شئت من نسر غدا بطنه قفرا^(١)

وقد قدم أبو الحكم بن رضى البلنسي صورة دموية لقتلى الأعداء في معركة
السيكة . فمن أشلاء ممزقة ، وهامات مفلقة ، إلى جسد مفوود ، وجسم
مشكول :

سائل بغرناطة عنهم ومرسية فعنهم خبر في الناس منقول
يجبك هام وأشلاء ممزقة في كل قاع ومفوود ومشكول^(٢)

ويرتبط حديث الشعراء عن هزائم الروم بوصف التدمير والتخريب الذي يلحق
ديارهم بعد المعارك . فقد صور أبو الربيع الموحد ديار الصليبيين خاوية على
عروشها ، بعد أن دمرها المسلمون ، وهجرها أهلها خوفا منهم :

هذى ديار العدا يباب تعوي بأرجائها الذئاب
أجلى من الخوف ساكنوها فعمها النهب والحراب^(٣)

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ ، شاعر الخلافة الموحدية : الملحق : ص ٧ .

٢ - المن : ج ٢ ص ٤٢٧ .

٣ - ديوان أبي الربيع : ص ٣٥ .

وقد ظلت خيول المسلمين في معركة الأرك تلاحق فلول المهزمين : فجاست
خلال ديارهم ، وعاثت فيها ، ولم تترك مكانا إلا داسته ، ممّا جعل الأعداء يلجأون
إلى الجبال الشاهقة ، يحتمون بها :

جاست جنبات الكفر فلم تترك لهم ما لم تجس
لم يبق بها مشوى رجل إلا وعليه شذى فرس
لحقوا بقرون الشمّ فلا سقيا لطلوهم الدرس^(١)

وقد أشار الشعراء إلى أسرى الصليبيين ، وجلّ ما قالوه عنهم : أنهم سلّموا
أنفسهم إلى المسلمين ، وأنهم من فضلات القتل ، ولم يكن من السهل التغلب
عليهم من قبل :

أنتك أسارى الروم وهي أقلها فمن فضلات القتل يتجع الأسر
وما كان قبل اليوم سهل مرأها ولكن علا الإسلام ما تضع الكفر^(٢)

ومن الصّور التي يعزّ منالها في شعر الجهاد ، صورة السبايا الصليبيّات . وقد
أشار ابن حزمون إلى وقوع بعضهن في أيدي المسلمين في معركة الأرك ، حيث قال :

سهر الموتور وأرقه تذكّر المنصل والمـرس
وبكاء عقائل هاتفة كالورق . ينحن مع الغلس
برزت وكأن ذواتبها أذنب راحة شمس
ترنو كظباء الرمل على وجل لضراغمة شرس
قد كنّ مها أنس فغدت تحت الرايات بلا أنس^(٣)

فالشاعر يصوّر وجد القائد الصليبي على السبايا الصليبيّات اللواتي أسرهن
المسلمون في معركة الأرك . ويظهر أنّهن قد استهوين الشاعر ، لذلك فقد جنح إلى
ألفاظ الغزل عندما وصفهنّ .

١ - المعجب : ص ٣٧٠ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧ .

٣ - المعجب : ص ٣٧١ .

د - القائد الصليبي :

وقد تحدّث الشعراء عن القادة الصليبيين ، وعتوهم بنعوت متفرّقة . والقادة الذين ورد ذكرهم فيما وصل إلينا من شعر الجهاد هم :

« العليج الدميم الأقرع حفيد البرهانس »^(١) . وقد وردت الإشارة إليه في قصيدة أبي الحكم بن رضى البلنسي ، حيث قال :

حالت على ابن عبيد* بعد أقرعه بها فأردتهما رجاجة جول^(٢)

وبهذا اللقب « الأقرع » عرفته الرواية الإسلامية^(٣) . و « الأقرع » هذا من قوّاد الفونسو السّابع . وقد كانت له مواقف مشهورة قتل فيها كثيرا من الخلق . لذلك فإنّ اسمه قد رسخ ولا يعرف أبناؤه وحفدته إلاّ به^(٤) .

الفونش ابن الرّنك^(٥) : وقد قام هذا القائد بسلسلة من الاعتداءات على أراضي الأندلس ، استطاع فيها الاستيلاء غدرا على بعض المدن في الغرب^(٦) . وهو من القادة الصليبيين الذين اشتركوا في معركة الأرك^(٧) .

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٩١ .

* ابن عبيد : هو صهر ابن مردنيش وأحد معاويه . المنّ : ج ٢ ص ١٩٩ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٤٤٧ .

٣ - القرطاس : ص ١٩٦ .

٤ - اغلمنّ : ج ٢ ص ١٩١ تعليق رقم (١) .

٥ - هو الفونسو إيريكيت ملك البرتغال . وتصفه الرواية الإسلامية بصاحب « قلنورية » ، أو « قلنرية » ، أو « قلنبرية » ، أو « قلنبرية » . وتسميه كذلك « ابن الرّيق » أو « ابن الرّيق » أو « ابن الرّنك » . وقلنرية : هي عاصمة البرتغال . انظر : أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٥١ ، الأحاطة : ج ١ ص ٥٣٠ ، المعجب : ص ٣٠٠ و ص ٣٣٣ و ص ٤٠٠ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٩١ ، صفة جزيرة الأندلس : ص ١٠٦ و ص ١١٤ و ص ١٦١ ، الرّوض المظار : مادة قلنرية ، ص ٤٧١ ، مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٤٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٧٨ ، التاريخ الأندلسي : ص ٤٦١ ، الحلة السّواء : ج ٢ ص ٢٠٠ ، المنّ : ج ٢ ص ٥٢ ، ص ٢١٩ و ص ٣٧٢ و ص ٥٢٦ .

٦ - الحلة السّواء : ج ٢ ص ٢١٧ .

٧ - مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٤٥ .

وقد وردت الاشارة الى هذا القائد بكنية « ابن الرّيق » في قصيد لابن المنخل الشّلي ، قالها سنة ٥٥٥ هـ :

أقيموا الى ابن الرّيق بعد صدورها وليس عليكم أن ترى ضمرا قُبَا (١)
كما أشار اليه ابن حربون في قصيدة قالها سنة ٥٦٤ هـ بكنية « ابن الرّيك » :

وكيف رأى ابن الرّيك مركب بغيه إذا اعتاض من دُهم الجياد الأداهما (٢)
ومن القادة الصليبيين الذين ورد ذكرهم فيما وصل إلينا من شعر الجهاد ابن ريمند . فقد ذكره ابن المنخل الشّلي في قصيدة قالها سنة ٥٥٥ هـ :

فقل لابن ريمند تأهب لغزوة يسد عليك جيشها الأفتح السهبا (٣)
ولم يستطع الدّارس أن يتبيّن المقصود بهذه الكنية . فقد يكون المقصود فرأندة الثاني بن الفونسو ريمونديس ، المعروف بـ « الببوج » (٤) . وقد يكون المقصود حاكم أرغون ، رُمند بن بَلَنْقِير الرَّابِع « ريموند برنجير » (٥) .

والذي أوقع الدّارس في هذا الالتباس أنّ كلا هذين القائدين كان حيّا عندما قيلت القصيدة ، وأن كليهما كان يوجّه الضربات إلى البلاد الإسلاميّة (٦) .

١ — المرنّ : ج ٢ ص ١٥٢ .

٢ — المرنّ : ج ٢ ص ٣٨٥ .

٣ — المرنّ : ج ٢ ص ١٥٤ .

٤ — حكم ليون . والببوج لقبه . ومعناه كثير اللعاب ، أو الأحمق . وقد هاجمه جيوش المسلمين في قاعدة السبّاط . توفي سنة ٥٨٤ هـ . انظر : — المعجب : ص ٤٠٠ و ص ٤٥٣ ، المرنّ : ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ٢ ص ٤٦١ .

٥ — وجّه ضربات عنيفة إلى الثغر الأعلى في الأندلس . توفي سنة ٥٥٨ هـ ، انظر : عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٤٩٩ — ٥٠٢ .

٦ — عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٤٩٩ — ٥٠٢ و ج ٢ ص ٤٦١ .

وقد ذكر هذه الكنية كذلك ، أبو العباس الجراوي في قصيدة قالها في غزوة للمنصور^(١) :

جمع ابن ريمند فردٌ جماعه عزمٌ لو اعتمد الرواسي زلزالاً^(٢)

ومن غير الممكن أن يكون المقصود بهذه الكنية هو قرأئده البيوج ؛ لأنه مات سنة ٥٨٤ هـ ، والخليفة المنصور لم يبدأ جهاده في الأندلس إلا بعد سنة ٥٨٦ هـ^(٣) .

وهنا يبقى احتمالان حول المقصود بابن ريموند . الأول : أن يكون المقصود الفونسو الثاني بن رُمند بن بلنقيير الرابع حاكم أرغون^(٤) . والثاني : الفونسو الثامن ملك قشتالة^(٥) . إلا أن مجريات الأحداث آنذاك ترجح أن يكون الفونش الثامن هو المقصود بابن ريمند ، وقد كتاه الشاعر بذلك نسبة إلى جدّه الفونسو ريمونديس . فقد كان الصراع محتتما بين الموحّدين وبين الصليبيين بقيادة هذا الفنش ، ووصل ذروته في معركة الأرك^(٦) . ولا يستبعد الدّارس أن تكون القصيدة التي ورد فيها ذكر ابن ريمند قيلت في معركة الأرك ؛ فمعانيها توحى بذلك^(٧) .

وقد كان الفونسو الثامن من أشدّ ملوك الصليبيين وطأة على المسلمين : فهو الذي قاد معركة الأرك ، وهو الذي قاد معركة العقاب^(٨) . وقد تردّد اسم هذا القائد في شعر الجهاد كثيرا بلقب « الفنش »^(٩) .

١ - شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٨ .

٢ - المرجع السابق : ص ٩ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧ .

٤ - توفي سنة ٥٩٣ هـ . عصر المرابطين والموحّدين : ج ٢ ص ٦٠١ .

٥ - مات والده وهو طفل ، فحكم البلاد تحت الوصاية ؛ لذلك فإنّه يعرف بـ « أذفونش الصغير » . كما يعرف باسم « الفنش »

الفنّش بن شائجه بن الهنّشه ، إنبؤور ، توفي سنة ٦١١ هـ . انظر : الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ ، المن : ج ٢

ص ٣٧١ و ص ٣٩٧ ، عصر المرابطين والموحّدين : ج ٢ ص ٥٨٣ .

٦ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩١ - ١٩٢ .

٧ - انظر القصيدة في : - شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٩ .

٨ - المعجب : ص ٣٩٩ ، الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ .

٩ - انظر : المعجب : - ص ٣٧٢ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ .

ومن القادة الصليبيين الذين ذكرهم الشعراء في قصائدهم « هِرَانْدَةُ بن
 الهُنْشَه » (١) . وقد أنفق هذا القائد شطر كبيراً من حياته في محاربة المسلمين ،
 واستطاع أن يحتلّ عدداً كبيراً من المدن الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية (٢) . وورد
 ذكر هذا القائد في قصيدة لموسى بن هرون في رثاء اشبيلية :

فزعم أذفنش بأنّ الحصر يُهلكها والله يكذب ما روى وما زعماً* (٣)
 والصورة العامّة للقائد الصليبي في شعر الجهاد ، هي صورة قائد غويّ ،
 يجهل أساليب القتال وخططه ، فيقود جنده الى المهالك . وإذا ما جدّ الجدّ ترى
 هذا القائد قد ولّى هاربا ، غير مكترث بشيء إلاّ النجاة بنفسه . وغالبا ما ينجو من
 الموت ، فيعيش باقي حياته ذليلاً ، مهاناً ، تنقطع نفسه حسرات .

وقد ظهرت هذه المعاني واضحة في الأبيات التالية التي تصف هزيمة الفنش
 ملك قشتالة في معركة الأرك :

لقد أوردَ الأذفنشُ شيعته الرّدى وساقهمُ جهلاً إلى البطشة الكبرى
 حكى فعلَ ابليسِ بأصحابه الأولى** تبرأ منهم حينَ أوردهم بدراً
 أطارته شداتٌ تولّى أمامها شريداً ، وأنسته التعاظم والكفرا
 تعودّ بالركضِ الحثيثِ من الرّدى فلو سابق الأرواح*** غادرها حسراً
 وقد أوردته الموت طعنةً ثائرٍ وإن لم يُفارق من شقاوته العمرا
 وما صبرُ من أفنى الزّمانِ حماته وجرّعه من فقيدِ أنصاره صبراً

١ - هو قرانده الثالث ملك قشتالة وليون . توفي سنة ٦٥٠هـ . الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ و ص ٥٥١ ، أعمال الأعلام :
 ج ٣ ص ٣٣٢ .

٢ - التكملة : ج ٢ ص ٩٠٣ ، الإحاطة . ج ١ ص ٥٥١ .

* الوزن مكسور .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٤ .

** هكذا ورد . والصواب « الألى » .

*** الأرواح : جمع الرّيح .

فقد قدّم الشاعر في هذه الأبيات صورة حيّة للقائد الصليبي في معركة الأرك .
وهي صورة فيها من البلاء قدر ما فيها من الشماته والاستهزاء ، الهدف منها الإزراء
بهذا القائد ، والانتقاص من قدره ، وخلق حالة من عدم الثقة به . ولم يغفل الشاعر
تصوير الآلام النفسية التي يعاني منها هذا القائد ، فهو يتجرّع كؤوس الألم والحزن
على فقد أنصاره .

ويعن الشاعر في تهكمه وسخريته من هذا القائد ، حين يصفه بالغرور
والغدر والغيّ ، وينصحه باعتزال الحكم ، لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد إلى نجاته ،
والحفاظ على حياته :

فكيف رأى المعتزّ عقبى اغتراه وكيف رأى الغدارُ في غيّه العَدْرَا
إذا نزعته الرّومُ كانت نجاته وقد أحرقت جمر المنايا به غَدْرَا(١)

وإذا كان الشاعر في الأبيات السابقة قد أزرى بالقائد الصليبي وحطّ من
قدره ، فإنّه في الأبيات التالية يصوّر خطورته على بلاد الاسلام قبل هذه المعركة :

تَضَحَّضَحَ في وقتٍ من الدهرِ بحره وقد ضاقت الآفاق من فيضهِ دَهْرَا
وكان يرى أقطارَ أندلس له متى يرم لم يخطيء بأْسْهِمِهِ قَطْرَا(٢)

والقائد الصليبي — غالباً — قائد غير مجرب ، كثير الأخطاء . فقد أزرى
أبو العباس الجراوى ببن ريمند بعد أن هزمته جيوش المسلمين بقيادة الخليفة
المنصور ، ووصفه بكثرة الهفوات التي كانت سبباً في هزيمة وتدمير بلاده :

١ — هكذا ورد الشطر الثاني ، وبهذا لا يستقيم المعنى ، ويظهر أنّ فيه تصحيحاً ويبدو أنّ الصواب هو « وقد أهدت حُمُرُ المنايا به
غَدْرَا » و « غدرا » جمع غدير .

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨ ، شاعر الخلافة الموحّدة : الملحق : ص ٧ — ٨ .

جمع ابنُ ريمند فكفَّ جماحه عزم لو اعتمد الرّواصي زلزلا
طاحت به هفواته والماء لا بدّ له من أن يفيض إذا غلا
ردّت معالمه الخطوبُ مجاهلاً وصفاءه كدراً وجدّته بلا^(١)

واستشارة لمشاعر المسلمين ، فقد وصف الشعراء القادة الصليبيين بالظلم
والطغيان ، وصوروا إصرامهم على احتلال الأندلس :

محا محاسنها طاغ أتيح لها ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا^(٢)

١ - شاعر الخلافة الموحّدة : الملحق : ص ٨ .

٢ - النّصح : ج ٤ ص ٤٥٨ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠٣ .

هـ - الصراع الحضاري :

جاء المقاتل الصليبي إلى بلاد الاسلام ، وهو يحمل عداوة أصيلة لكل ما أنتجته الحضارة الاسلامية في الأندلس . فعندما دخل الصليبيون بلنسية عاثوا فيها فسادا ، وحولوا مساجدها كنائس ، ونالها أنواع كثيرة من الاضطهاد ، تعدى الأحياء إلى الأموات في قبورهم ؛ فنبِشَتْ (١) .

وبعد استسلام مرسية صلحا لجَايْمِش بن بَطْرَه ملك أرغون سنة ٦٦٤ هـ (٢) ، دخلها بجيشه ، فتركها أهلها ، وخرجوا بأمان الى الرِّشَاقَة (٣) ، فسكنوا بها مدة من عشرة أعوام ، إلى أن كان من أمرهم ما كان حين أخرجوهم في سنة ثلاث وسبعين ، وغدروهم في الطريق أجمعين ... فسبوا النساء والأطفال ، وقتلوا جميع الرجال . وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح (٤) .

وبعد وقعة العقاب ، « فصل الأذفنش — لعنه الله — عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدي أصحابه أموالا وأمتعة من متاع المسلمين ، فقصد مدينتي بِيَّاسَة وأبْدَه (٥) ؛ فأما بِيَّاسَة فوجدوها أو أكثرها خالية ، فحرق أدورها ، وخرّب مسجدها الأعظم . ونزل على أبْدَه ، وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة ، وأهل بياسة ، وأهل البلد نفسه ؛ فاقام فيها ثلاثة عشر يوما ، ثم دخلها عنوة ، وسبى وغنم ؛ وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان (٦) بأعداد كبيرة ؛ فكانت هذه أشد من الهزيمة على المسلمين .

١ — التكملة : ج ٢ ص ٤٧٩ .

٢ — الحلة السبّاء : ج ١ ص ٦٣ ، ج ٢ ص ٣١٦ . وقارن بما ورد في البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٣٨ ، التكملة : ج ٢ ص ٦٥٢ .

٣ — الرشاقة : من متفرجات مرسية المشهورة . المغرب : ج ٢ ص ٢٤٦ .

٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٣٨ .

٥ — أبْدَه : مدينة صغيرة في الأندلس على مقربة من الوادي الكبير . بِيَّاسَة : — بينها وبين جيان عشرون ميلا . وهي على كدبة من التراب مطلة على النهر الكبير . الروض المطار : مادة أبْدَه ، ص ٦ ، ومادة بياسة ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

٦ — المعجب : ص ٤٠٢ — ٤٠٣ . وانظر : الروض المطار : مادة أبْدَه ، ص ٦ .

أما أهل إشبيلية ، فقد نالهم من أذى الصليبيين شيء كثير . فقد جرّعوهم « كأس الحمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام ، فكلّ منهم في بحر المنايا غاصّ وعام ، ممّن حلّ بهم من الأوجال والآلام ... فسلموا لهم المدينة ، وخرج منها الخاص من أهلها والعام »^(١) .

هذه بعض أعمال الصليبيين في المدن الإسلامية التي كانوا يحتلونها ، وهي أعمال تصوّر مدى الحقد الذي ملأ قلوبهم على الإسلام وأهله .

صوّر الشعراء التدمير والتخريب الذي ألحقه الأعداء بالحواضر الإسلامية في الأندلس . وغالبا ما كان ذلك في مواقف الاستنجاد والرثاء ، لعلهم بذلك يثيرون الهمم ، ويحركون العزائم ، ويلهبون المشاعر .

فقد أغار الصليبيون على بلدة سُهَيْل^(٢) وخرّبوها ، ودمروا معالمها ، وعاثوا فيها فسادا ، وشردوا وقتلوا كثيرا من أهلها^(٣) . وقد صوّر ذلك العالم المتفتن أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السُهَيْلي الأعمى في مقطوعة قالها :

يا دارُ أينَ البيضُ والآرامُ أمَ أينَ جيرانَ عليّ كرامُ
 رابَ* المحبّ من المنازل أنهُ حيّا فلم يرجع إليه سلامُ
 دمعي شهيدي أنني لم أنسهم إنَّ السلوَّ على المحبّ حرامُ**
 لَمَّا أجابني الصدى عنهم ولم يلج المسمع للحبيب كلامُ
 طارحتُ وُزقَ حمَامِها مترنّما بمقالِ صبِّ والدموع سجامُ
 « يا دارُ ما فعلتُ بك الأيَّامُ ضامتك والأيَّامُ لست تُضامُ »^(٤)

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٥ .

٢ - سُهَيْل : من أعمال مالقة . مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٨٢ .

٣ - مخطوط الواوي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٩٠ .

* ورد في الواوي « دار » .

** لم يرد البيت في المغرب :

٤ - مخطوط الواوي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٩٠ ، المغرب : ج ٢ ص ٤٤٨ ، النقع : ج ٣ ص ٤٠٠ .

والمقطوعة تنضح بالمشاعر الحارّة الأصيلية ، وتعبّر عن لحظة عاطفية عميقة ، وتصور حرقه الشاعر ووجده على بلدته التي هاجمها الصليبيون ، ودمّروا معالمها ، حتّى أنّها بدت نحواء قواء لا حياة فيها .

وعندما سقطت بلنسية في أيدي الصليبيين جعلوها دكّاء ؛ فقد دمّروا معالم الحضارة الإسلاميّة فيها ، وهجّروا أهلها ، وقتلوا كثيرا منهم^(١) . أهب ذلك عواطف الشعراء فظفّقوا يرثون هذه المدينة ، ويكون ما حلّ بها . ومن هؤلاء أبو المطرف بن عميرة الذي قال :

قَلْ كَيْفَ تَثَبُّ بَعْدَ تَمْرِيْقِ الْعِدَا آثَارَهُ ، أَمْ كَيْفَ يَدْرِكُ ثَارُهُ ؟!
 مَا كَانَ ذَاكَ الْمَصْرُ إِلَّا جَنَّةً لِلْحَسَنِ تَجْرِي تَحْتَهُ أَنْهَارُهُ
 قَدْ كَانَ يَشْرُقُ بِالْهَدَايَةِ لَيْلَهُ وَالْآنَ أَظْلَمَ بِالضَّلَالِ نَهَارُهُ
 وَدَجَا بِهِ لَيْلُ الْخَطُوبِ فَصَبَحَهُ* أَعْيَا عَلَى أَبْصَارِنَا إِسْفَارُهُ^(٢)

ويستشفّ من هذه الأبيات ، التي بدا فيها الشّاعر يائسا من إصلاح حال المسلمين في الأندلس ، مدى التخريب الذي ألحقه الصليبيّون بمدينة بلنسية الإسلاميّة : فقد مرّقوا آثارها ، وبدّلوا معالمها ، وعفّوا ربوعها ، بعدما كانت جنة آمنة وادعة ، ومرتعا للحسن والجمال .

وقد بعث شاعر مجهول إلى أمير إفريقية أبي زكريا الحفصي^(٣) قصيدة يحثّه على القدوم إلى الأندلس لإنقاذها من خطر الصليبيين . وقد قدّم الشاعر في قصيدته صورا لبعض مظاهر الصراع الحضاري بين المسلمين والصليبيين ، حيث قال : —

١ — انظر : التكملة : ج ٢ ص ٤٧٨ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ٢ ص ٤٥٠ .

ورد في تحفة القادِم ، وأعمال الأعلام ، وصفة جزيرة الأندلس « بصبحه » .

٢ — صفة جزيرة الأندلس : ص ٥١ ، الرّوض المطار : مادة بلنسية ، ص ٩٩ — ١٠٠ ، أعمال الأعلام : ج ٣ ص ٢٣٧ — ٢٧٤ ، رسائل أبي المطرف : ورقة ١٤٠ ، تحفة القادِم ، نشر في مجلّة المشرق ، بيروت ، مجلّد ٤١ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٧٦ — ٥٧٧ .

٣ — هو أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص . أول أمراء الحفصيين . انظر : — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٧٥ ، الفارسيّة في مبادئ الدولة الحفصية : ص ١٠٧ — ١٠٩ .

بأبي مدارس كالطول دوارسُ
ومصانع كسَف الضلالُ صباحها
راحت به الورقاءُ تسمع شدوها
نسخت نواقيسُ الصليبِ نداءها
فيخاله الرائيُ إليه مساءها
وغدت ترجعُ نوحها وبكاءها^(١)

فقد رأى الشاعر في احتلال الصليبيين لمدينة بلنسية ثلثة للحضارة الإسلامية في الأندلس ، وصوّر جزعه وتضايقه من إعلان شعائر الفرنجة في تلك المدينة ، وتحدّث عن سعيهم الدائب إلى تغيير معالم الحضارة الإسلامية فيها : فقد دمّروا المصانع ، وخرّبوا المدارس ، وأخفّوا معالمها .

وقد كان ابن الأثير من أكثر الشعراء المسلمين بلاغة في التعبير عمّا عانته مدينة بلنسية من كيد الصليبيين ، حيث قال :

وصيرتها العوادي العائثُ بها
فمن دساكرَ كائتُ دونها حرساً
يا للمساجدِ عادت للعدا بيّعا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها
وأربعا نُمّنتُ أيدي الربيع لها
كانت حدائق للأحداقِ مونقةً
وحال ما حولها من منظر عجبٍ
سرعان ما عاثَ جيشُ الكفر واحرباً
وابتزرُ برّتها لما تحيفها
ورجّ أرجاءها لما أحاطَ بها
يستوحشُ الطرفُ منها ضعفَ ما أنسا
ومن كنائسَ كانت قبلها كُنسا
وللنداء غدا أثناءها جرساً
مدارساً للمثاني أصبحت دُرساً
ما شئتُ من حلال موشية وكسا
فصوّخَ النضرُ من أدواجها دعسا
يستجلسُ الركبُ أو يستركبُ الجلسا
عيثُ الدّبا في مغانيها التي كَبسا
تحيفُ الأسدِ الضاري لما افترسا
فغادرَ الشمّ من أعلامها خُنسا^(٢)

١ - النّفع : ج ٤ ص ٤٨٠ .

٢ - النّفع : ج ٤ ص ٤٥٧ - ٤٥٨ ، ولان برواية ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠٢ - ٦٠٣ .

فالشاعر يقارن بين حالي بلنسية قبل الاحتلال وبعده . وتدرك من هذه المقارنة مدى التخريب الذي ألحقه الصليبيون بتلك المدينة . فقد كانت تعجّ بالناس ، عامرة الأسواق ، دائبة الحركة ، جميلة المنظر ، وعندما دخلها الأعداء أضحت خلاء موحشة : فقد رجّوا نواحيها ، وسلبوا حسناتها ، وعاثوا فيها فسادا ، ودمروا معالمها الإسلامية ؛ فحولوا مساجدها بيعا ، وخرّبوا مدارسها التي كانت تعجّ بطلاب العلم . وحتى الجبال لم تسلم منهم ؛ فقد دكّوها . وهذه التصرفات تصوّر مدى الحقد الذي كان يملأ قلوب الصليبيين على الإسلام وحضارته .

وكانت محنة إشبيلية بعد أن احتلّها الصليبيون عظيمة . فقد قتلوا الشيوخ والأطفال ، وسبوا النساء ، ودمّروا المساجد ، وأذاقوا أهلها من ضروب العذاب ألوانا شتى . وقد صور ذلك أبو موسى هرون في قصيدة قالها يرثي تلك المدينة ، حتى قال :

عَفَّتْ يَدُ الشَّرْكَ مَا شَادَ الخَلَايِفُ مِنْ قَصْرٍ وَمِنْ مَصْنَعِ ضَخْمٍ حَكِي إِزْمَا
 مِنْ يُبْصِرُ المَنْزَلَ الأَعْلَى يَقْلُ وَلَهَا مَا مَحُطَّ قَطُّ لَذَا أَسٌّ وَلَا رُسِمَا !
 أَيْنَ القَبَابُ التي كَانَتْ مَحْجَبَةً فِيهَا المَلُوكُ تَفِيضُ الجُودَ وَالكَرَمَا
 تَمْضِي العَزَائِمُ والأَقْدَارُ تَسْعُدُهَا فَلَا تَرُدُّهَا الأَقْدَارُ مُعْتَزَمَا
 فَكَمْ أُسَارَى غَدَتْ فِي القَيْدِ موثِقَةً تَشْكُو مِنْ الذَّلِّ أَقْدَامَا هَا حُطْمَا
 وَكَمْ صَرِيحٍ رَضِيْعٍ ظَلَّ مَخْتَطِفًا عَنْ أُمِّهِ ، فَهُوَ بِالأَمْوَاجِ قَدْ فُطِمَا
 يَدْعُو الوَلِيدُ أَبَاهُ وَهُوَ فِي شُغْلٍ عَنْ الجَوَابِ بِدَمْعٍ سَالٍ وَانْسَجَمَا
 فَكَمْ تَرَى وَهَاهُنَا فِيهِمْ وَوَاهِيَةً لَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ إِنْ حَاوَرْتَهُ الكَلِمَا
 فِي كُلِّ حِينٍ تَرَى صَرَعَى مَجْدَلَةً وَآخِرِينَ أُسَارَى خَطْبِهِمْ عَظْمَا (١)

ويصوّر الشاعر في هذه الأبيات فظائع الصليبيين وأعمالهم التخريبية التي اقترفوها عند دخولهم اشبيلية . فقد أظهر المدينة مرّمة القصور ، مهدومة البنيان ، خاربة المصانع ملاءى بالجنث والأشلاء . أما أهلها فقد أهانهم الصليبيون وأذلّوهم ، وأذاقوهم من ألوان العذاب وصروفه ضروريا شتى ؛ فأنتى رجعت الطرف وجدت صرعى مجذلين ، وأسارى مقيدّين عظم خطبهم ، واشتدت محتهم . وحتى الأطفال لم يسلموا من قسوة المعتدين ؛ فقد قتلوهم . ولا شك أنّ هذه المعاني والمشاهد يرتعش لها الوجدان الانساني ، ولا ينتهي الخيال من استعراضها ، ويقف العقل مشدوها تحت وقعها ، كما تكشفت تلك المشاهد مدى العنف الذي كان يأخذ الصليبيون به المدن الاسلاميّة ، وهو عنف مصدره حقد متأصل في نفوسهم على الاسلام وأهله .

و - حلفاء الصليبيين :

ومما يكتمل صورة الصليبيين في شعر الجهاد حديث الشعراء عن حلفائهم ، والمتعاونين معهم . والحليف الوحيد الذي أشير إليه في شعر الجهاد هو محمد بن مردنيش^(١) .

استطاع محمد هذا أن ييسط نفوذه على سائر قواعد الأندلس الشرقية ، من بلنسية حتى قرطاجنة^(٢) * . وحفاظا على هذه الممالك من نفوذ الموحدين ، مال ابن مردنيش إلى التعاون مع الصليبيين ، ومحالفهم ، وعقد المعاهدات بينه وبينهم^(٣) .

وقد دعا ابن مردنيش إلى جيشه كثيرا من المرتزقة الصليبيين ، وابتنى لهم الأحياء والعسكرات ، وزوّدھا بأسباب الرفاهية والحانات ، واغدى عليهم الصلات الوفيرة من المال والاقطاعات ، وذهب في ذلك إلى حدّ أن أقطع مدينة شنتيمرية الشرق^(٤) إلى أحد أكابر الفرسان الصليبيين ، وقد أنشأ بها هذا الفارس مركزا لأسقفية^(٥) .

١ - والاسم الكامل له : - أبو عبدالله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش (مردنيش) الجذامي ، وقيل التحيبي . إلا أن بعض الباحثين المحدثين شكّوا في نسبه العربية ، وقالوا أنه من المولدين ، وأن مردنيش تحريف للاسم الأسياني Martinez أو Martinizi أو Mardonias وكان الصليبيون يطلقون عليه الملك « لوني » أو « لب » Reylope أو Lobo ، أي : الذئب ؛ لما أثر عنه من شجاعة وإقدام . وقد منحه البابا لقب « صاحب الذكر الحميد » .

وكان ابن مردنيش شغوفا بالتشبه بالقشتاليين ، مؤثرا زيّهم ، كلفا بلسانهم ، مجيدا له ، وقد أشارت الرواية الإسلامية إلى مجون ابن مردنيش وكرمه وشجاعته . انظر : وفيات الأعيان : ج ٧ ص ١٣١ ، الإحاطة ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٧ ، الحلة السراء : ج ٢ ص ٢٣٢ ، المنّ : ج ٢ ص ١١٥ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٣٦٦ .

٢ - عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٣٦٦ .

* قرطاجنة : - من كورة تدمير في الأندلس . معجم البلدان : مادة قرطاجنة .

٣ - الإحاطة : ج ٢ ص ١٢٤ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٢٦٧ .

٤ - هي سهلة بني رزين ، وتوصف بأنها من أكبر معازل كورة شنتيمرية ، تقع على نهر جايو من فروع نهر تاجه . الحلة السراء : ج ٢ ص ١٠٩ .

٥ - الإحاطة : ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٥ ، أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٦٠ .

لم يكتف ابن مردنيش بذلك وإنما تعداه إلى القتال جنباً إلى جنب مع الصليبيين ضدّ المسلمين . فعلى سبيل المثال : فقد وقف إلى جانبهم عندما حاول المسلمون استرداد ثغر الرّية^(١) ، وحاول غير مرّة اقتحام الحصار الإسلامي لإنجاد الصليبيين المحصورين في هذه المدينة^(٢) . وفي سنة ٥٥٤ هـ تحرّك ابن مردنيش بجملة ذميمة من أتباعه وحلفائه نحو مدينة جيان^(٣) واستطاع احتلالها ... ثمّ اتّجه نحو قرطبة فنازلها ، ودمر زروعها ، وعفّى ربوعها ... إلّا أنّ واليها قاتله أشدّ قتال ، وصدّه عنها^(٤) . وفي العام نفسه اتّجه نحو اشبيلية ، وأقام على حصارها ثلاثة أيّام ، ولقيت منه هذه المدينة عظيم الخطب^(٥) .

تركت تصرفات ابن مردنيش هذه أصداء واضحة في شعر الجهاد ضدّ الصليبيين ، حيث كان للشعراء موقف حاسم منه ، فقد حملوا عليه ، وهذّده ، وأزرّوا به ، وهاجموا تصرفاته ، وبصّروه بالعاقبة ، ونعته بصفات مختلفة تثير الحفيظة .

فقد هاجم ابن حربون موقف ابن مردنيش الخارج عن الجماعة الإسلامية ، وشمّت بما آل إليه أمره بعد معركة السبيكة ، وأشار إلى كثرة القتلى من أتباعه حيث قال :

أَلَسْتَ تَرَى فِي النَّاكِثِينَ وَقَائِعاً يَمِينُ الرَّدَى فِيهَا كَمَثَلِ يَسَارِهِ
 حَصَائِدُ سَيْفِ الْحَقِّ صَرَعِي بِشَاهِقِي بِهِ أَمِنَ الْمُعْتَرِّ وَقَعَ حَذَارِهِ
 لَقَدْ عَمِيَتْ مِنْهَا الْبَصَائِرُ شَقْوَةً أَحَلَّتْهُمْ لِلْهَلِكِ دَارَ بَوَارِهِ
 وَلَوْ قَرَعُوا لِلصَّفْحِ أَبْوَابَ تَوْبَةٍ لَهُ لَمْ يَخَوْضُوا لِلرَّدَى فِي عَمَارِهِ^(٦)

- ١ - الرّية : - تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط جنوب شرقي غرناطة . المنّ : ج ٢ ص ١٣٠ .
- ٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٣ .
- ٣ - جيان : - تقع شرقي قرطبة ، وهي كثيرة البساتين . الرّوض المعطار : مادة ١ جيان ، ص ١٨٣ .
- ٤ - المنّ : ج ٢ ص ١١٦ .
- ٥ - المنّ : ج ٢ ص ١١٦ .
- ٦ - المنّ : ج ٢ ص ٢٦٨ .

والأبيات فيها تقريع شديد لابن مردنيش . فقد صوّره الشاعر إنسانا شقيًا ، عميت بصائره ، وأغرته أطماعه بالخروج عن الجماعة الإسلاميّة ومخالفة الصليبيين . وتؤكد الأبيات أنّ مصائر أولئك الخارجين هو الهلاك بسبق الحقّ ، مثلما حدث باتباع ابن مردنيش ، الذين أحلّتهم أطماعهم دار البوار ، ولو أنّهم راجعوا بصائرتهم ، وعدلوا عن الخيانة ، وتابوا ؛ لصفح المسلمون عنهم .

وقد أزرى الاستاذ ابن سيّد بموقف ابن مردنيش المتواطىء مع العدو ، حيث قال :

جَنَّ ابْنُ سَعِيدٍ بِالنِّفَاقِ جُنُونَهُ وَطَعَى إِلَى أَنْ بَاتَ فِيهِ الْأَوْلُقُ*
نُظِمَتْ لَهُ جَرْدَ الْعَتَاقِ تَمَائِمًا لَيْسَتْ عَلَى أَهْلِ الْجُنُونِ تُعَلَّقُ
فَقَضَى حَصِيرًا إِذْ تَيَقَّنَ أَنَّهُ إِمَّا قَتِيلٌ أَوْ أُسِيرٌ مَوْثِقُ
غَرَّ الشَّقِيَّ بِنَايِكُمْ عَنْ أَرْضِيهِ جَهْلًا ، وَظَنَّ بِأَنَّهُ لَا يُلْحَقُ
أَوْ مَا رَأَى شَمْسَ الضُّحَى فِي جَوْهَا وَالْمَغْرِبُ الْأَقْصَى هَا وَالْمَشْرِقُ
وَالِى** الذَّنُوبَ فَأَوْبَقْتَهُ كَثْرَةً إِنَّ الذَّنُوبَ إِذَا تَوَالَتْ تُوبِقُ(١)

وتصوّر الأبيات مدى انحراف ابن مردنيش في خيانة الأمة ، وموالاته الأعداء . لذلك فقد حمل عليه الشاعر ، وأزرى به ، وصوّره إنسانا منافقا ، طاغيا ، شقيًا ، مغترًا ، جاهلا ، كثير الذنوب ، في عقله مسّ من جنون .

وقد أوضح الشاعر موقف الأمة من هذا الخائن الطامع . فقد أعدت له الخيول الجرداء القويّة ، لتفتك به ، وتقضي عليه ، وعندما رآها دبّ الرعب في قلبه ، وتيقن أنّه لا مفرّ منها ؛ فإمّا القتل أو الأسر .

* الألق : الجنون . وقيل : الخفة من النشاط كالجنون . لسان العرب : — مادة ولق .

** ورد في المتن : وإلى .

١ — المتن : ج ٢ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

وقد كان الشعراء المسلمون مدركين مدى خطورة تحالف ابن مردنيش مع النصارى ، فهو يعضد عقيدتهم ، ويخدم دينهم ، ويثبت وجودهم في البلاد الإسلامية . لذلك فقد توعدوه ، وهددوه ، وتنبأوا له بالموت ، إن لم يعدل عن مؤازرة الأعداء. وصوروه رجلا ضالا ، خدعه الصليبيون ، وزينوا له مخالفتهم ، فجلب بذلك النحس والشقاء لنفسه .

وفي هذه المعاني قال ابن المنخل الشلبي :

وأرى الشقي بن الشقي تعرُّه ففة أضلّ ضلالها اسلامها
ليس ابنُ سعد حلفُ سعد إذ غدا حلفُ النصارى عاضدا أحكامها
فلسوفٌ يصبحُ بالفضاءِ مُجدِّلا إن لم تطهرْ نفسه آثامها
ويمدُّ للتوحيدِ كَفَّ ضراعةٍ بعتابِ نفسٍ راحضا أجرامها^(١)

واستشارة لمشاعر المسلمين ، فقد ربط أبو العباس الجراوي مسلك ابن مردنيش وتصرفاته الخيانية بعقيدة الصليبيين ، ووصفه بالسفه والطبش :

لقد ولّى عن الخير اختيارا ووالى اللات والعزى سفاها
وأثر معشرا ضلّوا سبيلا فما عرفوا النبي ولا الإلاه^(٢)

وقد رأى أبو القاسم الرندي^(٣) في شخصية ابن مردنيش ، شخصية إنسان مارق على الإسلام ، خارج عليه ، لذلك تمتى أن يعدل عن موقفه هذا :

أما ابنُ سعدٍ فهو أولُ مارقٍ يا ليتهُ بأبيه سعدٍ يكتني^(٤)

١ - المنّ : ج ٢ ط ٤٦٠ .

* ورد في البيان المغرب : غما .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٢٨٣ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٩٤ .

٣ - هو أبو القاسم أخيل بن ادريس الرندي . أحد الكتاب البلغاء والشعراء المجهدين . توفي سنة ٥٦٠ هـ أو ٥٦١ هـ . انظر :

الرحلة السّوّاء : ج ٢ ص ٢٤١ ، المنّ : ج ٢ ص ٢٤٤ .

٤ - النّفق : ج ٢ ص ٢٠٢ .

وقد صوّر أبو المطرف محمّد^(١) تأصل روح الإجمام في نفس ابن مردنیش ،
وشغفه بسفك الدماء ، وإزهاق الأرواح ، وقتل الأنفس ، ليحقق أهدافه
وأطماعه :

فهذا الذي بيني المساجد أمره وأمر ابن سعد أن تشاد المعاصير^(٢)
وتحدّث الشعراء عن هزائم ابن مردنیش ، وقدموها في إطار يبعث على
السخرية منه ، وعدم الثقة به ، من ذلك الأبيات التالية لشاعر مجهول :

فإن ينجُ اللعينُ لغير منجى لقد فَعَرَتْ شعوبٌ* عليه فَاها
تَكْتَمَ في غمار أو غبارٍ وعينُ الحربِ لم تطحُرْ قَداها
وولّى يقطع البطحاءَ شراً على شوهاءَ ما ونيتُ شواها
ولو فاتتُ وميضَ البرقِ عَدَواً لخطاها ولم يحمِدْ خطاها
وبات يصارع الظلماءَ وهناً ويحسد من كواكبها سُهاها^(٣)

وتصوّر الأبيات هزيمة ابن مردنیش في معركة فحص الجلاب سنة
٥٦٠ هـ^(٤) . فقد أضر في نفسه الهرب ، وكتّم أمره ، وانسحب متستراً ، والمعركة
لم تنزل في شدتها ، وجدّ في الفرار مدعوراً .

وبصورة تهكمية ساخرة صوّر الشاعر الخطرات النفسية لهذا الخائن وقد ولّى
هاربا ، فهو لشدة خوفه غير راض عن سرعة فرسه التي تحمله ، بل أنّه يتمنى أن
يختفي نجم السّها — على ضعف نوره — لئلا يكشف أمره في ظلمة الليل الخالك
الذي تستر به .

١ — لم نَعثر له على ترجمة . وقد ترجم ابن الأثير لوالده . انظر : الحلة السّواء : ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٩ .

٢ — الحلة السّواء : ج ٢ ص ٢٦٩ .

ورد في المتن « شعوب » جمع شَيْبٌ ؛ وبذا يتكسر الوزن ، ولا يستقيم المعنى . ويظهر أنّ الصواب « شعوب » ، أي المنية .

٣ — المتن : ج ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

٤ — الحلة السّواء : ج ٢ ص ٢٦٠ .

وقد أزرى ابن حربون بهذا الخائن بعد هزيمته في معركة السبيكة ، وصوّر
افتضاح أمره في الناس ، وشماتتهم به ، وسخريتهم منه ، حيث قال :

تجلّل منها المردنيشيّ خزية تناغى بها بين البيوت الولائد^(١)

وهكذا كان ابن مردنيش يمثّل فئة الخونة والطامعين ، الذين قادتهم أطماعهم
إلى الخروج عن الجماعة الإسلاميّة ومخالفة الأعداء .

وقد أزرى الشعراء بهذا الطامع ، وكشفوا حقيقته للأمة ، ونبهوا بنوع مختلف
تثير الحفيظة عليه . كما هدّدوه ، وتوعّدوه ، وتنبأوا بمصيره السيّء ، وصوّروا موقف
الأمة منه .

وتحدّث الشعراء عن الآثار الناجمة عن تحالف ابن مردنيش مع الأعداء ،
وبصّروه بالعاقبة ، وأوضحوا له أنّ المسلمين فتحوا باب التوبة أمامه ، إلاّ أنّه ظلّ
سادرا في غيّه وضلاله .

وقد صوّر الشعراء ابن مردنيش في ميدان القتال رجلا خائر العزيمة ، لا يجروء
على الثبات ، وإثما يوليّ الأدبار .

١ - المن : ج ٢ ص ٢٤٩ .

الفصل الرابع

مواكبة الشعر لأحداث الصّراع

مواكبة الشعر لأحداث الصّراع

استأثرت أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين ، على عهد الموحّدين باهتمام بالغ من المؤرخين القدماء . ومبلغ الجهد في هذا الفصل إقامة علاقة بين النصوص الشعرية والأحداث التاريخية المتعلقة بالصراع ، لنرى مدى مواكبة الشعراء لأحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين في الأندلس ، ومدى نجاحهم في تصوير تلك الأحداث ، واحتواء أبعادها .

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى طبيعة الاختلاف بين الشعر والتاريخ في تصوير الحدث ، فوظيفة الشاعر تختلف عن مهمّة المؤرخ : فالشاعر لا يسجّل الأحداث بموضوعيّة ، ولا يتحرّى الدقّة فيها ، في حين أنّ المؤرخ ملزم بطبيعة مهنته بالموضوعيّة ، لذلك فإنّ أي خروج عن ذلك يعتبر مأخذاً عليه^(١) .

والحادثة الأولى التي سجّلها ما وصل إلينا من شعر الجهاد هي فتح مدينة المهديّة في محرّم سنة ٥٥٥ هـ^(٢) . فقد روى صاحب البيان المغرب قصيدة لأبي العباس الجراوي قالها في هذه المناسبة ، وقد استهلها بقوله :

لِمَنِ الخيولُ كأنهنَّ سيولُ غصتَ بهنَّ سباسبٌ هجولُ
طويّت لها الدّنيا فأبعد ما انتحت دانٍ ، وأبطأ سيرها تعجيلُ
يغزو أديم الأرض من سهلانها مثل اسمها حتى تكادَ تزولُ

١ - انظر : صدى الغزو الصليبي : ص ١٣٨ ، Martial Poetry, P. 129 .

٢ - انظر أخبار هذه الغزوة في : تاريخ الكامل : ج ١١ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ ، الحلل الموسية : ص ١٢٨ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨ - ٣٩ ، رحلة التجاني : ص ٣٤٩ ، الاستقصا : ج ٢ ص ١٣٩ .

والآيات توحى بمظاهر القوة العسكرية للدولة الموحدية ، ويستشف منها ضخامة الجيوش الإسلامية التي اشتركت في فتح مدينة المهديّة . والشاعر بذلك يتفق مع ما ذكره المؤرخون عن كثافة الجيوش التي تقدمت نحو تلك المدينة (١) .

وندرِك نتيجة المعركة من هذا الاستهزاء بالصليبيين والسخرية منهم ، ونعتهم بالجهل لأنهم وقفوا أمام قوة المسلمين :

جهلّ النصارى أنّه الملك الذي يرث البلادَ وعذرهم مقبول
أهلّ الجهالة هم فكيف ألومهم وعلمت أن الطبع ليس يحول

ويستوعب الشاعر ما ذكرته الرواية التاريخية (٢) حين يشير إلى استسلام الصليبيين ، وقدمهم إلى عبد المؤمن ، وطلبهم الأمان منه ، واستجابته لهم :—

ودرّت نفوسهم بأنك ظافرٌ فأتت تقدمها له وتوول *
فعفوت عفوّ القادرين تكّرما عنهم ، وعفوّ القادرين جميل

ودخول المسلمين مدينة المهديّة يمكن أن نلمحه من مقارنة الشاعر بين حالها قبل الفتح وحالها بعده ، حيث يلتفت إلى مستلزمات الطقوس المتعلقة بعقيدة الصليبيين ويربطها بشعائر العبادة عند المسلمين :

بالأمس يملأ سمعها ناقوسهم واليوم يملأ سمعها التهليل (٣)

وهكذا سجل أبو العباس الجراوي هذه الحادثة بشعره ، وقد وفق في ذلك إلى حد بعيد ، فما ورد في القصيدة يتفق مع الرواية التاريخية عن فتح هذه المدينة بصورة كبيرة مع اختلاف في طريقة التعبير .

١ — الحلل الموشية : ص ١٢٧ .

٢ — انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٩ ، شذرات الذهب : ج ٤ ص ١٦٩ .

* ورد الشطر الثاني من هذا البيت مكسور الوزن ، ويظهر أن الصواب ما أثبتناه .

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٨ .

وقد نسب الرواة إلى الخليفة عبد المؤمن قصيدة قالها في هذا الفتح ، وما ورد فيها قوله :

وأشْرقتِ الشَّمْسُ المنيرةُ فوقنا وأصبحَ وجهُ الحقِّ غيرَ محجَبِ
وطهَّرَ هذا الصقعَ من كلِّ كافرٍ وعادَ به الإسلامُ بعدَ ثَقَلَبِ
وكَسَّرتِ الصلْبانُ في كلِّ بيعةٍ ونادى منادى الحقِّ في كلِّ مرقبِ

وندرِك من الأبيات السابقة انتصار المسلمين وتفوقهم . وحديث الشاعر عن هذا الانتصار يوحي بإدراكه أهميته ووعيه خطورة نتائجه . وهو حديث يتفق مع ما أورده المؤرخون المعاصرون لأحداث الصراع عن هذا الفتح . فقد ورد في كتاب « المعجب » أن الله محاً بهذا الفتح « الكفر من إفريقية ، وقطع عنها طمع العدو ، فاتتبه بها الدين بعد خموله ، وأضاء كوكب الايمان بعد انطماسه وأفوله ... » (١) .

وأثناء اقامة الخليفة عبد المؤمن في إفريقية التحق به كثير من أبناء القبائل العربية جنودا في جيشه (٢) ، وقد أشار الشاعر إلى ذلك في معرض تهديده الأعداء بهؤلاء العرب :

ويغزو بلادَ الروم جيشٌ عرمرمٌ تُخَيِّرُ من قيسٍ وأبناءِ يَعرُبِ (٣)

والقصيدة بعد ذلك تخلو من اللمسات الوصفية لأحداث الفتح وكيفيته ، ولعل هذا يعود إلى أنها جاءت ضمن رسالة نثرية يشر فيها الخليفة السيد أبا حفص بهذا النصر ، كما ان قائلها ليس شاعرا متمرسا في قرض الشعر . ومع ذلك فإن القصيدة أبرزت أهمية هذا الفتح الذي طهرت به افريقية من الكفر بعد أن كاد يضعضع الوجود الإسلامي هناك .

١ - المعجب : ص ٣٠٠ .

٢ - رحلة التجاني : ص ٣٤٤ ، الحلل السندي في الاخبار التونسية : ج ١ ق ٢ ص ٤٧٩ .

٣ - المن : ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .

وقد ذكر صاحب المنّ أن ابن حبوس الفاسي قال قصيدة في هذا الفتح لم يورد منها الا قوله :

شُدَّتْ إِلَيْكَ عَلَى الرِّيحِ سُرُوجٌ أَيْنَ الْفِرَارِ بِأَهْلِكُمْ يَا جَوْجُ (١)

وقد أورد صاحب زاد المسافر بيتين آخرين من القصيدة ، هما :

عَصَفْتُ بِدَعْوَتِكَ الرِّيحَ الْمَوْجُ وَسَطًا بِأَمْرِكَ ذَابِلٌ وَوَشِيحُ
وَتَقَدَّمْتُكَ إِلَى الْعَدُوِّ مَهَابَةً يَشْقَى بِهَا فِي سُدَّةِ مَا جَوْجُ (٢)

ومن المؤسف أنّ الدارس لم يعثر في المصادر التي استقصاها على هذه القصيدة كاملة . ولا يخفى على القارئ أنّ الأبيات السابقة حافلة بإيجاءات الضخامة والفضامة التي لجأ الشاعر من أجل إبرازها إلى التلميح لتاريخ الإسكندر الأكبر ، وياجوج وماجوج (٣).

وقد أشار الأصبم المرواني الى فتح المسلمين مدينة المهديّة في معرض قصيدة قالها عندما عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ (٤) . وقد تحدث الشاعر في هذه القصيدة عن حصانة هذه المدينة وقوتها ، حيث قال :

مَنْعَةً مِنْ ذُرَى سُورٍ تَكْتَنُهَا وَزَاخِرُ مُزْبُدِ الْأَمْوَاجِ مِنْ غَضَبِ
تَغْلَفَتْ فِي خِنَاقِ الْجَوِّ صَاعِدَةً حَتَّى حَسَبْنَا مَدَارَ النَّجْمِ فِي صَبَبِ

والوصف الذي قدمه الشاعر لمنعة مدينة المهديّة يتفق مع ما أورده المؤرخون . فهي من معاقل المغرب المنيعّة ، ذات أسوار عالية تحيط بها ، بالإضافة إلى البحر الذي يكتنفها من ثلاث جهات ، فأكسبها حصانة طبيعية (٥) .

-
- ١ - المن : ج ٢ ص ١٢٢ .
 - ٢ - زاد المسافر : ص ٤٣ - ٤٤ .
 - ٣ - انظر الحديث عن قصة الاسكندر الاكبر وياجوج في وماجوج في آخر سورة الكهف ، وكتاب التسهيل : مجلد (١) ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ .
 - ٤ - النفع : ج ٣ ص ٥٩٢ - ٥٩٣ .
 - ٥ - انظر : - المعجب : ص ٢٩٩ ، الحلال الموشية : ص ١٢٨ - ١٢٩ .

ويتحدث الشاعر عن محاصرة المهديّة ، ويشير إلى طول هذا الحصار الذي
أرهُق الأعداء ، وأرغمهم على الاستسلام :

وحينَ غادرها طولُ الحصار لها كأنّها مركبٌ أشفى على العَطَبِ
ألقت إليك بأيدي الذل طائفةً ومكنتك من المَسْلُوبِ والسلبِ

ويرسم الشاعر صورة معبرة للأعداء الذين منّ الخليفة عبد المؤمن بالعمو
عليهم ، وأعطاهم الأمان على أنفسهم بعد أن سلّموا المدينة للمسلمين : —

سار العلوُجُ وفي أعناقهم مننٌ من عفو مُقتدرٍ للغزو منتدبٍ
مدّوا الأكف للمس النّجم من فرجٍ وشمّروا لوثوبِ البحر من طَرَبِ (١)

وفي شهر ذى القعدة من عام ٥٥٥ هـ عبر عبد المؤمن البحر من سبته *
إلى الأندلس . ونزل في مرفأ جبل طارق ليجتمع بطلبة الموحدين الذين فيها ، وينظر
كيف يكون غزو الصليبيين العابثين في نواحيها .

وقد عبرت مع عبد المؤمن جموع ضخمة من العرب ، وكان يوم العبور « يوما
مذكورا مشهورا ، ظهر فيه فخامة الملك والأمر ما لم يتقدم في سالف الأزمان » (٢) .

لبث عبد المؤمن في جبل طارق الذي أطلق عليه — لتوّ — « جبل الفتح »
زهاء شهرين (٣) . وكان خلال ذلك يدرس شؤون الأندلس ، ويبدل لختلف الوفود
وعوده بحمايتها ، ومجاهدة أعدائها ؛ وفعلا فقد كون في مكان اقامته جيشا مشتركا
من الأندلسيين والموحدين (٤) .

١ — المن : ج ٢ ص ١٤٧ .

* سبته : من العدة المغربية ، تقع على شاطئ المتوسط . معجم البلدان : مادة سبته .

٢ — المن : ج ٢ ص ١٤٧ .

٣ — عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٣٨٥ .

٤ — انظر حركة عبد المؤمن هذه : البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ ، اللؤلؤ الموشية : ص ١٢٩ — ١٣٠ ، المن : ج ٢ ص

١٤٧ — ١٥٠ .

كان عبور عبد المؤمن هذا يوماً مشهوراً من أيام الشعر ، حيث استدعى الخليفة عدداً كبيراً من الشعراء ، وكان من بينهم جماعة من أقطاب الشعر في المغرب والأندلس .

وقد ذكر صاحب المعجب أنّ ابن حبوس الفاسي قال في هذه المناسبة قصيدة لم يورد منها إلا قوله :

بَلَغَ الزَّمَانُ بِهَدْيِكُمْ مَا أَمَلَا وَتَعَلَّمَتْ أَيَّامُهُ أَنْ تَعْدِلَا
وَبِحَسْبِهِ أَنْ كَانَ شَيْئاً قَابِلَا وَجَدَ الْهَدَايَةَ صُورَةَ فَتَشْكَلَا (١)

ومن المؤسف أنّ الدارس لم يصل إلى القصيدة كاملة . ولا يُرى في البيتين السابقين آية إشارة تاريخية إلى حركة عبد المؤمن ، وهما في مجموعهما إشادة بهذا الخليفة ، وهي إشادة مستوحاة من تعاليم الموحّدين في الإمامة .

وقد روى صاحب المنّ قصيدة قالها أبو بكر بن المنخل الشلبي في هذه المناسبة ، ومما ورد فيها قوله :

فَتَحْتُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ فَاعْتَمَدُوا الْعَرَبَا فَإِنَّ نَسِيمَ النَّصْرِ* بِالْفَتْحِ قَدْ هَبَا
أَصْرْتُمْ إِلَيْهِ الْخَيْلَ وَهِيَ أَجَادَلْ فَسَالَتْ بِكُمْ بِحْرًا وَطَارَتْ بِكُمْ رَكْبًا**
وَدُسْتُمْ بِهَا هَامَاتٍ كُلِّ مُضَلِّلٍ وَلَمْ تَتْرَكُوا عَجْمًا هُنَاكَ وَلَا عَرَبَا
رَمَيْتُمْ بِهَا مِثْلَ السَّهَامِ فَأَصْبَحَتْ كَاتِمِهِمْ صَرَعَى وَأَمْوَالَهُمْ نَهَبَا

١ - المعجب : ص ٢٨٣ .

* ورد في البيان المغرب « الفتح » .

** ورد في البيان المغرب « وطالت بكم شعا » . هذا ولم يورد ابن عذارى إلا البيتين الأولين . انظر : البيان المغرب : ج ٣

ص ٤٥ .

وتتضمّن الأبيات حديثاً مجملاً عن حروب الموحدين في إفريقية ، وضخامة جيوشهم التي اعتمدوا عليها . وهي توحى بشعور التفوق في تلك الحروب ، وبالغنف الذي أخذ به الموحّدون الأعداء ، كما تحمل احساس الشاعر بقوة الدولة الموحّدية وعنفوانها وهي في أوّل عهدها بعد . ولعلّه من المفيد الإشارة إلى أنّ المصادر الإسلامية قد تحدّثت عن العديد من معارك الموحّدين في إفريقية^(١) .

وقد كان ابن الرّنك من أكثر القادة الصليبيين وطأة على المسلمين في الفترة التي عبر فيها الخليفة عبد المؤمن الى الأندلس^(٢) . ويبدو أنّ الشّاعر كان مدركاً هذا الأمر ، لذلك فقد حثّ الخليفة عبد المؤمن على التوجه لمحاربة هذا العدو ، وردّ كيده :

أقيموا إلى ابن الرّيق بعدُ صدورَها وليس عليكم أن تُرى ضمراً قَباً
ضماناً عليكم أن تبيحوا حريمه وأن تكسروا فيها التماثيل والصُّلباً^(٣)

والقصيدة بعد هذا قصيدة حماسية لا يستشفّ منها ملامح حدث معيّن ، بل أنّها حلت من الإشارة إلى عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس .

وقد أنشد أبو العباس بن سيّد الإشبيلي ، المعروف بـ « اللص » قصيدة طويلة ، مطلعها :

عَمَّضْ عن الشَّمْسِ واستقصِرْ مدى زُحُلِ وانظُرْ إلى الجبلِ الرّاسي على جَبَلِ*^(٤)

١ — انظر : — الكامل : ج ١١ ص ٢٤١ — ٢٤٧ ، اخبار المهدي : ص ١١٥ ، الحلل السندسية في الاخبار التونسية : ج ١ ق ٢ ص ٣٥٦ و ص ٤٧٧ — ٧٩ ، رحلة التجاني : ص ٣٤٤ .
٢ — انظر : الحلة السّواء : ج ١ ص ٢٧٢ ، مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٤٥ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٥١ — ١٥٥ .
* ورد في رايات المبرزين « الجبل » .
٤ — لم يرد في الرّايات إلا البيت الأوّل ، وفي المعجب البتّان الأوّلان ، وورد في زاد المسافر ثلاثة أبيات على غير ترتيب . انظر : الرّايات : ص ٤٨ ، المعجب ، ص ٢٨٦ ، زاد المسافر : ص ٩٤ .

ويلمح من البيت نزول الخليفة عبد المؤمن في جبل طارق وإقامته فيه . هذا ولم يستسغ الخليفة عبد المؤمن هذا المطلع ، فقد قال الشاعر عندما سمعه : « ثقلتنا يا رجل »^(١) ؛ وأمره بالجلوس .

والإشارة الصريحة الى عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس كانت في البيت التالي :

لتهن أندلسا أن زارها ملكٌ أحى وأنشَرَ فيها ميثَ الأملِ

وتتضمّن القصيدة إشارات إلى فتوح الموحّدين في إفريقية :

سَمَا إلى الشرق يجتأبُ اليابَ به عتقُ المهارةِ والمهريّةِ الدّللِ

وفي القصيدة استعراض للجيوش التي احتشدت في جبل طارق غداة عبور الخليفة عبد المؤمن :

وجَحْفيلِ لَجِبِ سُدِّ الفجأجِ به وأعثرَ الطيرُ منه في ذرى الأسلِ

تعُدو عليه ذكاءٌ وهي قد نهبتُ فتستجدُّ أناةً مِنْ سَنَى المُقلِ

مصاحِبِا مثله في اليمِّ متّصلاً منه بحزمٍ وعزمٍ غير مُنفصِلِ

من كلّ عائمةٍ في شكلِ طائرةٍ تشاكلُ الأمرُ فيها كلّ مشتكلِ

ونستشفّ من الأبيات ضخامة تلك الجيوش وكثرة عددها . فهناك الجموع البرية الكثيفة ، وترافقها قطاعات بحرية تماثلها في الكثرة .

١ - المعجب : ص ٢٨٦ ، انظر المن : ج ٢ ص ١٥٩ .

وندرك من القصيدة تمكّن سلطان الموحدين في إفريقية وتوطن أركان دولتهم :

حتى إذا استوسق الأمر العليّ له بالشرق كّر لنصر الغرب في عَجَلٍ (١)
وقد روى صاحب المنّ قصيدة طويلة قالها الأصمّ المرواني عندما عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس ، استهلها بقوله :

ما للعدا جنة أوقى من الهرب* أين المّر وخيل الله في الطلبِ (٢) ؟
ويذكر المؤرّخون أنّ أبناء القبائل العربيّة كانوا يشكّلون فئة كبيرة من الحشود التي جازت مع الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس (٣) . وقد أشار الشاعر الى ضخامة تلك الحشود قائلاً :

حدّث عن الرّوم في أقطار أندلس والبحرُ قد ملأ العبرين بالعرب
من كلّ من يترك الهيجاء في حلك جمر إذا اخضرت الغبراء بالعُشبِ

ويتحدّث الشاعر عن نزول الخليفة عبد المؤمن في جبل طارق ، ويقرن ذلك بنزول سيدنا موسى عليه السلام في جبل الطّور :

وطود طارق قد حلّ الإمام به كالطّور كان لموسى أيمّن الرّتب !
لو يعرف الطّود ما غشّاه من كرم لم ييسط الغور فيه الكفّ للمسحِبِ
ولو يتيقن بأسا حلّ ذروته لعاد كالعهن من خوف ومن رهب

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٥٦ - ١٥٩ .

* لم يستحسن عبد المؤمن أن يهرب الأعداء منه . فقال إلى أين ، إلى أين ؟ فأكمل الشاعر بيته . انظر المعجب : ص ٢٨٥ .

٢ - اكفى عبد الواحد المراكشي بالأبيات الثلاثة الأولى من القصيدة ، واكتفى ابن عذارى بالبيتين الأولين . وأورد صاحب النفع عدّة أبيات منها على غير ترتيب . انظر : - المعجب : ص ٢٨٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٥ ، النفع : ج ٣ ص ٥٩٢ - ٥٩٣ .

٣ - المنّ : ج ٢ ص ١٩٤ ، المعجب : ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

وحين يتحدّث الشاعر عن فتوح الموحّدين في إفريقية يشير إلى فتك الموحّدين
بقبيله رياح ، وقتلهم زعيمها محرز بن زياد الفارغي^(١) الذي رفض الإذعان لهم :

صَدْرَتْ بِالْعَرَبِ الْعَرَبَاءُ وَانْقَلَبَتْ عَنِ الْحَسَامِ (رِيَّاحٌ) شَرٌّ مَنقَلِبِ
فَكَانَ سَيْفِكَ نَقَاداً لَهُ بَصْرٌ نَفَى الزِّيُوفَ وَأَبْقَى خَالِصَ الذَّهَبِ
وَرَدُّ رَأْسِ زِيَادٍ مَالَهُ جَسَدٌ مِنْ مَارِنٍ بِالدَّمِ الْمَوَارِ مُخْتَضِبِ

ويظهر أنّ الأصمّ المرواني كان يستشعر الخطر الذي يهدّد المسلمين في
الأندلس ، لذلك فإنّ في القصيدة إرهابات بتردّي الأوضاع فيها ، فقد « أصبحت
مسوّدّة الطّنب » :

إِنَّ الْجَزِيرَةَ مَنْ طُولَ انْتِظَارِكُمْ هَا بِكُلِّ طَرِيقٍ لِحَظٍّ مُرْتَقِبِ
صَافِعٌ بَتَلْكَ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ قَبْتَهَا فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ مَسْوَدَّةَ الطَّنْبِ^(٢)

ومن الشعراء الذين أنشدوا عبد المؤمن في جبل الفتح الشيخ أبو الحسين
عبدالله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي ، حيث قال قصيدة مطلعها :

تَلَأَلَا مِنْ نَوْرِ الْخِلَافَةِ بَارِقٌ أَضَاءَتْ بِهِ الْآفَاقُ وَاللَّيْلُ غَاسِقٌ*

وقد أشار الشاعر إلى قدوم الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس ونزوله في جبل
طارق :

وَهَبْ بِرِيَّاهِ النِّسِيمِ فَخَلَّتْهُ يُخْبِرُنَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَاجِقُ
إِلَى جَبَلٍ قَدْ كَانَ لِلْفَتْحِ مَنزَلًا وَلَاذًا بِهِ بِالْفَتْحِ مُوسَى وَطَارِقُ

١ - انظر : تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٤ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦٤ .

* أورد ابن عذاري أربعة أبيات من القصيدة . البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

ويذكر المؤرخون أنّ وفودا كثيرة قدمت إلى المغرب تدعو عبد المؤمن إلى الأندلس وتستنصرو للجهاد فيها^(١) ، وقد أشار الشاعر إلى ذلك قائلا :

وكرّ إلى نصر الجزيرة بعدما أتاه مع الركبان ناع وناعق

وندرک من القصيدة أنّ الجيش الذي عبر مع الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس جيش ضخم تضيق عنه الأرض :

بجيش تضيق الأرض عنه بطوها وترهبه لو عاينته العمالق^(٢)

وقد أنشد أبو عبدالله محمد بن غالب المعروف بالرّصافي البلسني — وهو لم يبلغ العشرين بعد — قصيدة بين يدي عبد المؤمن استهلها بقوله : —

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

والفكرة العامّة في هذه القصيدة هي الاشارة بالخليفة عبد المؤمن الذي ورث الهداية والنور عن المهدي ابن تومرت . ويتخلّل ذلك إشارة إلى نزوله في جبل طارق :

يا دار ، دار أمير المؤمنين بسفح الطود ، طود الهدى ، بوركّت في الدور

ويصف الشاعر السفن التي أقلت الخليفة عبد المؤمن وحشوده ، ويحدّد الطرق التي سلكتها حتى وصل جبل الفتح :

تسنّم الفلك من شطّ المجاز وقد نودين : يا خير أفلاك العلاء سيّري

فسيرنّ يجملنّ أمر الله من ملك بالله مستنصر ، في الله منصور

١ — انظر : الرقبة العليا : ص ١٠٦ ، النفع : ج ٢ ص ٣٠ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٢٦٧ ، المعجب :

ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

٢ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٨ .

لَمَّا تَسَابَقْنَ فِي بَحْرِ الرَّزَاقِ بِهِ تَرَكْنَ شَطِيهَ فِي شَكِّ وَتَحْيِيرِ
ذُو الْمُنَشَّاتِ الْجَوَارِي فِي أَجْرَتِهَا شَكْلَ الْغَدَائِرِ فِي سَدَلٍ وَتَضْفِيرِ
حَتَّى رَمَتْ جَبَلَ الْفَتْحِينَ* مِنْ كَثْبِ بَسَاطِعٍ مِنْ سِنَاهُ غَيْرِ مَبْهُورٍ^(١)

وإذ يشير الشاعر في هذه الأبيات إلى عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس ونزوله في جبل الفتح ، كذلك فإتينا ندرك منها قوّة الأسطول الموحدى وكثرة قطاعاته . فقد أشارت المصادر إلى القوّة البحريّة الهائلة التي كان ينعم بها المغرب والأندلس في عصر الموحّدين . كما أشارت إلى مصانع السفن التي كانت منتشرة في أرجاء الدّولة^(٢) .

وورد في كتاب المغرب أن أبا جعفر بن سعيد أنشد الخليفة عبد المؤمن وهو بقصره في جبل الفتح قصيدة استهلّها بقوله :

تَكَلَّمْتُ فَقَدْ أَصْفَى إِلَى قَوْلِكَ الدَّهْرُ وَمَا لِسَوَاكِ الْآنَ نَهْيٌ وَلَا أَمْرُ

والقصيدة لم يصلنا منها إلا بضعة أبيات ، وهي لا تزيد على أن تكون اشادة بعبد المؤمن وثناء عليه بما هو أهله . وتخلّل ذلك إشارة إلى نزوله في جبل الفتح :

أَلَا إِنَّ قَصْرًا قَدْ بَدَأَ لِي بِأَفْقِهِ مِحْيَاكُ أَهْلًا أَنْ يَخْرُ لَه الْبَدْرُ
أَطَلَّ عَلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ مَرْفَعًا فَخَتَّمَهُ الشَّعْرَى وَتَوَجَّهُ النَّسْرُ^(٣)

* جبل الفتحين : هو جبل الفتح ، ثناه الشاعر وهو مفرد تفاعلًا وتيمنا .

١ - ديوان الرصافي البلنسي : ص ٢٨٧ - ٢٩٠ .

٢ - المرّ : ج ٢ ص ٦٤ .

٣ - انظر أبيات من القصيدة في : - المغرب : ج ٢ ص ١٦٥ ، الإحاطة : ج ٢ ص ٢١٦ الحلال الموشية : ص ١٦٠ ، مخطوط الحلال السندسية : ورقة ٦١ ، وقد ترجم Dr. Conde القصيدة إلى الأسبانية ، ونقلتها Mrs Jonthan Foster عن الإسبانية إلى الإنجليزية . انظر :

وتذكر المصادر أن الخليفة عبد المؤمن شكّل أثناء إقامته في جبل الفتح جيشاً مشتركاً من الأندلسيين والموحدين^(١) . وقد توجّه هذا الجيش نحو « فحص بلقون » ، فوجد النصّاري قد استعدّوا للقاء المسلمين ، فاشتبك الفريقان ، وكان بينهما « حرب شديد نصر الله فيه المسلمين على أعدائهم الكافرين ، وكانت هزيمة لم يعهد مثلها »^(٢) .

وقد قال أبو العباس الجراوي قصيدة في هذه الموقعة ، مما جاء فيها :

أعليتَ دينَ الواحدِ القهارِ بالمشرقية والقنا الحطّارِ
ورأى بك الإسلامُ قرّةَ عينه وغدت بك الغراء دارَ قرارِ
وسلّكتَ من طرق الهداية لاجباً طوبى لمن يمشي على الآثارِ

والأبيات توحى بتفوق المسلمين على أعدائهم في هذه المعركة ، وتحمل إحساس النشوة بهذا الظفر الإسلامي .

ويسخر الشاعر من الأعداء حين يرسم مشهداً حيّاً للحالة النفسية التي اعترتهم بعد هذه المعركة :

وَحَلَلْتُمْ جِبَلَ الْهَدَى فَحَلَلْتُمْ مِنْهُ عَقُودَ عَزَائِمِ الْكُفَّارِ
لَوْ بَدَّلُوا أَقْدَامَهُمْ بِقَوَادِمِ طَارُوا عَنِ الْأُوطَانِ كُلِّ مَطَارِ^(٣)

وما عدا هذه الأبيات التي تشير إلى نتيجة المعركة ، فإننا لا نجد في القصيدة أية إشارة تاريخية تعين على إقامة علاقة بينها وبين الحدث الذي قيلت فيه ، حيث كانت القصيدة معرضاً للإشادة بعبد المؤمن ، وتمجيد الانتصار .

١ - الحلل الموشية : ص ١٢٩ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ - ٤٧ .

وفي سنة ٥٥٧ هـ عبرت جيوش موحدية ضخمة إلى الأندلس للانتقام للهزيمة التي ألحقها ابن همشك^(١) وحلفاؤه الصليبيون بالمسلمين في معركة مرج الرقاد بظاهر غرناطة^(٢).

وفي مساء يوم الخميس ، السابع والعشرين من رجب سنة ٥٥٧ هـ التقى الفريقان في معركة عنيفة في موضع السبيكة^(٣) . أبلى المسلمون في هذه المعركة بلاء حسنا ، وقتلوا جموعا غفيرة من الأعداء ، ولما يأت الصباح حتى انكشفت المعركة عن انهزام ابن همشك وحلفائه ، وقتل معظم قادتهم وفي مقدمتهم « العليج الذميم الأقرع » الذي احتزت رأسه ، ورفعت على باب القنطرة في قرطبة^(٤) .

وقد قال الشواش الشلبي في هذه المعركة قصيدة مطلعها :

عزماث منصور العزائم غالبٍ ضمنت فتوحَ مشارقٍ ومغاربٍ
وهذا المطلع حافل بمعاني القوة التي توحى بشعور التفوق .

والإشارة الصريحة إلى انتصار المسلمين في هذه المعركة كانت فيما يلي :

يا سعد دين الله /أفلحَ حزبهُ وهوت عداؤه في عذابٍ واصيبِ

ويقدم الشاعر صورة للقتال في هذه المعركة في الأبيات التالية :

واستنجدتُ بنجاحهِ ويمنه فقطعنَ عرضَ البيد غيرَ لواغبِ

- ١ - هو إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك ، رومي الأصل ، كان في حملة الطامعين في إقصاء الموحدين عن الأندلس . انظر : الإحاطة : ج ١ ص ٢٩٦ - ٣٠٣ ، المعجب : ص ٢٠٨ .
- ٢ - وقعت سنة ٥٥٧ هـ . انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٥١ ، الحلة السيرة : ج ٢ ص ٢٥٨ .
- ٣ - السبيكة : - بسيط أخضر شاسع يقع جنوب شرقي الحمراء . الإحاطة : ج ١ ص ١١٦ تعليق رقم (٦) .
- ٤ - انظر تفاصيل المعركة في : المن : ج ٢ ص ١٩٨ ، الحلة السيرة : ج ٢ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، الإحاطة : ج ١ ص ٣٠١ ، ج ٢ ص ١٢٧ .

بسوابقي كبوارق ، ومواكب ككواكب ، وجنائب كخبائب*
كأثرن أعداد الحصى وتضاءلت منها فساح أجارع وأخاشب**
طلعت على الأعداء سحبا للردى سالت دما بأباطح ومذانب

ولا نرى في الأبيات وصفا تفصيليا للقتال ، وإنما هي إشارة خاطفة يستشف منها ضخامة الجيوش الإسلامية التي اشتركت في المعركة ، واستخدام المسلمين الخيول والإبل فيها ، وفتكهم بالأعداء .

وتذكر المصادر أن هذه المعركة وقعت ليلة الجمعة ، وقد أشار الشاعر الى ذلك :

يوم العروبة(١) أعربت فتكأثُهُ في الكفرِ عن فتح مبين راتب
ويتحدث الشاعر عن فتوح الموحدين في إفريقية وتغلبهم على أعدائهم هناك :

أمضى إلى الشرق القصي عزيمة نالت قياد أعاجم وأعارب
تبدو بها شمسُ النهار سقيمة تشكو الضنى منها بلونٍ شاحب(٢)

وقد أشار أبو الحكم بن رضى البلنسي إلى هذه المعركة في قصيدة ذكر فيها ما تقدم من الفتوح ، حيث قال :

* الجنائب : جمع حبيبة ، وهي الثاقفة التي تحمل الميرة ، والجنائب : جمع حبيبة ، وهو الخط من السحاب أو الرَّمَل . لسان العرب : مادّنا « جنب » و « خب » .
** الأجارع : — الأرض المستوية ، والأخاشب : — الجبال الغليظة الحشنة . لسان العرب : مادّنا « جرع » و « خشب » .
١ — وهم محقق كتاب المنّ عندما ضبط « العروبة » بضمّ العين « العروبة » ، نسبة إلى العرب ، والصّواب بفتحها ، وهو يوم الجمعة . انظر : لسان العرب : مادّة « عرب » ، المنّ : ج ٢ ص ٤٢٧ .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢١١ .

حالتُ على ابن عبيدٍ بعد أقرعه بها ، فأردتهما رجراجةً جُولُ
ولم تدعُ مردنيشاً عند جولتها يومَ العروبةِ إلّا وهوَ مذهولُ
سائلٌ بغرناطيةٍ عنهُم ومرسيةٍ فعنهُمُ خبرٌ في الناسِ منقولُ
يجبك هامٌ وأشلاءٌ ممزقةٌ في كلِّ قاعٍ ومفؤودٌ ومَشكولُ(١)

وقد احتوت هذه الأبيات بعض المعلومات الضافية عن معركة السبيكة . فقد
ذكرت قادتها ، وهم : ابن همشك والأقرع النصراني ، وتحدثت عن توضع قوى
ابن مردنيش بعد هذه المعركة . وأشارت إلى يوم وقوعها ، وهو : يوم الجمعة ، كما
أشارت إلى كثرة قتلى الأعداء فيها .

وفي أول شهر ربيع الأول من عام ٥٦٠ هـ تحرك السيد الأعلى أبو حفص
من حضرة مراكش بعسكر مختار من أنجاد الموحدين متقدماً به إلى قرطبة وإشبيلية
لحمايتها ودفع النصارى والأشقياء عن معموها(٢) .

رصد الشعراء هذه الحركة ، ومن هؤلاء ابن حربون الذي قال قصيدة
مطلعها :

قد حَصَّحَصَ الحَقُّ لا ريبٌ ولا فندُ هذي الفتوحُ التي كانوا بها وَعَدُوا

ويشير الشاعر إلى قدوم أبي حفص إلى الأندلس ونزوله فيها :

خذوا بحظكمُ يا أهلَ أندلسٍ منها ، فما لغاؤُ بها من بعدها رشُدُ
هذا سليلُ إمامِ الحَقِّ بينكمُ لا المالُ مدخِرٌ عنكم ولا الولدُ

١ - المنّ : ج ٢ ص ٤٢٧ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٦٣ ، المنّ : ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥٣ .

ويحدد الشاعر المكان الذي نزل فيه أبو حفص ، وهو جبل طارق :
انظر إلى مجمع البحرين كيف حوى من الفضائل ما لم يحوه بلد
لاقي الكليم على الشاطي به حَضِرًا وفيه لاقى آخاه السيد السند
وندرك من البيتين أن السيد أبا حفص قد التقى في جبل الفتح بأحد السادة
الموحدين ، وهو — فيما يروي ابن صاحب الصلاة — أبو سعيد عثمان (١). وقد
استوحى الشاعر القصص القرآني عندما قرن لقاء أبي حفص بأخيه في مضيق جبل
طارق بما ذكره بعض المفسرين عن التقاء نبي الله موسى بالخضر عليه السلام في
المكان نفسه (٢) .

ويضفي الشاعر على قصيدته سمة الواقعية في الوصف حين يتحدث عن
التشكيلات البحرية التي أقلت الجند المسلمين وعبرت بهم البحر الى الأندلس :
يا من رأى الفلك فوق الموج طافيةً كما كفأت قباباً وسطها العمُد
ينساب منهنّ في أعلى غواربه أساوّد سكنت أجوافها أسد
وفي القصيدة ذكر صريح لاسم أبي حفص الذي قاد هذه الجيوش :

بَحْرٌ كَانَ أبا حفص بصهوته لقمان والمركب الجارى به لُبْدًا

ويذكر صاحب المنّ أن ابن حربون كان شاهد عيان لحركة أبي حفص (٣)،
لذلك فإننا نظفر بوصف حي لتقدم الجيوش الاسلامية التي رافقته :

ها أنّها كالدّبا تَنساعُ نحوكم فيها الحفاظ وفيها الصبرُ والجلدُ
ترى الكماة التي ما شأنها خورٌ على الجيادِ التي قد زانها الجيدُ
شيبٌ ومردٌ ينادى بالبأس أن ركبوا: أين الغواة الأولى قد طال ما بردوا

١ - المنّ : ج ٢ ص ٢٥٣ ، وأبو سعيد هو أحد أبناء الخليفة عبد المؤمن . المنّ : ج ٢ ص ٢٢٢ .
٢ - انظر : — كتاب التسهيل : مجلد (١) : ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٣ ، قصص الانبياء : ص ٣٠٢ .
٣ - المنّ : ج ٢ ص ٢٥٣ .

ظنّوا بها قد أتتْ تُزجِي مَقَانِبَهَا مثل الرّوَاعِدِ فِيهَا البرقُ والبرْدُ
وللدّوايِلِ فِي أَرْجَائِهَا نَغْمٌ كأنّ كَلَّ سِنَانِ طَائِرٍ غَرْدُ
من كَلَّ أَرْقَ آثَارُ الدّمَاءِ بِهِ كأنه مقلّة قَدْ مَسَّهَا رَمْدُ (١)

والآيات تقدم صورة حية للجيش الإسلامي المتقدمة . فهي كثيرة العدد ،
واسعة الانتشار ، سريعة الحركة ، تضم فرساناً مجريين ، يمتطون صهوات خيول
أصيلة ، ويحملون رماحا سامقة بدت عليها آثار الدماء . وأخال أن الشاعر لم يكن
مبالغا في وصفه ، فقد أشارت الرواية الإسلامية إلى ضخامة الجيوش الإسلامية التي
عبرت مع أبي حفص (٢) .

وهكذا فالقصيدة ذات محور واحد تنشد إليه خيوطها جميعا ، وهو وصف
حركة أبي حفص إلى الأندلس ، وقد أتى الشاعر في هذا الوصف ببعض المعلومات
التاريخية المفيدة .

ويبدو أن عبور أبي حفص الى الأندلس قد استحق من هذا الشاعر أكثر من
قصيدة ؛ فهناك قصيدة أخرى قالها عندما عاد أبو حفص من حركته ، وقد استهلّها
بقوله :

بأيمن طائرٍ كان الإيابُ وأنجحَ مَطْلِبٍ بلغ الطَّالِبُ

وقد اتخذت القصيدة منذ البداية طابع التهنئة بالعودة ، ونظفر خلال ذلك
بإشارات إلى عبور أبي حفص إلى الأندلس على رأس جيش ونزوله فيها :

دَلَفْتُم بِالْأَسْوَدِ إِلَى بِلَادٍ ثوت حِجَجًا تعيثُ بها الذَّئَابُ
أشْبَهَهَا غَدَاةً حَلَّتْ مُوهَا بِلَادَ الجُدْبِ حَلَّ بها السَّحَابُ !

١ - المَنْ : ج ٢ ص ٢٥٣ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٦١ .

٢ - المَنْ : ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن عددا كبيرا من أبناء القبائل العربية عبر مع أبي حفص إلى الأندلس في حركته هذه (١) . وقد أشار الشاعر إلى ذلك قائلا :

جَمَعْتُمْ من بني قيس شعوباً تسيلُ بها المَحاني والشعابُ
تجاسس جيشهم لفظاً ومعنى فهم عربٌ وخيلهم عرابُ

ونذكر كثرة الجيوش التي عبرت مع أبي حفص من البيت التالي :

سرى عنكم ببحرٍ مكفهراً يُصبُّ على العصاة به العذابُ (٢)

وهناك قصيدة أخرى قالها ابن حريون في المناسبة نفسها ، مطلعها :

حُثُوا المطى فقد قَصَّتْ أوطارها وأخذوا إلى بابِ الأميرِ قطارها

والقصيدة كسابقتها اتخذت طابع المدح ، والإشادة بأبي حفص ، وتهنئته بالعودة ، ويتخلل ذلك حديث عن عبوره إلى الأندلس ، ووصف للجيش الذي دخل معه ، يقول :

جهزتمُ نحوَ الأعادي فيلقاً سحابَ أذيال القنا جرارها
جاءوا تقدمها السعود طلائعاً وترى ملائكةَ العلاء أنصارها
لبستُ بها شمسُ الظهيرةِ حُلَّةَ خلط العجاجُ لجينها ونضارها
فتطلعتُ منه تطلّع غادة تبدو وأحيانا تضمُّ خمارها (٣)

وهذه الأبيات لا يستشف منها إلا الإشارة إلى عبور أبي حفص إلى الأندلس على رأس جيش ، وتصوير انفعالات الشاعر إزاء ذلك ، دون أن يجد الدارس فيها حديثاً تفصيلياً عن هذه الحركة ، والجيوش التي رافقتها .

١ - المن: ج ٢ ص ٢٥١ .

٢ - المن: ج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

٣ - المن: ج ٢ ص ٢٦٦ .

وهناك مقطوعة لابن حربون قالها في حركة أبي حفص ، وهي في مجملها إشادة بشجاعة أبي حفص وعلوّ همته ، ومضاء عزيمته ، دون أن يوجد فيها ما يستفاد به من معلومات تاريخية (١) .

وقد قال الشواش الشلبي قصيدة في هذه الحركة مطلعها :

وضَحَّتْ بأَنوارِ الهدى قَسَمَاتُهُ وَبَدَتْ من الهَدْيِ القويم سِمَاتُهُ(٢)

كذلك فقد قال الكاتب أبو عبد الله الشاطبي (٣) قصيدة مطلعها :

سَلامٌ كَعَرَفِ الرّوضِ غَبَّ قِطارِهِ تَحِيّةٌ مُشتاقِ الفُؤادِ مُطارِهِ(٤)

وكلتا القصيدتين تخلو من أية لمسات تفصيلية أو إشارات تاريخية عن حركة أبي حفص ، وتحوّلت إلى معرض إشادة به وبالخلافة الموحدية .

وفي عام ٥٦٠ هـ خرجت من إشبيلية جيوش موحدية ضخمة بقيادة أبي حفص ، واتجهت نحو مرسية بقصد غزو ابن مردنيش وحلفائه .

وفي الوقت نفسه كان ابن مردنيش قد حشد قواته . وفي السابع من ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ التقى الفريقان في معركة عنيفة في موضع يعرف بـ « فحص الجلاب »(٥) .

استمرت المعركة حتى مغيب الشمس ، وقد أبلى المسلمون فيها بلاء حسنا ، وفتكوا بأعدائهم فتكا ذريعاً ، وانجلى القتال عن انهزام ابن مردنيش وحلفائه ، وتشتت قواهم (٥) .

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٦٢ ، المَنّ : ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦٢ .

٢ - لم نعر على ترجمة فيما قرأناه .

٣ - المَنّ : ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

٤ - فحص الجلاب : يقع على بعد عشرة أميال من مرسية . المَنّ : ج ٢ ص ٢٧٣ .

٥ - انظر أخبار هذه الموقعة في : المَنّ : ج ٢ ص ٢٧٢ - ٢٨٢ ، الحلة السبراء : ج ٢ ص ٢٦٠ ، الاطاعة : ج ٢ ص ١٢٧ .

وقد قال شاعر مجهول قصيدة في هذه المعركة يشير فيها بالانتصار ، استهلها بقوله :

لَقَدْ بَلَغَتْ جِيَادُكُمْ مَدَاهَا وَنَالَتْ مَا أَرَادَتْ مِنْ عِدَاهَا
وَهَا هِيَ فَاسْأَلُوا الْإِصْبَاحَ عَنْهَا بِحَمْدِ اللَّهِ قَدْ حَمَدَتْ سُرَاهَا
تَعُدُّ رِضَاكُمْ عِزًّا وَجَاهًا فَمَا تَشْكُو عَلَى حَالٍ وَجَاهَهَا
تِهِيمٌ بِحَبِّ طَاعَتِكُمْ فَتَطْوِي بِسَاطِ الْقَفْرِ حَتَّى قَدْ طَوَاهَا

ونستدل من الأبيات انتصار المسلمين على أعدائهم في هذه المعركة ، إلا أنها جاءت خالية من الحماسة التي تتناسب مع روح الانتصار العسكري الذي تشير إليه ؛ فهي أشبه بالاحبار التقريري .

ويحدد الشاعر بعض مواقع القتال وهي : أرض الشرق وتدمير (١) ، ويصف ما نال العدو فيها :

لَقَدْ شَنَّتْ بِأَرْضِ الشَّرْقِ حَتَّى أَبَاحَتْ بَعْدَ مَنَعَتِهَا * جِمَاهَا
أَتِيحَ بِهَا لِتُدْمِيرِ دَمَارٌ فَذُكَّ عَلَى تَرَائِبِهَا رُبَاهَا

وينفرد الشاعر بذكر غزو المسلمين مدينة تدمير وفتحهم بها ، وهذا ما لم تشر إليه الرواية التاريخية .

وقد أشارت المصادر الى عنف المعركة وضراوة القتال فيها ، ويمكن أن نتلمس طرفا من ذلك في الأبيات التالية :

١ - تدمير : هو الاسم القديم لكورة مرسية ، الحلة السبواء : ج ١ ص ٦٢ .

* ورد في البيان المغرب : « محتها » ج ٣ ص ٦٥ .

ألا لله أيّ مقام هـوول تحلّ الرّاسيات له حُباهَا
إذا سمعَ القنا عنه حديثاً ثنى أعطافه طرباً وتَاهَا
تراكمتِ القساطلُ فيه حتّى جلتْ أنوارُ سعدكم دُجَاهَا

ويشير الشاعر إلى فتك المسلمين بالأعداء وقتل معظمهم :

ذرّتهمْ فيه ریحُ النصرِ طِحناً غداةَ أدارتِ الهیجا رَحَاهَا

ويذكر ابن صاحب الصلاة أنّ ابن مردنيش عندما عاين مصارع أصحابه وأحزابه الكفرة ، ولّى مهزوما واستند إلى جبل قريب من المعركة إلى أن ستره الليل ، فركب فرسه وفرّ إلى مرسية (١) . وقد ضمن الشاعر هذه المعلومات قصيدته :

فإن ينجُ اللعينُ لغير منجى لقد فغرت شعوبُ عليه فَاهَا
وولّى يقطع البطحاء شراً على شوهاء ما ونيتْ شواها
ولو فائتْ وميضَ البرقِ عدوا لخطّاهَا ولم يحمد خُطاهَا
وباتّ يصارع الظلماءَ وهنا ويحسدُ من كواكبها سُهاها (٢)

وهكذا فقد استوعب الشاعر بعض الحقائق التاريخية عن هذه المعركة في قصيدته ، مثل : — الإشارة إلى انتصار المسلمين ، والتلميح إلى عنف القتال ، وكثرة قتلى الأعداء ، وتحديد بعض مواقع العمليات العسكرية ، ووصف فرار ابن مردنيش بدقة . ومع ذلك فإن القصيدة خلّت من الروح الحماسية التي تناسب أجواء الحرب .

وفي الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٦٤ هـ دارت حول مدينة بطليوس معركة عنيفة استطاع المسلمون في إثرها تحرير المدينة من الصليبيين الذين كانوا قد احتلوها في شهر رجب من عام ٥٦٤ هـ (٣) .

١ — المَنّ : ج ٢ ص ٢٧٤ .

٢ — المَنّ : ج ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٦٥ .

٣ — المَنّ : ج ٢ ص ٣٨٠ — ٣٨٢ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٨٠ — ٨١ ، أشباخ : ص ٢٨٠ .

وقد قال ابن حربون قصيدة في هذا الفتح مطلعها :

بسعدك أضحى الدينُ جِذْلانَ باسمَا وباسمكِ أمسى الشُّركُ للشُّركِ هادِمًا

ويحمل هذا المطلع مشاعر الابتهاج التي يستشَف منها انتصار المسلمين على أعدائهم ، كما يوحي باشتراك بعض المشركين مع المسلمين في فتح مدينة بطليوس ، ولا شك أن هؤلاء المشركين هم قرّنده البيوج وجنوده . فقد ذكر المؤرخون أن البيوج هذا قد أمّد المسلمين بجند من عنده في هذه المعركة^(١) .

والإشارة الصريحة إلى مخالفة البيوج المسلمين في هذه المعركة ومسالته لهم كانت فيما يلي :

بحلْفِكُمْ * الميمونِ أدركَ ثارُهُ وإن لم يجمعكم مُسليماً فمُسَالِمًا

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن القائد الصليبي الذي هزم في المعركة هو ابن الرّنك^(٢) ، وقد أشار الشاعر الى ذلك :

وكيف رأى ابنُ الرّنكِ مركبَ بغيهِ إذا اعتاض من دُهمِ الجيادِ الأداهِما
وإن يتسنّمها محارمَ عِزّةٍ فها هو قد لاقى عليها المحارِمًا
لقد رام منها سُهدةً ما استساغها ولا لآكها حتى استحالتَ علاقمًا^(٣)

فالشاعر الذي شاهد غارات ابن الرّنك على الأندلس فترة من الوقت ، لم تفته ملاحظة الوضع الجديد الذي آل اليه بعد هذه المعركة .

١ - المَن : ج ٢ ص ٣٨٠ - ٣٨٢ .

* ورد في البيان المغرب « بحلْفِكُمْ » .

٢ - المَن : ج ٢ ص ٣٨٠ .

٣ - المَن : ج ٢ ص ٣٨٤ - ٣٨٧ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٧٦ و ص ٨٢ .

والقصيدة — على طولها — لم تخصص للموضوع الرئيسي — وهو فتح مدينة بطليوس — إلا أبياتا معدودة . وهذه الأبيات ليس فيها عن الفتح إلا الإخبار به ، والإشارة إلى مخالفة البيوج المسلمين ، وذكر القائد الصليبي الذي هزم في هذه المعركة .

ويروى ابن عذارى المراكشي قصيدة لأبي العباس الجراوى قالها في فتح مدينة بطليوس ، مطلعها :

نَصْرٌ * بَكلِ سَعادَةٍ مَقرونٌ نالتُ به الدنيا المُنَى والِدَيْنُ^(١)

ويوحي المطلع بانتصار المسلمين ، وقد قدّم الشاعر هذا النَّصر في إطار من التفاؤل والاستبشار . والقصيدة بعد هذا المطلع ما هي إلا أبيات يشيد الشاعر فيها بقائد الفتح ، دون أن يجد الدّارس فيها أيّة إشارة تاريخية لفتح مدينة بطليوس .

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٦٦ هـ عبر الخليفة يوسف البحر بجيش ضخم للقيام ببعض الأعمال الجهادية في الأندلس . وكان الخليفة قد احتفل بذلك احتفالا عظيما ، فاستدعى العرب من أرض إفريقية والرّاب^(٢) ، وجمع الموحدّين من أرض العدوة ، واستنهض صنوف الأجناد والمطوّعة .

مكث الخليفة يوسف في الأندلس خمسة أعوام قام خلالها ببعض الغزوات لم يجن من ورائها ما كان يرتجى من النَّصر^(٣) .

* ورد في البيان المغرب ٥ نظر ٥ .

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٨١ .

٢ — الرّاب : — كورة عظيمة ، ونهر جرّار على سمت البلاد الجريدية . عليه بلاد واسعة ، ومدن كثيرة . معجم البلدان : مادّة الرّاب .

٣ — انظر : — البيان المغرب : ج ٣ ص ٩٢ ، المرّ : ج ٢ ص ٤٣٦ — ٤٥٣ ، التاريخ الأندلسي : ص ٤٦٢ .

رصد الشعراء هذه الحركة ، وقالوا القصائد فيها ، ومن هؤلاء الأستاذ ابن سيّد الإشبيلي ، الذي قال قصيدة استهلها بوصف الجيش الذي عبر مع الخليفة يوسف :

السَّعْدُ يقدِّمُ والعزائمُ تصدقُ والنصرُ بينهما يخبُّ ويعنقُ
وأمامها ملكٌ أغرُّ يحفُّه جيشٌ تغصُّ به البلادُ وتشرقُ
ملاً البسيطةً منه بحرٌ زاخرٌ في لجتيه كلُّ بحرٍ يغرقُ

وحديث الشاعر عن الجيش المسلم يوحى بكثرتة ، ويصوّر تقدّمه بقيادة الخليفة يوسف .

وقد تحدّث ابن سيّد عن موقف ابن مردنيش المتعاون مع العدو ، والصق به مجموعة من الصفات التي تحطّ من شأنه ، وتوغر القلوب عليه (١) .

ويرواح الشاعر بين مدح الخليفة يوسف والحديث عن سبب عبوره إلى الأندلس :

ملكٌ أفاضَ على الجزيرة رحمةً أحياءَ الرجاءِ بها حياةٌ * المُعْرِقُ
وإني ليرتقُ فتقها لَمَّا رأى أنّ لا سواه يسئنه أو يرتقُ

ويشي التعبير الشعري باستشراء الضعف في قوّة المسلمين في الأندلس ، وتنبّه الشاعر لذلك . فالخليفة عبر إليها « ليرتق فتقها » .

ويصوّر الشاعر حقيقة تاريخية عن الدولة الموحدية حين يقول :

ولقد تيقن أنّ ستفتح فارسٌ بجنوده قسراً وتفتح جلقُ

١ - انظر : ص ١٢١ من هذا البحث .

* قرئت في المرنّ « حياة » .

ولم يكن هذا القول مبالغة من مبالغات الشعراء . فقد كانت الدولة الموحدية تسعى إلى « وحدة إسلامية » تربط بين أجزاء العالم الإسلامي ، لذلك فقد تحدّث الشعراء الموحدون عن فتح فارس ودمشق ، أو عن المشرق والمغرب^(١) .

ويشير ابن سيّد إلى نزول الخليفة يوسف في مدينة إشبيلية :

أَوْ مَاتَرَى الْأَيَّامَ تَنْدَى نَضْرَةً مُذْ حَلَّ حَمَصًا وَاللَّيَالِي تُشْرِقُ
ويتحدّث الشاعر عن الاستقبال الحافل الذي أقيم للخليفة يوسف عندما دخل مدينة إشبيلية :

بَرَزُوا لِيَوْمِ بَرُوزِهِ فِي عَارِضٍ يَعْبَى اللِّسَانَ لَوْصَفَهُ وَالْمَنْطِقُ
مِنْ كُلِّ ذِمْرٍ كَلَّمَا حَضَرَ الْوَعْيُ بَسَلَتْ بِهِ حَوْمَائُهَا وَالْمَأْزُقُ
وَقَفُوا عَلَى سَوَاقِ لِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ وَبَوَدَّهِمْ أَنْ الرُّؤُوسَ الْأَسْوَقُ^(٢)

وقد قال الشيخ ابن المنخل الشلبي قصيدة في المناسبة السابقة مطلعها :

شَرَفَ الْخِلَافَةَ أَنْ مَلَكَتْ زَمَامَهَا وَغَدَوَتْ مِنْ عَقَبِ الْإِمَامِ أَمَامَهَا
وقد أشار ابن المنخل الشلبي إلى قدوم الخليفة يوسف إلى الأندلس ، وقيادته الجيوش لجهاد الأعداء ، والدّفاع عن الإسلام :

لَمَّا رَأَيْتَ الدِّينَ أَظْلَمَ أَظْمَهُ وَالْحَرْبُ قَدْ سَدَلَتْ عَلَيْهِ قَتَامَهَا
أَقْبَلْتَهَا شُعْتِ النَّوَاصِي شُرْبًا جُرْدًا تُبَارِي فِي الْفَلَاحِ سَمَامَهَا^(٣)

١ - مجلّة التربية الوطنيّة ، الزبايط ، شهر مارس ، سنة ١٩٦٢م ، ص ١٦ - ٢٢ ، وعدد إبريل من السنة نفسها : ص ٢١ -

٣١

٢ - المرنّ : ج ٢ ص ٤٥٤ - ٤٥٧ .

٣ - المرنّ : ج ٢ ص ٤٥٨ - ٤٦١ .

ويظهر من القصيدة أن مدح الخليفة يوسف كان هدف الشاعر ، لذلك فإن الدارس لم يعثر فيها على أية إشارة تاريخية مفيدة عن عبوره إلى الأندلس ، ما عدا البيتين السابقين .

وقد أشار أبو العباس الجراوي إلى القطعات البحرية التي رافقت الخليفة يوسف في حركته الى الأندلس ، وذلك ضمن قصيدة قالها في هذه الحركة :

وَصَلَّتْ وَصَلَّتْ فَالْأَمْوَاهُ تَجْرِي وَغَلَبُ الْأَسَدِ تُحَدَّرُ فِي شَرَاهَا (١)

وفي سنة ٥٦٨ هـ بدأ قرانده البيوج « صاحب السبّاط » بمهاجمة بلاد المسلمين ناقضا بذلك المعاهدة التي تربطه بالموحدين (٢) . وعلى الفور أمر الخليفة يوسف بغزوه في عقر داره « السبّاط » ، فخرج أبو حفص من إشبيلية في الثالث من صفر على رأس جيش إلى تلك القاعدة ، فهاجمها بقواته ، وقتك بها ، إلا أنه لم يستطع احتلالها (٣) .

وقد قال أبو علي الأشيري قصيدة في هذه المعركة استهلها بقوله :

دارت رحا الهلكات بالسبّاط وسطا بها ربّ الزّمان السّاطي
وأهين فيها الشّرك أيّ إهانة شفعت كربة هياطها بمياط
إن لم تقم فيها قيامة ملكهم فلقد رأوا جملاً من الأشراف
وأصارها وطء الجياد هسيمة سوداء معتبراً لعين الواطي

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٩٣ - ٩٤ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٣ ، المن : ج ٢ ص ٥١٨ - ٥١٩ .

٣ - اختلفت المصادر في تاريخ هذه المعركة ، فقد جعلها ابن صاحب الصلاة سنة ٥٦٨ هـ ، وابن الأبار سنة ٥٦٩ هـ ، وابن عذارى سنة ٥٧٠ هـ . انظر : - المن : ج ٢ ص ٥٢١ - ٥٢٢ ، التكملة : ج ١ ص ٢٧٠ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤ .

وقد تألفت الصياغة الشعرية في الأبيات السابقة مع المعنى للايجاء بعنف
المعركة ، وضراوة القتال ، وفداحة التدمير الذي لحق قاعدة السبّاط العسكرية ،
لذلك جاءت الأبيات حافلة بمعاني القوّة والضحامة .

وندرك من القصيدة عدم تمكن المسلمين من احتلال هذه المدينة :

لولا خروجَ الفصلِ عن مُعتادِهِ لم يُمهّلوا مقدارَ سَمِّ خِياطِ
ولعائِنُوا مِنْ أَخَذِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ ما عاينَ التُّعمانُ في * ساباطٍ** (١)

وإن لم ينقل أبو علي الأشيري صورة حية للقتال الذي دار في معركة
السبّاط ، فإن أبياته أوحى بالجو العام لتلك الواقعة . وقد تخلل ذلك بعض
الإشارات التاريخية عن المعركة ، مثل : تحديد مكانها ، وهو : مدينة السبّاط ،
وتصوير فداحة التدمير الذي لحق تلك المدينة ، والإشارة إلى إخفاق المسلمين في
احتلالها . وقد سجّل الشاعر لنا فوق هذا وذاك مشاعر الحقد والكراهية التي كانت
تملأ نفسه على أولئك الأعداء .

وقد قال أبو العباس الجراوي قصيدة في معركة السبّاط ، والقصيدة منذ
مطلعها أشادة بقائد المعركة أبي حفص :

عن أمرِكُم يتصرّف الثَقَلانِ وبنصرِكُم يتعاقب المَلوانِ***
وبما يسوءُ عدوكم ويسرُّكم تتحرّكُ الأفلاكُ بالدورانِ(٢)

* ورد في زاد المسافر « من » .

** الإشارة الى قصة التعمان بن المنذر مع أبرويز ملك الفرس . انظر : معجم البلدان : مادة : ساباط كسرى .

١ — زاد المسافر : ص ١٠١ .

*** المَلوان : بفتح الميم واللام الثانية : الليل والنهار . لسان العرب : مادة « ملا » .

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤ .

وعلى الرغم من المبالغة التي تظهر في هذه الأبيات ، فإنّ هذه الإشادة مرتبطة بالجوّ العام للمناسبة ، إذ يلمح فيها تفوّق أبي حفص على أعدائه ، ومشايعة القدر له ... ومن هذا ندرك نتيجة المعركة ، وانتصار المسلمين .

وفي أواخر محرم سنة ٥٨٦ هـ تحرك الخليفة المنصور من رباط الفتح (١) ، وتقادى السير الى قصر مصمودة (٢) . وجدّد من هناك المخاطبات الى أهل الأندلس يشترهم بقدمه مع جيوشه إليهم . وفي أثناء ذلك بدر من بواكير الفتوح ما عكس أجفان الروم ؛ فقتل منهم خلق ، وأسر آخرون (٣) ، « فهتّى بذلك المنصور وامتدحه الشعراء » (٤) ومن بينهم أبو بكر بن مجبر ، الذي قال قصيدة طويلة لم يبق منها إلّا جذاذات أبيات ، وهي منذ مطلعها :

دلائلُ فتحٍ كان يذخرها الدهرُ فلماً أردت الغزو أبرزها النَّصرُ
فها هي مُدّ جدّت ركابك تنبري سراعاً ، فمن أفراجها الشَّع والوترُ
فدُونَكها منسوقَةٌ فلشَدَمّا تسابق فيها نحوك البرُّ والبحرُ
هو الفتحُ يا مولاي ما فيه مريّة ولا لليالي في تَعذِّره عُذْرُ

ونستشفّ من هذه الأبيات صغر هذا الانتصار وضالّة نتائجه ، لذلك فقد اعتبره الشاعر بشري بين يدي فتوح أخرى يذخرها الدهر للخليفة ، كما أكّده وأبرزه في البيت الأخير بصورة تعبيرية خاصّة .

- ١ — رباط الفتح أو المهديّة يقع على شاطئ المحيط الأطلسي ، وقد اهتم به المؤرخون . المنّ : ج ٢ ص ٤٤٦ .
 - ٢ — قصر مصمودة : — هو قصر الجاز ، لا يبعد عن طنجة ، وتقابله جزيرة طريف من الأندلس . ومنه غالباً كان يتم عبور الجيوش الى الأندلس . انظر : — مقدّمة الفتح : ص ٢٢ ، وصف المغرب : ص ١٦٦ .
 - ٣ — انظر تفاصيل ذلك في : — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧ ، الفروض المعطار : مادة شلب ، ص ٣٤٢ .
 - ٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧ .
- * ورد في الروض المعطار « قلائد » . هذا ولم يرد في المصدر السابق إلّا هذا البيت . الروض المعطار : مادة شلب ، ص ٣٤٢ .

ويستوعب الشاعر ما ذكرته الرواية التاريخية حين يشير إلى وقوع بعض القتلى في صفوف الأعداء ، وأسر بعض جندهم . ويظهر أن هؤلاء الأسرى كانوا قلة :

أَتَتْكَ أَسَارَى الرُّومِ وَهِيَ أَقْلَهَا فَمَنْ فَضَلَاتِ القِتْلِ يُنتَجِعُ الأَسْرُ
وَمَا كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ سَهْلًا مَرَامُهَا وَلَكِنْ عَلَا الإسلامُ مَا تَضَعُ الكُفْرُ

وحيث يشيد الشاعر بالخليفة المنصور يصرّه بواقع الأندلس ، ويحثّه على العناية بها :

لَقَدْ أُيَقِنْتُ هَذِي الجَزِيرَةَ أَنَّهَا سَيَجْبِرُهَا مِنْ لَا يُهَاضُ لَهُ جَبْرُ
لِئِنْ كَانَ مَاتَ الأَمْنُ فِي جَنَابَتِهَا فَقَرُبُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ لَهُ نَشْرُ^(١)

والقيمة التاريخية لهذين البيتين تبدو في دراسة واقع الأندلس الإسلامية في هذه الفترة ، فإن فيهما إيحاءات بذلك الواقع : فقد « مات الأمن في جنباتها » .

وهكذا سجّل ابن مجبر هذه الحادثة في شعره ، ومع أنه أشار إلى صغرها ، وضآلة نتائجها ، وأسر بعض الأعداء ، فإنه لم يقدّم في قصيدته معالم واقعة معينة تعين على ربط القصيدة بالحدث الذي قيلت فيه .

وقد أثار عبور الجيوش الإسلامية بقيادة المنصور أسباب الجزع بين الصليبيين ؛ فبادر ملوكهم إلى طلب الصلح من الموحّدين ، إلّا أنهم ردّوهم ؛ فتكرر طلب منهم ؛ فاستجاب الخليفة لهم لأنّه رأى مصلحة المسلمين في افتراق كلمة الكفر ، وعقد الصلح مع ملكي قشتالة وليون^(٢) .

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧ .
٢ - رسائل موحّدية : ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، وفيات الأعيان : ج ٧ ص ٤ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

وقد نُسِبَ إلى شاعر لم يذكر اسمه قصيدة قالها في هذه المناسبة لم يبق منها إلا
ثلاثة أبيات هي :

أهلّ بأن يُسعى إليه ويرتجى ويُزار من أقصى البلادِ على الرَّجَا
من قد غدا بالمكرماتٍ مقلّدا وموشّحا ، ومختمًا ، ومتوجّحا
عمرت مقاماتُ الملوكِ بذكروه وتعرّطت منه الرّياحُ تارُجًا^(١)

والأبيات في مجموعها إشادة بالخليفة المنصور ، وهي إشادة مستوحاة من
طبيعة الموقف . ويستشف منها أن هناك سعيًا موجّهًا لهذا الخليفة ، وهو — دون
شك — سعي ملوك الصليبيين ورجاؤهم .

وفي سنة ٥٨٦ هـ قام الخليفة المنصور بتمييز^(٢) الجيوش الموحدية ، وفرّق فيها
البركة ، وأمر بعقد الرّيات ، وخرج من قرطبة غازيا متجّها نحو الشمال الغربي إلى
وادي التّاجه^(٣) * . وقد قال أبو بكر بن مجبر في هذه الحركة قصيدة لم يبق منها إلا
ما يلي :

بُشرايَ هذا لواءٌ قلّ ما عُقدا إلاً ومدّ له الرّوح الأمين يدًا
وأقبل النصرُ لا يعدو مناحيهُ فحيثُما قصدتُ رايأته^(٤) قصّدا
واستقبلته تباشيرُ الفتوح وقد^(٥) كادتُ تكون على أكتافه^(٦) لبّدا*

١ - النسخ : ج ١ ص ٤٤٤ .
٢ - تمييز الجيش أي استعراضه عند كلّ مناسبة هامة . وهي عادة عرفت منذ عهد ابن تومرت ، وكان يقصد منها تنظيم الجيش ،
والحرص على انسجام الكتائب ، وقد كان للتمييز ديوان خاص . انظر : أخبار المهدي : ص ٢٩ ، ص ٣٢ - ٣٥ .
٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩ ، الرّوض المطّار : مادة شلب ، ص ٣٤٢ .
* نهر التّاجه : نهر عظيم يشقّ طليطلة ، ويصب عند لشبونة في المحيط . صفة جزيرة الأندلس : ص ٣٤٢ .
٤ - ورد في البيان المغرب : « أريابه » .
٥ - ورد في البيان المغرب : « فقد » .
٦ - ورد في البيان المغرب : « أكتافه » .
* لم يرد في الرّوض المطّار إلا الأبيات الثلاثة الأولى .

وقرب الفلك الدوار بُغيته فلو تناول بعض الفلك ما بُعدا
 إمام جيش أراد الله نصرته فأرسل الملاء الأعلى له مددا
 إتي لأحكم بالنصر العزيز له وإن سكت فإن الوحي قد شهدا^(١)

وندرک من الآيات انعقاد ألوية المسلمين ، وتهبؤهم للغزو . إلا أننا لا نعثر فيها
 على أية إشارة تاريخية عن وجهة هذه القوّات وتركيبها وقيادتها ... أو غير ذلك مما
 يعين على استيعاء حدث معيّن منها . فهي مجموعة من الانفعالات المستوحاة من
 طبيعة الموقف .

وفي غرة ربيع الآخرة من سنة ٥٨٧ هـ خرج الخليفة المنصور من إشبيلية
 بجيوش كثيفة « حسنة الأهبة والهيئة والنظام »^(٢) ، واتجه نحو مدينة شلب^(٣)
 لاستعادتها .

استمرت هذه الغزوة ثلاثة أشهر استطاع المسلمون فيها استرداد مدينة شلب
 وقصر أبي دانس^(٤) ، وحصن قلمالة^(٥)** .

ويظهر أن الشاعر أبا بكر بن مجبر كان مرافقا للجيش في هذه الغزوة الطويلة ،
 ويبدو هذا في قصيدة قالها يحنّ الى وطنه بعد الغزو سنة ٥٨٧ هـ . ولم يبق من
 القصيدة إلا مطلعها :

-
- ١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩ ، الرّوض المعطار : مادة شلب ، ص ٣٤٢ .
 - ٢ — عصر المرابطين والموحدين : ج ٢ ص ١٨٦ .
 - ٣ — شلب : تقع على مقربة من شاطئ المحيط الأطلسي جنوب باجة . تقوم البلدان : ص ١٦٧ .
 - ٤ — نسبة إلى بانيه أبي دانس ، يقع جنوب شرقي أشبونة ، ويطلق عليه « قصر الفتح » . جمهرة أنساب العرب : ص ٥٠١ ،
 الحلة السّواء : ج ٢ ص ٢٧٢ .
 - ٥ — حصن قلمالة : حصن منيع يقع شمال مدينة شلب . البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨٥ .
- ** انظر أخبار هذه الغزوة في : — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨٥ — ١٨٦ ، المعجب : ص ٣٥٦ ، الرّوض المعطار : مادة
 شلب ، ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .

دعا الشوق قلبي والركائب والركبا فلبوا جميعاً وهو أول من لبي
وظلنا نشاوى للذي بقلوبنا نخال الهوى كأسا ومحسبنا شربا
إذا القضب هزتها الرياح تذكروا قدود الحسان البيض فاغتنقوا القضباً (١)

ومن المؤسف أن الدارس لم يصل إلى القصيدة كاملة . والأبيات الباقية ما هي إلا أبيات وجدانية لا ندرك منها ملامح حادثة معينة .

وتذكر الرواية التاريخية أن عددا من المعارك المتفرقة حصلت في هذه الغزوة (٢) . وقد أنشد القائد أبو بكر بن وزير الشلبي قصيدة يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج أثناء هذه الغزوة كان الشلبي المذكور مقدما فيها ، ولم يبق منها إلا قوله :

ولما تلاقينا جرى الطعن بيننا فمنا ومنهم طائحون عديداً (٣)
وجال غراز الهند فينا وفيهم فمنا ومنهم قائم وحصيد (٤)
فلا صدر إلا فيه صدر مثقف وحول الوريد للحسام وروداً (٥)
صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا كلانا على حر الجراد جليداً (٦)
ولكن شددنا شدة فتبلدوا ومن يتبلد لا يزال يحيداً
فولوا وللبيض الرقاق بهامهم صليل ، وللسمر الطوال وروداً (٧)*

- ١ - المرض المعطار : مادة شلب ، ص ٣٤٣ .
- ٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨٥ - ١٨٦ .
- ٣ - ورد في المغرب « فمنا ومنهم قائم وحصيد » .
- ٤ - لم يرد هذا البيت في المغرب .
- ٥ - ورد في الحلة السراء « كلانا على حر الطعان جليد » .
- ٦ - لم يرد هذا البيت في الحلة السراء .
- ٧ - لم يرد البيت في المغرب . وورد في النفع هكذا : -

* وانظر المقطوعة في : - النفع : ج ٤ ص ٣٨١ ، الحلة السراء : ج ٢ ص ٢٧٣ ، المغرب : ج ١ ص ٣٨٢ .

ولم تحدد الرواية التاريخية الحادثة التي قيلت فيها هذه المقطوعة ، وبعد استقرار الأبيات نجد أنها تشير الى قتال عنيف وقع فيه كثير من الجند المتحاربين صرعى ، وقد انكشف هذا القتال عن انتصار المسلمين وانهمزام أعدائهم . ومع ذلك فالأبيات لا تحدد هوية واقعه معينة من تلك التي حصلت في هذه الغزوة . فهي أبيات حماسية تمجد بطولة المسلمين ، وتشيد بشجاعتهم في الحروب ، وصبرهم على منازلة الأعداء وتصور انتصارهم على أولئك الأعداء الذين أبلوا في الدفاع عن أنفسهم أحسن البلاء .

ولما انتهت مدة الهدنة بين المنصور وملك قشتالة ، ولم يبق إلا قليل بدأ الأعداء بمهاجمة الأندلس والعيث فيها ، فأعد المسلمون حملة توجهت إليها بقيادة الخليفة المنصور نفسه . علم الصليبيون بذلك ، وجمعوا جموعا كثيفة من أقاصي بلادهم وأدانها . نزلت الجيوش الصليبية في مكان « الأرك » (١) . وهناك دارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون على أعدائهم نصرا مؤزرا (٢) .

ورد في « نفح الطيب » : « لَمَّا قفل أمير المؤمنين يعقوب المنصور من غزوة الأراكة المشهورة ... ورد عليه الشعراء من كل قطر يهثونه . فلم يكن لكثرتهم أن ينشد كل انسان قصيدة ، بل كان يختصّ منها بالانشاد بالبيتين أو الثلاثة المختارة ... قال : وانتهت رقاغ القصائد وغيرها الى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها » (٣) وهذا يدلّ على مدى مشاركة الشعراء الأمة في هذا النصر الاسلامي الكبير . ومع ذلك ، لم يبق من هذا الشعر إلا قصائد معدودة . منها قصيدة لعلّي بن حزمون ، استهلّها بقولة :

- ١ - الأرك : حصن منيع من قلعة رباح . وتسميّة بعض المصادر الاسلامية « الأركة » او « الأراكة » وتسميه المصادر الأوروبية Alorcis . انظر : - الروض المعطار : مادة الأرك ، ص ٢٦ ، الفتح : ج ٤ ص ١٧٢ ، بغية المنتس : ص ٤٥ ، الذيل والتكملة : ج ٦ ص ١٩٨ ، Moorish Cult., P. 139
- ٢ - كان تاريخ المعركة يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ . انظر تفاصيل ذلك في : رقم الحلال : ص ٥٩ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٤ - ١٩٥ ، رفع الحجب المستورة : ج ٢ ص ٥٩ ، المعجب : ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ، التكملة : ج ١ ص ١٥٠ - ٥٥١ ، الروض المعطار : مادة الأرك ، ص ٢٦ ، مخطوط الحلال السعدسية : ورقة ٤٥ .
- ٣ - الفتح : ج ٤ ص ١٧٢ .

حَيْتَكَ مَعْطَرَةَ النَّفْسِ نَفَحَاتُ النَّصْرِ بِأَنْدَلِسِ
فَدَّرِ الْكُفَّارَ وَمَأْتِمَهُمْ إِنَّ الْإِسْلَامَ لَفِي عُرْسِ

ويحمل هذا المطلع البارع في مبناه ومعناه بشرى انتصار المسلمين في معركة الأرك ، ومشاعر الفرحة والابتهاج بهذا الظفر العظيم الذي اعتبره الشاعر « عرسا » للإسلام ، و « مأتما » للكفر .

وتشير الرواية التاريخية إلى ضخامة الحشود الصليبية التي خرجت لملاقاة المسلمين في معركة الأرك ، ومشاعر الثقة التي غمرت الأعداء بسبب كثرة جيوشهم ، إلى حد أنهم جلبوا معهم بعض تجار اليهود لا يشتراء أسرى المسلمين^(١) ، وقد تحدّث الشاعر عن ذلك قائلا :

جاء ووك تضيّقُ الأرضُ بهم عَدَدًا لم يُحصَ ولم يُقسِ
خَرَجُوا بطراً ورئاءَ التّاسِ ليختلسوا مَع مَخْتَلِسِ

أما حديث الشاعر عن قتلى الأعداء فإننا ندرك منه كثرتهم :

وتساوى القاعُ بهمهم المرفضُ مع الحذبِ الضرسِ
سُقِيَتْ بنجيعهمُ أكمُّ وطئوا منهنّ على دهسِ

إن تصوّر الموقع الجغرافي لهذه المعركة يكشف ما في هذين البيتين من دقة في الوصف . فقد ذكر المؤرخون أنّ حصن الأرك يقع فوق ربوة عالية ، في بسيط واسع تتخلله بعض الهضاب الضرسية^(٢) . ويظهر من قول الشاعر أنّ قتلى الأعداء كانوا

١ - بغية المنتسب : ص ١٧٢ .

٢ - هذا وصف محمد عبدالله عنان ، وقد زار موقع المعركة : عصر المرابطين والموحدين : ج ٢ ص ٣٠٣ .

كثيرين إلى حد ساووا بين تلك الهضاب . ولم يكن الشاعر مبالغاً في ذلك ،
فقد قدّرت بعض الروايات قتلى الأعداء في هذه المعركة بمائة وستة وأربعين ألفاً^(١) .

ويتفق الشاعر مع الرواية التي تشير الى ملاحقة الخيول الاسلامية فلول
المنهزمين وعيشتها في ديارهم^(٢) ، حيث قال :

أذوي الصليان وراءكم خيلُ الملكِ الخبيرِ التّبسِ
جاستُ جنّبات الكفرِ فلم تتركْ لهم ما لم تجسِ

ويضفي الشاعر ظلالاً واقعية على القصيدة ، حين يتحدث عن لجوء الأعداء
إلى الجبال فرارا من المسلمين ، ووقوع بعض نسايم سبايا في أيدي المجاهدين^(٣) .

ويذكر المؤرّخون أنّ القائد الصليبي قد ولّى هاربا من المعركة ، ناجيا
بنفسه^(٤) . وقد صوّر الشاعر ذعر هذا القائد وفراره :

إنّ كان نجّا أذفنشهم فإلى عيش نكيدٍ تعسِ
فمضى لم يلو على أحدٍ ورمى بالدرعِ وبالثرسِ^(٥)

هذه هي قصيدة ابن حزمون ، وهي دافقة بالنشوة والفرح ومشاعر الابتهاج
بهذا النصر الكبير . وقد أتى الشاعر فيها بما قاله المؤرخون عن هذه المعركة حين
تحدّث عن ضخامة الظفر الذي أحرزه المسلمون فيها ، وكثافة جيش العدو ، والهزيمة
التي خرج عليها ، وكثرة قتلاه ، وهرب قائده . بل أنّه زاد عليهم ، فما من أحد
أخبرنا بأن الصليبيين احتموا بالجبال أو وقوع بعض السبايا الصليبيات في أيدي
المسلمين .

١ - الكامل : ج ١٤ ص ١١٥ .
٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٥ ، القرطاس : ٢٢٨ .
٣ - انظر ص ١٣٦ من هذه الدراسة .
٤ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٥ .
٥ - المعجب : ص ٣٧٠ - ٣٧٣ .

وقد قال أبو العباس الجراوى قصيدة في هذه المعركة استهلها بتمجيد النصر ،
والاشادة به :

هو الفتحُ أعيا وصفه النَّظْمَ والنثرا وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد في الدنيا وغار حديثه فراقته به حسناً ، وطابت به نشرًا
تميز بالأحجال والغُرر التي أقل سناها يهرُ الشمسَ والبدرًا

وندرک نتيجة المعركة من خلال هذا التفاؤل الكبير ، ومشاعر الاستبشار
الدافقة التي غمرت الأبيات .

ويتفق الشاعر مع ابن حزمون حين يشير الى هرب القائد الصليبي من المعركة
عندما رأى مصارع أصحابه ، إلا أن أبا العباس الجراوى ينفرد بالاشارة الى إصابة
هذا القائد بطعنة قوية . وهذا ما لم تشر إليه المصادر كذلك :

رأى الموت للأبطال حوله ينتقي فطارَ إلى أقصى مصارعه دُعْرًا
وقد أوردته الموت طعنةً نائِرٍ وإن لم يفارق من شقاوته العُمرا

وتجمع المصادر على كثرة قتلى الأعداء في هذه المعركة^(١) . وقد أشار الشاعر
إلى ذلك ، فهم يعدون بالألوف :

ألوف غدت مأهولةً بهم الفلا وأمست خلاءً منهم دورهم فقرا
وذارت رحا الهيجا عليهم فأصبحوا هشيماً طحيناً في مهبِّ الصبا يُذرا

١ - انظر : عصر المرابطين والموحدين : ج ٢ ص ٢١٠ .

ونعلم من القصيدة أنّ المعركة وقعت يوم الأربعاء ؛ وفعلا كان كذلك^(١) :

فسلاّهُ يومُ الأربعاء عن المنى فما يَرْتَجِي مِمَّا تَمَلَّكُهُ شَيْبَرًا^(٢)

والقصيدة بعد هذا تكاد تتفق مع ما أورده ابن حزمون في قصيدته السابقة . فقد أشار الجرّاوي إلى ضخامة الانتصار ، وكثرة قتلى الأعداء ، وفرار القائد الصليبي ، ونجاته من الموت ، كما ذكر يوم المعركة ... وهذه المعلومات أتى بها المؤرخون . بل أنّه زاد عليهم عندما أشار إلى إصابته في المعركة بطعنة قوية .

وقد قال القاضي الأديب أبو حفص الأغماتي^(٣) قصيدة في انتصار الأرك لم يبق منها إلا تسعة أبيات تبدأ بقوله :

أطاعتك الدّوابلُ والشّفارُ ولبّي أمرك الفلكُ المُدارُ
ويستشفّ من هذا البيت تفوّق الخليفة المنصور ، وانتصاره على أعدائه بالقوّة .

وقد كان هذا النصر عظيما ، ومن آثاره كبت ملك قشتالة وإيقاف عمليّاته العدوانيّة عن الأندلس إلى حين . لذلك فإنّ الشّاعر يرى أنّه من الجدير تهنئة الأندلس بهذا العهد الجديد الذي فتحه لها هذا النصر :

ليهنّى أرضَ أندلس بُدورٌ من السّراءِ ليس لها سرارُ

ويتحدث صاحب البيان المغرب عن محاولات الصليبيين الدّائبة للفرار من معركة الأرك ، فيقول : « وخلع الكفار عن مراكزهم ، ونسخ الله ما أراهم

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٥ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ - ١٩٨ ، شاعر الخلافة الموحّدية : - الملحق : ص ٧ - ٨ .

٣ - هو عمر بن أبي محمد عبدالله بن عمر السلمي ، من أهل أغمات ، كان فقيها ، أدبيا ، شاعرا ، ورعا ، فاضلا . توفي سنة ٦٠٤ هـ . انظر : صلة الصلة : ص ٧٢ ، الغصون اليانعة : ص ٩١ - ٩٢ ، ذكريات المشاهير ؛ عدد ٣ ، ص ٧ وما بعدها .

من اغترارهم ، فولوا الأدبار»^(١) إلا أن سيوف المسلمين ركبهم ، وأعملت مضاربها فيهم ، وقد أشار الشاعر الى ذلك حين قال :

وَكَمْ راموا الفرارَ من الرزايا ولكنْ أين من أجلي فرارُ
تُدارُ عليهمُ حمر المنايا بكأس فيه عَقْر لا عَقَارُ*^(٢)

ومع أنّ الشاعر استوعب بعض ما قاله المؤرخون عن ضخامة هذا النصر ، ومحاولات الأعداء للهرب من المعركة . فإنّ الأبيات لم تقدّم ملامح حدث معيّن ، وإنّما تصوّر مشاعر الإكبار والإعجاب بهذا النصر .

وقد قال أبو بكر يحيى بن مجبر قصيدة في هذه المعركة لم يبق منها إلا عشرة أبيات تبدأ بقوله :

قضى حقوقَ الله في أعدائه ٢ ثم انثنى والنصرُ تحت لوائه
وهذا المطلع يوحى بتفوق المسلمين ، وانتصارهم على أعدائهم .

وتشير الرواية التاريخية إلى ضخامة جيش المسلمين الذي اشترك في معركة الأرك^(٣) . وقد استوحى الشاعر أروع الألفاظ التي تشعر المسلمين بالبأس والقوّة حين تحدّث عن كثافة ذلك الجيش :

أغزى بهم جيشاً تضيقُ الأرضُ عن أمواجهِ والوهمُ عن إحصائه
كالعارضِ ، الشجاجُ ملءُ هوائه لكنْ دمُ الأبطالِ من أنوائه

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٥ .

* العقر : بفتح العين : التحرر ، العقار ، بضم العين : الحمر ، لسان العرب : مادة « عقر » .

٢ - الفصول الياضعة : ص ٩٦ - ٩٧ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٢ ، القرطاس : ٢٢٢ .

وتتزوج أسمى مظاهر الشجاعة بالعقيدة الإسلامية حين صوّر الشاعر دأب الخليفة المنصور في قتال الأعداء ، وإصراره على استئصالهم ، والقضاء عليهم :

لَمَّا رَأَى لِلشَّرْكِ رَسْمًا مَائِلًا أَوْهَى قَوَاهُ وَجَدَّ فِي إِقْوَائِهِ
أَنْحَى عَلَيْهِ بِالصُّورِ وَالقَنَا حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ غَيْرَ ذِمَائِهِ
أَبْقَاهُ وَالذَّعْرُ الخَيْفُ يَبِيدُهُ فَكَأَنَّهُ سَبَعٌ عَلَى أَشْلَائِهِ^(١)

وإذا كان الشاعر لم يوفق في الأبيات السابقة في تقديم ملامح خاصة لمعركة الأرك ، فإنه وفق في تصوير مشاعر الإعجاب بقائد تلك المعركة . فقد كان التركيز على شخصية هذا القائد والإشادة بها محور تلك الأبيات . وهي إشادة مستوحاة من روح هذا الانتصار العسكري .

ولأبي الوليد الشقندي^(٢) قصيدة في هذه المعركة لم يبق منها إلا بيتان هما :

إِذَا نَهَضْتَ فَإِنَّ السَّعْدَ * مَنْتَهَضُ تَرْمِي السَّعُودَ سَهَامًا وَالْعِدَا غَرَضُ
لَكَ البَسِيطَةُ تَطْوِيهَا وَتَنْشُرُهَا فليس في كَلِّ مَا قَد رَمَتْ ** مُعْتَرِضُ^(٣)

ولا يرى في هذين البيتين إلا الإشادة بقائد المعركة . وقد جنح الشاعر فيها إلى المبالغة ، ويفسر ذلك طبيعة الموقف الحماسي .

-
- ١ - رفع الحجب المستورة : ج ٢ ص ١٥٥ .
 - ٢ - هو أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشقندي ، نسبة إلى شقنده . صاحب الرسالة الشهيرة في فضل الأندلس . توفي سنة ٦٢٩ هـ . النسخ : ج ٣ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، المغرب : ج ١ ص ٢١٨ - ٢١٩ .
 - * ورد في النسخ « السيف » .
 - ** ورد في النسخ « تنويه » .
 - ٣ - النسخ : ج ٣ ص ٢٢٣ ، المغرب : ج ١ ص ٢١٩ .

وفي منتصف رجب الفرد سنة ٥٩٢ هـ تحرك المنصور من إشبيلية لغزو الأذفونش ملك قشتالة في عقر داره طليطلة . وعندما وصل المسلمون المدينة أقاموا عليها أسبوعا يشنون الغارات على أرجائها ... ثم أمر المنصور بعد أن أشعر العدو بقوة المسلمين ، وعظمة حشودهم بالانسحاب ، دون أن يستغل ضعف الصليبيين بعد معركة الأرك في احتلال قاعدة الكفر طليطلة* (١) .

ولشاعر الخلافة الموحدية أبي العباس الجراوي قصيدة في هذه الغزوة جاء فيها :

قَدْ أَصْلَيْتِ نَارَهَا الْعِدَاءُ وَأَنْجِرْتِ فِيهِمُ الْعِدَاتُ
وَعَمَّهُمْ بِالذَّمَّارِ يَوْمٌ تَقْصُرُ عَنْ وَصْفِهِ الرِّوَاءُ
وَمَشْهُدٌ لَا تَزَالُ تَتْلَى آيَاتُهُ وَهِيَ بَيْنَاتُ
فَتَحَّ مَفَاتِيحُهُ الْمَوَاضِي وَالْعَزِمَاتُ الْمُؤَيَّدَاتُ
ذَلُّوا لِأَمْرِ اللَّهِ قَسْرًا وَهُمْ أَوْلُو نَجْدَةِ أَبَاءُ

والآيات توحى بشعور التفوق ، وحافلة بإجاءات القوة ، والإيمان بها سبيلا لقهر العدوان ، وفتح البلدان . ويتخلل ذلك حديث. عن الدمار الذي لحق بلاد الأعداء ، واستباحة المسلمين أرضهم .

وضخامة الجيوش الإسلامية التي اشتركت في هذه الغزوة نلمسها في قول الشاعر .:

وَعَرَّقَتْ جَمْعَهُمْ بِحَارٍ أَمَوَّجُهَا الْخَيْلُ وَالْكَمَاءُ

* ورد في النسخ أن المنصور فك الحصار عن طليطلة رافة بوالدة الأذفونش ونسائه وبناته اللواتي خرجن إليه مستصرحات . انظر النسخ : ج ١ ص ٢٢٤ .
١ — انظر اخبار هذه الغزوة في : البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٨ — ١٩٩ ، رسائل موحدية : ص ٣٣٦ — ٣٣٧ ، النسخ : ج ١ ص ٢٢٤ .

ويصوّر الشاعر معاناة الصليبيين من المسلمين في هذه الغزوة ، ومحاولاتهم
الدائبة للفرار منهم :

رأوا لحزبِ الإله صبـراً والموتُ حَفَّت به الجهاتُ
فحاولوا منهم انقلاتاً وليس للخائن انقلاتاً^(١)

ومع أن الشاعر أشار في الأبيات السابقة إلى ضخامة جيش المسلمين الذي
اشترك في هذه الغزوة ، والعنف الذي اخذ به المسلمون الأعداء ، ومحاولاتهم الفرار.
ألا أننا لا نعثر فيها على تفصيلات تحدّد هويّة واقعة معينة ، أو تعين على إقامة علاقة
بينها وبين الحدث الذي قيلت فيه .

وفي يوم الإثنين الخامس « أو الرابع عشر » من صفر سنة ٦٠٩ هـ^(٢) ، التقى
المسلمون بقيادة الخليفة التّاصر بالفونشو ملك قشتالة عند « حصن العقاب »^(٣)
وقد كان مع هذا الفئس حشود هائلة من الصليبيين الوافدين من أنحاء دول أوروبا ،
التي تولّى البابا أنوسنت الثالث تشجيعها على المشاركة في حرب المسلمين في
الأندلس^(٤) .

انتهى هذا اللقاء بهزيمة المسلمين هزيمة نكراء ، وتشتت قواهم . وقد أشارت
الرواية الإسلامية إلى الخسارة البشريّة الهائلة التي مني المسلمون بها ، فوصفت الواقعة
بالهزيمة العظمى « التي فني فيها أهل المغرب والأندلس »^(٥) ، أو التي خلا بسببها
أكثر المغرب^(٦) أو حسبما تقول رواية أوضح وأشمل : « أن المغرب قد باد أهله

-
- ١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٠ .
 - ٢ - انظر أنجز هذه المعركة في : - المعجب : ص ٣٩٩ - ٤٠٢ ، الحلة السيّراء : ج ٢ ص ٢٧٣ ، التكملة : ج ١ ص ١٠٢ و ٢٠٢ ، المغرب : ج ٢ ص ٧٣ ، الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٠ - ٢٤١ ، النفع : ج ٤ ص ٣٨٣ ، الرّوض المعطار : مادة العقاب ، ٤١٦ .
 - ٣ - العقاب : - بكسر العين ، حصن بين جيان وقلعة رباح . الرّوض المعطار : مادة العقاب ، ص ٤١٦ .
 - ٤ - المعجب : ص ٣٩٩ ، Moorish Cult. ، P. 168 ; Moors in-Spain .
 - ٥ - الحلل الموشّية : ص ٣٩٩ . P. 140 .
 - ٦ - النفع : ج ١ ص ٤٤٦ .

ورجاله ، وفني خيله وحماته وأبطاله ، وقتلت قبائله وأقياله ؛ قد استشهد الجميع في غزوة العقاب » (١) .

أثارت هذه الهزيمة أسباب الجزع والفرح في الأندلس يومئذ (٢) . وقد تردد هذا واضحا في قول ابن الدباغ الاشبيلي (٣) :

وقائلة أراك تطيل فـكـرأ كأنك قد وقفت لدى الحسَابِ
فقلت لها : أفكر في عِقَابِ غدا سببا لمعركة العِقَابِ
فما في أرض أندلس مقامٌ وقد دخل البلا من كلِّ بابِ (٤)

والأبيات ليست وصفا لواقعة معينة ، وإنما هي وقفة من هذا الشاعر عند نتائج معركة العقاب ، التي استحوذت على تفكيره ، وأسرت عقله ، ويستشف منها تنبه الشاعر لمعنى تلك النكبة وأبعادها . فقد وجد أن هذه المعركة فتحت باب البلاء على الأندلس ، وأدخلت الوهن إليها ، لذلك حذر المسلمين من الإقامة فيها ، مبينا لهم أن ذلك عقاب على تقصيرهم واهمالهم .

ويلاحظ أن ابن الدباغ قد آثر موقفا سلبيا من هذه المحنة ، ولكن هذا اللون السلبي من التعبير عن الواقع كان حينئذ مبالغة في التنبيه والتذكير .

١ — الذخيرة تالسنية : ص ٢٦ .

٢ — أشارت الرواية الإسلامية الى نتائج هذه المعركة وأبعادها . فقد وصفها الحميري بأنها كانت « أول وهن دخل على الموحدين » ، ووصفها ابن عذارى بأنها « كانت السبب في هلاك الأندلس » ، وذكر ابن الأبار انها « التي أفضت إلى خراب الأندلس ... » .

وقد قال ابن أبي زرع : أن الأندلس لم تستقل بعدها العثرة . انظر : — صفة جزيرة الأندلس : ص ١٣٨ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٠ ، الكلمة : ج ١ ص ١٠١ — ١٠٢ ، القرطاس : ص ٢٨٢ .

٣ — لم نعتز على ترجمته .

٤ — النفع : ج ٤ ص ٤٦٤ ، مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٨ .

وفي سنة ٦٢٢ هـ (١) هزم المسلمون هزيمة نكراء على مقربة من « طَلْيَاطَة » (٢) ، ولم يمض على ذلك شهران حتى حلت بهم هزيمة مماثلة في شرقي الأندلس على مقربة من « عَفْص » (٣) . وفي الوقت نفسه دخل الصليبيون مدينتي « لَوْشَة » (٤) و « قِيحَاطَة » (٥) * .

وقد سجل أحد المرسيين هذه الحوادث المتتالية في مقطوعة قالها ، جاء فيها : —

بوقعة عَفْصِ وَطَلْيَاطَةِ تكامل إقبال أيامنا
فبالغربِ تلك وبالشرقِ ذي أناخا على شَمِّ أعلامنا
وفي وسطِ الأرضِ قِيحَاطَةَ ولوشة خفا بأحلامنا
وليس الصليب يرى مانعا لغير تواتر إعدامنا
وسيدنا ناظرًا في الجوازِ يرومُ النجاةَ بإسلامنا (٦)

وهذه الأبيات تشير إلى مجموعة من الوقعات التي أخفق فيها المسلمون . ويظهر فيها استشعار الخطر المحدق ، وإلحاح ذلك على وعي الشاعر الذي تردى في هوة اليأس ، وأدركه القنوط . وتخلل ذلك حسرة مريرة على موقف الخليفة الموحدى — وهو العادل (٧) — الذي آثر النجاة بنفسه على نصرة المسلمين .

- ١ — ينفرد صاحب الروض المطار بما يقدمه عن معركة « عَفْص » و « طَلْيَاطَة » ولكنه لم يحدد تاريخهما بدقة ، فأحياناً — يجعلهما سنة ٦٢١ هـ ، وأحياناً سنة ٦٢٢ هـ . انظر : الروض المطار : مادة طَلْيَاطَة ، ص ٣٩٥ ، ومادة عَفْص ، ص ٤١٥ .
- ٢ — طَلْيَاطَة : بينها وبين أشبيلية ما يقارب عشرين ميلاً . الروض المطار : مادة طَلْيَاطَة ، ص ٣٩٥ .
- ٣ — عَفْص : بالقرب من مرسية . الروض المطار : مادة عَفْص ، ص ٤١٥ .
- ٤ — لَوْشَة : — من أقاليم البيرة . الروض المطار : مادة لَوْشَة ، ص ٥١٣ .
- ٥ — قِيحَاطَة : أو قِيحَاطَة ، مدينة بالأندلس من عمل جيان . الروض المطار : مادة قِيحَاطَة ، ص ٤٨٨ .
- * البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٩ ، القرطاس : ص ٢٤٦ .
- ٦ — الروض المطار : مادة عَفْص ، ص ٤١٦ .
- ٧ — هو عبدالله بن يعقوب المنصور بوع سنة ٦٢١ هـ ، وتوفي سنة ٦٢٤ هـ . انظر : القرطاس : ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

وقد اعتمدت المقطوعة المزاجية بين إظهار الحزن وتصوير الواقع المؤلم بصورة بسيطة خالية من التكلف ، لذلك جاءت كأنها « رواية تاريخية » لا قطعة شعرية .

وفي أوائل سنة ٦٢٧ هـ احتل الصليبيون مدينة بطليوس بعد معركة عنيفة (١) وقد بعث أبو المطرف بن عميرة رسالة إلى أهل بطليوس معزيا لم يبق منها إلا قوله :

ولم أرَ مثل الحقِّ أمّا طريقُهُ فأمّن ، وأمّا جاره فعزيرُ
إذا ما امروء آوى إليه فحصنهُ حصين ، ومأواه المباح حريزُ
فكن معه تظفرًا بما شئت من منى مصارفها بالصالحاتِ يفوزُ
ومن خيرٍ ما حازَ الفتى الصبرَ أنّه أداةٌ لموفورِ الثوابِ تحوزُ
رأينا التقى كنزاً يدوم الغنى به إذا فويت للموسرين كُوزُ
وكأئن رأينا من حوادثٍ أقبلت فللخلقِ تصریحٌ بها ورُموزُ
تُقابلُ بالتسليمِ لله وحده فتمضي ولم يشعرُ بها وتجاوزُ (٢)

ويظهر من الأبيات أن ابن عميرة بحكم ثقافته الفقهية آثر النصح والارشاد على تصوير محنة المسلمين في بطليوس . فقد حث في أبياته على اتباع الحق والالتزام به لأنه الحصن الذي يقي الانسان ، ويحقق له الأمن . ودعا كذلك إلى الصبر على المصائب ، والأخذ بأسباب التقوى ، والتسليم لأمر الله وقضائه . وأحال أن ابن عميرة في موقفه التألمي هذا يستوحى حال المسلمين في الأندلس . فهم لم يفضوا إلى مثل هذه الحالة إلا لأنهم حادوا عن الحق ، وأتبِعوا السبيل ، ففترقت بهم عن طريق الله القويم .

١ - انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٧٠ .

٢ - تحفة القادم ، نشر في مجلة المشرق ، بيروت ، مجلد ٤١ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٧٧ .

وفي يوم الخميس الموفى عشرين من ذي الحجة عام ٦٣٤ هـ وقعت بين المسلمين والصلبيين معركة أنيشة « أنيجه » (١) على مقربة من بلنسية . وقد اشترك في هذه المعركة جملة من علماء بلنسية من بينهم كبير علماء الأندلس ومحدثها أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي .

قاتل الفريقان ببسالة ، وانتهت المعركة بأن أصيب المسلمون بهزيمة فادحة قتل فيها جملة كبيرة منهم . وكان من بين القتلى جملة كبيرة من علماء بلنسية ووجوهها وصلحائها ، وفي مقدمتهم أبو الربيع (٢) .

وقد قال ابن الأبار قصيدة في هذه المعركة يرثي أبا الربيع ومن استشهد معه بدأها بقوله :

أَلَمَّا بِأَشْلَاءِ الْعُلَى وَالْمَكَارِمِ تُقَدُّ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ
وَعُوجًا عَلَيْهَا مَأْرِبًا وَحَفَاوَةً مَصَارِعَ غَصَتِ بِالطَّلَى وَالْجَمَاجِمِ
نَحِيْبِي وَجَوْهًا فِي الْجَنَانِ وَجِهَةً بِمَا لَقِيَتْ حَمْرًا وَجَوْهَ الْمَلْحَمِ

وندرك من هذه الأبيات كثرة قتلى المسلمين في هذه المعركة ، واستشعار ابن الأبار فداحة المصيبة . فقد غصت الأرض بالأجساد الممزقة ، والجماجم المفلقة ، والوجوه المخضبة بالدماء .

ويشيد الشاعر بمناقب هؤلاء الشهداء مركزا إشادته على شجاعتهم في هذه المعركة وحسن بلائهم فيها :

تَسَاقَوْا كَثُورَسَ الْمَوْتِ فِي حَوْمَةِ الْوَعْمَى فَمَالَتْ بِهِمْ مِيلَ الْغُصُونِ التَّوَاعِمِ
مَضَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَدَمَا كَأَنَّمَا يَطِيرُونَ مِنْ إِقْدَامِهِمْ بِقَوَادِمِ
يَرُونَ جَوَارِ اللَّهِ أَكْبَرَ مَعْنَمِ كَذَاكَ جَوَارُ اللَّهِ أَسْنَى الْمَعَانِمِ

١ - أنيشة أو أنيجه : - موضع على مقربة من بلنسية . الروض المعطارة : مادة أنيشة ، ص ٤١ .

٢ - انظر : الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٨٩ - ٩٠ ، الروض المعطار : مادة أنيشة ، ص ٤١ .

وفي القصيدة ذكر ليوم المعركة ، وهو يوم الخميس ، وإشارة إلى المكان الذي وقعت فيه ، « أنيشة » :

أضاعهم يوم الخميس حفاظهم وكرههم في المأزق المتلاحم
أصيبوا وكانوا في العبادة أسوء شبابا وشيئا بالعواشي العواشم
ويتخلص الشاعر تخلصاً حسناً من رثاء الشهداء عامة إلى رثاء أبي الربيع
الكلاعي فيصور عظم مصيبة الأمة به ، وفداحة خسارتها بهذا الشهيد الذي يشق
على الإسلام موته :

وبين الثنايا والمخارم رمة سرى في الثنايا طيها والمخارم

* * *

يشق على الإسلام إسلام مثلها إلى خامعات بالفلا وقشاعم

* * *

فوأسفا للدين أعضل داؤه وأيأس من حاسر لمسراه حاسم
ويشير الشاعر صراحة إلى استشهاد أبي الربيع الكلاعي عندما يذكر اسمه في
القصيدة :

سلام على الدنيا إذا لم يُلخ بها محيّا سليمان بن موسى بن سالم
وتمضي القصيدة على هذا النحو من البكاء ، والتفجع ، وتصوير المحنة ، والإيحاء
بفداحة المصيبة ، دون أن يجد القارئ فيها وصفا لوقائع معركة ، أو تصويراً لحدث
معين . ولولا ذكر المكان الذي وقعت فيه المعركة ، وذكر اسم الشهيد الكلاعي لما
استطاع الدارس أن يحدد الحدث الذي قبلت فيه .

ومع ذلك فإن بعض المعلومات التاريخية المفيدة وردت في القصيدة . مثل :
كثرة القتلى من المسلمين ، وشجاعتهم وبسالتهم ، واشتراك الكلاعي في المعركة ،
واستشهاده . كذل فإن في القصيدة إيحاءات بالجو العام الذي خيم على الأندلس

بعد هذه المعركة التي أظهرت صعوبة في الموقف ، لذلك فقد بدا الشاعر قلقاً على المستقبل متوجساً منه ، حيث قال :

فهاناً ذا في خوفٍ دهرٍ مُحارِبٍ وكنْتُ به في أمنٍ دهرٍ مُسالمٍ (١)

وقد قال أبو المطرف بن عميرة قصيدة رثى فيها الكلاعي بدأها بقوله :

ألا مُسعِدٌ أو الأَصاحِبُ لذي نَصِبٍ هَمَّه ناصِبٌ (٢)

والقصيدة في مجموعها قصيدة رثاء يظهر فيها الشاعر حزنه ولوعته على أبي الربيع ، ولم نجد فيها ما يشير إلى موقعة معينة .

وقد نحأ أبو الحسن بن شلبون (٣) نحو ابن عميرة في قصيدة قالها تبدأ بما يلي :

خطبُ الخطوبِ دهى العلاء مصابُه فابدأ بدمعِك أن يقَلَّ مصابه (٤)

وفي سنة ٦٣٥ هاجم ملك أرغون مدينة بلنسية ، وكان معه كثير من الجنود الوافدين ، منهم حشود المتطوعة الفرنسيين ، وآخرون من جنوة (٥) .

ضربت القوات الغازية حصاراً عنيفاً حول تلك المدينة ، وما زال المسلمون تحت ذلك الحصار « تنقص أعدادهم ... إلى أن نفذت الأقوات ، واستولى الجوع ، وضعفت القوى ، وأكلت الجلود ... وبلغ الكتاب أجله » (٦) ؛ فكانت المروضة على تسليم المدينة يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٣٦ هـ (٧) .

- ١ - الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠ - ٩٥ ، المرقبة العليا : ص ١٢٠ - ١٢٢ .
- ٢ - رسائل أبي المطرف : ورقة ١٩٦ وما بعدها ، صفة جزيرة الأندلس : ص ٣٤ .
- ٣ - هو أبو الحسن علي بن لب بن شلبون الماغري . من أهل بلنسية ، مات سنة ٦٣٩ هـ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٧٤ .
- ٤ - تحفة القادم ، نشر في مجلة المشرق ، بيروت ، مجلد ٤١ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٧٨ .
- ٥ - تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠١ .
- ٦ - أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٧٣ .
- ٧ - التكملة : ج ٢ ص ٦٤٠ ، الحلة السبواء : ج ٢ ص ١٢٧ ، النفع : ج ٢ ص ٥٩٠ ، أزهار الرياض : ج ٣ ص ٢٠٥ ، عنوان الدراية : ص ٣١١ ، مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٢٢ .

كان لسقوط هذه المدينة أصداء واضحة في الشعر الأندلسي ، فقد طفق الشعراء يرثون هذه المدينة ويحتون على إنقاذها . من ذلك قصيدة لشاعر مجهول قالها مخاطبا صاحب افريقية أبا زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص . وقد استهلها الشاعر بحثه على التوجه لإنقاذ عموم اندلس :

نادتك أندلسٌ فلبّ نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها
واشدّد بجلبك جرد خيلك أزرها تردّد على أعقابها أرزاءها
هي دارك القصوى أوت لإيالة ضمنت لها مع نصرها ايواءها

وتفتح القصيدة منذ البداية على تصوير محنة الأندلس عامة ، فالبلاد في حالة هلع ، وقد أحاطت بها الأرزاء من كل ناحية . لذلك لم يأل الشاعر جهدا في اصطناع أية وسيلة لإثارة الأمير الحفصي ، وحثه على إنقاذ البلاد ودفع طواغيت الصليب عنها . ونستشف من الأبيات تحوّل الأندلس عن الدولة الموحدية إلى الدولة الحفصية ، واعترافها بدعوتهم .

ويوجه الشاعر الأمير الحفصي الى تصور الضيق الذي يعاني منه المسلمون في الأندلس ، فيقول :

وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى سبيل الضراعة يسلكون سواءها
خلعت قلوبهم هناك عزاءها لما رأت أبصارهم ما ساءها
دفعوا لأبكار الخطوب وعونها فهم الغداة يصابرون عناءها

وتصور هذه الأبيات الأوضاع العامة للمسلمين في الأندلس بعد سقوط مدينة بلنسية . فهم يدفعون إلى الحرب دفعا ، ويكابدون عناءها ، وقد دب اليأس في قلوبهم عندما رأوا ما حل بهم . ولا يملكون غير التضرع والتذلل شيئا .

وندرك خطورة الوضع في الأندلس من الأبيات التالية التي تحذر من مأساة

رهيبة :

تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا لم يضمن الفتحُ القريبُ بقاءَها

* * *

أشفي على طرف الحياة ذمائها فاستبق للدين الحنيف ذمائها

وكأنني بالشاعر يحمل الأمير الحفصي بوصفه القوة العسكرية والسياسية القادرة
حينئذ مسؤولية إنقاذ الأندلس ، والدفاع عنها ، لذلك فقد بصّره بواقعها ، وحدّره
من التباطؤ في التوجه إليها ، فهي لم يبق فيها إلا رمق من حياة .

وبعد ذلك يلتفت الشاعر إلى مدينة بلنسية ؛ فتثير الحسرة في نفسه ،
ويتساءل عن سبل الخلاص ، وهو في تحسره يقدم لنا هذه المدينة في مجموعة من
ذكرياته وعهوده فيها :

إيه بلنسية وفي ذكراك ما يُمري الشؤونَ دماءها لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد شبّ الأعاجم دونها هيجاءها
وإلى ربي وأباطح لم تعرّ من حُلل الربيع مصيفها وشتاءها
طاب المعرّس والمقيلُ خلالها وتطلعت غررُ المني أثناءها

ويصل اضطراب الشاعر وانفعاله مداه حين عجز عقله عن إدراك حقيقة
دخول الكفار بلنسية مع أنها « جنة » على حد قوله :

عَجِباً لأهل التار حلوا جنةً منها تمدّ عليهم أفياءها
ويصوّر الشاعر بعض فظائع الصليبيين في مدينة بلنسية :

أما العلوج فقد أحالوا حالها فَمَنِ الميطقُ علاجها وشفاءها !؟
أهدى إليها بالمكاره جارح للكفر كره ماءها وهواءها (١)

وتمضي القصيدة على هذا النحو من الحث والبكاء وتصوير المحنة . وهي سهلة سائغة ، خالية من الافتعال والتكلف ، تقوم على المرواحة بين الإثارة والتفجع والسردي القصصي ، لذلك فقد قدمت محنة بلنسية خاصة ، والأندلس عامة في حرارتها التاريخية .

وقد كان أبو المطرف بن عميرة من أكثر الشعراء إحساسا بفاجعة المسلمين في بلنسية . فقد أسلمه ذلك لساعات وجد عنيفة . ولعل حب الشاعر لهذه المدينة بحكم تجاربه فيها مع ما طبعت عليه نفسه من رقة واحساس ، جعله يعيش في مثل هذه الأجواء الحزينة .

ومن القصائد التي قالها قصيدة ضمن رسالة نثرية ، وقد استهلها بمقدمة وجدانية مؤثرة :

ألا أيها القلبُ المصْرَحُ بالوجد أما لك من بادي الصَّبابة من بُدْ ؟
وهل من سلوٍ يُرتجى لمتيمٍ له لوعة الصَّادي وروعة ذي الصدِّ ؟
يحنّ إلى نجدٍ وهيهات حرّمتُ صروفُ الليالي أن يعودَ إلى نجدِ
فيا جبلَ الرِّيان لا ربي بعدما عدت غيرَ الأيام عن ذلك الوردِ
ويا أهل ودي والحوادثُ تقتضي خلوي عن أهل يُضاف إلى الودِّ

فقد ران على ابن عميرة حزن عميق ملك مشاعره ، وأخذ عليه أقطار نفسه ، فتبدى في الأبيات السابقة إنسانا مأزوما دائم البكاء والصبابة ... ويبحث عن الجلد والبصير ، و « يحن إلى نجد » رمز الهدوء والطمأنينة النفسية . ومرّد هذا الحنين هو شعور ابن عميرة بالخوف والقلق . وهي أجواء نفسية عامة خيّم على الأندلس آنذاك .

ويظهر الشاعر اندماجه التام في الجماعة الإسلامية ، ويتحدث بلسانها حين جعل سقوط بلنسية فاتحة المصائب على بلاد الأندلس :

أمن بعد زره في بلنسية ثوى بأحنائنا كالتار مضمرة الوجد
يرجى أناس جنة من مصائب تطاعن فيهم بالثقف الملد

ويتردد الشاعر بين الرجاء واليأس ، والأمل والقنوط ، حين يستشرف آفاق مستقبل مدينة بلنسية من خلال وضع المسلمين السيء :

ألا ليت شعري هل لها من مطالع معادٍ إلى ما كان فيها من السعد

وتتبي القصيدة بيت مكتنز بالإيحاء والإثارة ، حيث يستنكر الشاعر ما لحق المسلمين في مدينة بلنسية دوغما ذنب اقترفوه :

وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم فصاروا إلى الإخراج من جنة الخلد؟^(١)

وهناك قصيدة أخرى قالها المطرف في المناسبة نفسها بدأها بقوله :

ما بال دمعك لا ينني مدرأه أم ما لقلبك لا يقر قرأه
اللوعة بين الضلوع لظاعن سارت ركائبه وشطت داره
أم للشباب تقاذفت أوطأه بعد الدتو وأخفقت أوطأه
أم للزمان أتى بخطب فادج من مثل حادثه خلت أمصاره
بحر من الأحزان^(٢) عب عبائه وارتح ما بين الحشا زحاره

ونستشف من الآيات الأحوال النفسية للمسلمين في الأندلس ، وهم يعانون وطأة الصليبيين وذل الهزائم . وهذه أحوال لا نستطيع أن نجد لها المصادر التاريخية

١ - النفع : ج ٢ ص ٢٢٥ .

٢ - ورد في أعمال الأعلام : الأشجان .

بمثل هذا الإيجاء . فالأبيات تصور انسانا يعيش في « بحر من الأحزان » مضطربا ، كثير البكاء ، شديد الوجد والصبابة ، ويبحث عن الخلاص من هذه الحالة ، إلا أنه لا يعرف لها علة أو سببا .

ويصوّر الشاعر الوضع الغريب في مدينة بلنسية بعد احتلالها بعبارات مؤثرة :

أما بلنسية فمشوى (١) كافرٍ حفت به في عقرها (٢) كفّاره
زرع من المكروه حلّ (٣) حصّاده عند (٤) الغدوّ غداة لَجّ حصّاره
وعزيمة للشرك جفّجَع بالهدى أنصارها إذ خانه أنصاره

فقد أصبحت هذه المدينة مشوى للكفر الذي حف بها من كل الجهات ، في الوقت الذي تحاذل فيه المسلمون عن نصر دينهم ، والدفاع عنه ، وجهاد أعدائه .

ويتضح مقدار الألم الذي اعتصر ابن عميرة عندما يتساءل عن السبيل إلى الصبر على ما حلّ بالمسلمين ، ويودع ذلك قلقه وتحفزه لادراك الثأر :

قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا آثاره ، أم (٥) كيف يدرك ثاره ؟

ويتردى ابن عميرة في هوة اليأس حين يقارن بين حال المدينة قبل الاحتلال وحالها بعده ، ويدرك أن لا أمل في انقشاع الغمة عن بلنسية :

١ — ورد في تحفة القادم « بمشوى » .

٢ — ورد في تحفة القادم « غفرها » .

٣ — ورد في تحفة القادم « جل » .

٤ — ورد في تحفة القادم والرسائل « بيد » .

٥ — ورد في تحفة القادم والرسائل « أو » .

٦ — ورد في تحفة القادم « تحبا » .

ما كَانَ ذاك المِصرَ إِلَّا جَنَّةً للحسن تجري تحتَه (١) آثارُه

* * *

طابت (٢) بطيب بهاره آصالُه وتِعَطَّرَتْ بنسيمه أسحاره (٣)

* * *

قد كان يشرق بالهداية ليله والآن أظلم بالضلال نهارة
ودجا به ليل الخطوب فصبحه (٤) أعيا على أبصارنا إسفاره (٥)

ولابن عميرة أبيات أخرى « فيها استسقاء للديار على عادة الأشعار » (٦) قالها
في محنة مدينة بلنسية :

زُدنا على النائين عن أوطانهم وإن اشتركننا في الصباية والجوى
إنا وجدناهم قد استسقوا لها من بعد أن شطت بهم عنها النوى
ويصدنا في ذلك عن أوطاننا مع حبها الشرك الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا لعدونا ، أفيستقيم لها الهوى ؟ (٧)

١ - ورد في تحفة القادم « تحتها » .

٢ - ورد في تحفة القادم « طافت » .

٣ - ورد في الروض المطار وأعمال الأعلام : « أشجاره » .

٤ - ورد في صفة جزيرة الأندلس ، وأعمال الأعلام وتحفة القادم « بصيحة » .

٥ - انظر القصيدة في : - صفة جزيرة الأندلس : ص ٥١ ، الروض المطار : مادة بلنسية ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، رسائل أبي المظرف ، مخطوط ورقة ١٤٠ ، تحفة القادم ، نشر في مجلة المشرق ، بيروت ، مجلد ١ ، سنة ١٩٤٩ ص ٥٧٦ - ٥٧٧ .

٦ - النفع : ج ١ ص ٣١٠ .

٧ - النفع : ج ١ ص ٣١٠ .

وفي تعليق « صاحب النّفح » على هذه الأبيات ما يوفي بالغاية ، حيث قال : — « وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات بمعناها ، العالية في مبنائها ، فإنّ فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى — دمرهم الله — على تلك الدّيار ، وثبوت قدمهم فيها على طبق ما حصل لهم فيه اختيار ، مع إدماج حبه لها الذي لا يشك فيه ولا يرتاب ، واشتمالها على المحاسن التي هي بغية الرائد ونجعة المتتاب » (١) .

وبعد ، فهذا بعض ما قاله ابن عميرة في سقوط مدينة بلنسية . وهذا الشعر ذو قيمة خاصة في دراسة الأجواء النفسية التي كانت سائدة في عموم الأندلس بعد غلبة الكفار على بعض مدنها الكبرى ، فهو يصور اضطراب المسلمين وجزعهم ، وتشتت أنفسهم ، ويأسهم ، والحزن العميق الذي ران على قلوبهم . فابن عميرة في القصائد السابقة لم يكن مؤرخا ولا مصورا ، وإنما كان متفاعلا مع الحدث ينقل أصداءه ، ويستكنه جوانبه وأبعاده ... لذلك جاءت أبياتها حية مؤثرة ، تصوّر النفوس القلقة والفازعة أحسن تصوير .

وفي أواخر سنة ٦٤٢ هـ انعقدت بين ابن الأحمر وملك قشتالة هدنة كان من شروطها تسليم مدينة جيان الإسلامية لهذا الملك الصليبي (٢) . وقد أنشد بعض أهل جيان عند الخروج منها بعد أن تغلب العدو عليها البيتين التاليين :

أودّعكم وأودّعكم جناني (٣) وأنثر عبرتي نثر الجمان
وإني لا أريد لكم فراقاً ولكن هكذا حكم الزمان (٤)

وترديد هذين البيتين يمكن أن يكشف الانفعال الوجداني العميق الذي تملك الشاعر الذي قبل أن يفارق وطنه ظاهرا ، ولكنه يرفضه رفضا قلبيا .

-
- ١ — النّفح : ج ١ ص ٣١٠ .
٢ — انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٦٧ ، الأحاطة : ج ٢ ص ٩٩ .
٣ — ورد في صفة جزيرة الأندلس « أودعكم أودعكم جاني » .
٤ — انظر : الروض المطار : مادة جيان ، ص ١٨٤ ، صفة جزيرة الأندلس : ص ٧٢ .

ويستشف من السياق الشعري سياسة الصليبيين في إخلاء البلاد الإسلامية من أهلها ، وإرغامهم على الهجرة منها ، والابتعاد عنها .

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان عام ٦٤٦ هـ كان استيلاء ملك قشتالة على مدينة إشبيلية سلماً ، وذلك بعد أن ضرب حولها حصاراً برياً وبحرياً استمر عاماً ونصفاً (١) .

وقد نظم أبو موسى هرون بن هرون قصيدة يرثي أهل إشبيلية ، ويصف ما نالهم من الكروب الشداد ، ويحرض المسلمين على الجهاد . والقصيدة تبدأ بمقدمة وجدانية جاء فيها :

يا حمصُ أَقْصَدِكِ المَقْدُورُ حينَ رَمَى لم يَرعَ فيكَ الرَّدَى إِلَّا ولا ذِمَمَا
جَرَّتْ عَلَيْكَ يَدٌ لِلدَّهْرِ ظالِمَةٌ لا يَعدُلُ الدَّهْرُ في شيءٍ إِذا حَكَمَا
ما كُنْتُ أَحسَبُ أَنَّ الحادِثاتِ إِذا هَمَّتْ بِكَ السَّوءُ لا تَلقِي لَكَ السَّلَمَا
ولا توهَّمْتُ ذاكَ الحَسَنِ يَطمِسُهُ رَبُّ الزَّمانِ وَيَكسو نورَهُ الظَّلَمَا

ويظهر منذ البداية إحساس الشاعر بمصيبة مدينة إشبيلية التي جرت عليها يد الدهر ، وسلبتها حسننها وبهاؤها ، وأفقدتها جمالها وصفاءها . وقد بدا الشاعر حزينا متفجعاً ، ناقماً على الأيام سوء صنيعها في هذه المدينة .

ويقدّم الشاعر في الأبيات التالية تحليلاً لأسباب نكبة المسلمين في الأندلس عامّة ، وإشبيلية خاصّة :

يا جَنَّةَ زَحَرَحَتْنَا عن زَخارِفِها ذنوبنا فلزنا البثَّ والنَدَمَا
لما تفرقت الأهواء واضطرمَّت نار البغاة فقامت للرَّدَى عِلَمَا
ونوزع الأبر أهلوه وقامَ بِهِ من لم يَجد قَدَمًا فيهِ ولا قَدَمَا

١ - انظر : - الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ ، ص ٥٥١ ، أعمال الأعلام : ج ٢ ص ٣٣٢ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٠٥ ، التكملة : ج ٢ ص ٩٠٣ ، النفع : ج ٤ ص ٤٧٢ - ٤٧٣ ، البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٨١ - ٣٨٥ ، الروض المطار : مادة إشبيلية ، ص ٦٠ .

ثارت حفاظُ للتثليثِ فابتدروا وأيقظوا من سنات الغفلةِ الهمما
وأنشروا ميّت الأحقاد بينهم ولو أطاقوا لعمرى أنشروا الرّمما
ويمّموا حمصَ في جمع يضيق به ذرعُ الفضاء فسوى الوهدَ والأكما

والشاعر في الأبيات السابقة يعرف موطن الداء الذي أصاب المسلمين في
الأندلس . فقد أغرى الأعداء بهم تفرّق أهوائهم ، وتناحرهم ، وتقاتلهم ،
وتصارعهم على السلطان ، وضعف قياداتهم . ولم يغفل الشاعر العلاقة بين ذنوب
المسلمين والمصائب التي حلّت بهم ، بل أنه يتخذ من ذلك حافزا خلقيا لتذكيرهم
بكثرة ذنوبهم التي كانت سببا في إخفاقهم وخسراتهم المبين .

ويمكن ان نستشفّ من الأبيات ضخامة الجيوش الصليبيّة التي اشتركت في
احتلال مدينة إشبيلية .

وقد تحدّث المؤرخون عن محاصرة الصليبيين مدينة اشبيلية ، وتشديدهم
عليها ، وإحاطتهم بها من كلّ الجهات^(١) . وقد أشار إلى عنف هذا الحصار قائلا :
وقد أحاطت بنا الأعداء فاعرة أفواهاها تبتغي أرواحنا طعما

وإذا كانت فظائع الصليبيين في مدينة إشبيلية تدعو إلى المبالغة في الوصف
والقول ، كذلك فإنّ نظر الشاعر الدائب في قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة
أضفى على قصيدته نزعة مأساوية حزينة ، وقدرة على الإثارة ، وبراعة في تصوير مناظر
القتل والأسر والجرح والتدمير والتخريب التي عانت منها مدينة إشبيلية^(٢)

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨١ .

٢ - انظر ص ١٤٦ - ١٤٧ من هذه الدراسة .

ويصف الشاعر سوء الأوضاع في الأندلس وتردّي الأحوال فيها ، ويحمّل المسلمين مسؤولية الدفاع عنها ، وإنقاذها من الكفر الذي أَرهق أهلها ، وتركهم جثة هامدة ، وجعلهم « في وجود يشبه العدم » . والشاعر في ذلك لم يترك للمسلمين عذرا في التأخر عن إنقاذ الأندلس وإبقائها مسلمة للكفر :

ماذا يبطئكم عنّا وحولكم إنّ تُبصروا ، دار قوم أصبحت رمما
لا عذر في تركها للكفر مُسلمة إنّ الزمان وأنتم فيه ما عقمّا
لم يبقَ فينا سوى الأنفاس خافتة فكلّنا في وجود يشبه العدمّا

ويصور الشاعر موقف العالم الإسلامي في المغرب من الأندلس آنذاك ، فهم يستغيثون ... ولكن لا يجيب لهم :

كم نستغيث ولا أنصار يُصرخنا ونستطبّ لداء طالما حسما^(١)

تلك هي قصيدة أبي موسى بن هرون ، وقد ذهبت كلاما يزجي فلا يجد سميعا^(٢) . والقصيدة في جملتها انفعالات متأججة ، صادرة عن نفس متحرقة متحسرة ، تعتب على الضياع وتدعو إلى دفع الأخطار ، وتعبر عن مشاعر أمة أضعفتها الخلافات ، وأوهنها التمزق ؛ ولذا جاءت القصيدة قويّة التأثير ، بعيدة الغور في نفس السامع ، بحيث تنقله إلى أجواء الحدث ، وبهذا يكون أبو موسى بن هرون نقل محنة اشبيلية في زخمها التاريخي .

وبعد ، فهذا حديث الشعراء عن الصراع الذي احتدم بين المسلمين والصلبيين في الأندلس على عهد الموحّدين . فقد واكب أولئك الشعراء الأحداث الكبرى لهذا الصراع ، فسجلوها وتغنّوا بها كلّما حانت لهم الفرصة للغناء ، وحثوا المسلمين على الجهاد كلّما استشعروا الخطر المحدق ، وبكوا حينما رأوا اندثار عقد الجزيرة الأندلسية وتساقط مدنها .

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٢ - ٣٨٥ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٥ .

لذلك فإنه يمكن أن نستقرئ قسما كبيرا من أحداث الصّراع من خلال الشعر بشكل يوازي استقراءها من المصادر التاريخية ، « مع الأخذ بعين الاعتبار ، الفرق في طبيعة التسجيل ، ما بين رصد المؤرخ للأحداث ، وانفعال الشاعر بها » (١) .

إلا أنّ قسما كبيرا من القصائد الجهادية التي واكبت أحداث الصراع ، كان من الشعر الحماسي ذي المذاق الواحد ، الذي يختلط فيه حدث بحدث ، بحيث لا يستطيع المرء أن يميّز حادثة عن أخرى . فهذا الشعر — غالبا — ينقصه التحديد الدقيق للواقعة ، وبارازا تفصيلات خاصة بها .

ولعلّ هذا يعود إلى أنّ الشعراء الذين نظموا القصائد الجهادية لم يشتركوا في المعارك . لذلك فهم حين يكتبون عن وقعة ما يعتمدون على خيالهم وعلى ما سمعوه عن تلك الوقعة .

وقد يعود انصراف الشعراء عن وصف الأحداث ، والتفصيل فيها ، إلى أنّهم اهتموا بإعلان نبأ المعركة ، ونتيجتها على الأمة ، في وقت كان الشعر فيه من أهم وسائل الأعلام .

وقد يكون انكباب الشعراء على التراث الشعري الموروث ، باعتباره مثلا أعلى يمكن أن يحتذى ، من الأسباب التي أفقدت قسما كبيرا من شعر الجهاد سمة الواقعية في الوصف .

ثمّ أنّ قسما كبيرا من الشعر يرتبط فيه تصوير الواقعة بالحديث عن دور القائد فيها ، وهنا تتحوّل القصيدة إلى معرض إشادة بذلك القائد ؛ ويترتب على ذلك إغفال الحدث ، وعدم تسليط الأضواء عليه* .

١ — صدى الغزو الصليبي : ص ١٣٦ .

* انظر : كتاب صدى الغزو الصليبي ص ١٣٦ وما بعدها .

الفصل الخامس

تقييم شعر الجهاد

أ - دور الشعر في الصّراع

ب - الأداء الفنّي :

- ١ - بناء القصيدة .
- ٢ - الصورة الشعرية .
- ٣ - الاحتذاء والتقليد .
- ٤ - أثر مقاييس العصر الأدبية .

أ - دور الشعر في الصراع :

تعدى الشعراء في عهد الموحّدين مهمّة النقل والسرّد لأحداث القتال إلى اتّخاذ مواقف تساند الأمتّة في صراعها العسكري .

ومن هذه المواقف : - الحثّ والإثارة ، وبثّ دعوة الجهاد بين الأمتّة ، وذلك للوقوف في وجه العدوان ، وإنقاذ الحواضر الإسلاميّة من خطر الغزو الصليبي .

وقد تراوحت دعوات الاستشارة والتحريض بين الشدّة والشعور بالثقة حين يكون المسلمون في مركز قوّة ، والتفجّع والتألّم حين يكون المسلمون في حالة ضعف . ومع ذلك ، فإنّ المسلمين لم يفقدوا الأمل في النصر في الحالة الأخيرة .

فهذا ابن المنحلّ الشلبيّ يضمنّ قصيدته التي قالها في حركة عبد المؤمن إلى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ ، دعوة قوية مباشرة إلى الجهاد ، وخلال ذلك يصرّه بقوّة المسلمين التي تحقّق اهدافهم التي يسعون إليها ، مؤكداً له أنّ القوّة كفيلة باستباحة ممالك الأعداء ، والتغلّب عليها . يقول :

فتحتمّ بلاد الشرق فاعتمدوا الغرّبا فإنّ نسيم النصر بالفتح قد هبّا
أصرّتمّ إليه الخيل وهي أجادل فسالت بكم بجرأ وطارث بكم ركبا

* * *

أقيموا إلى ابن الرّيق بعد صدورّها وليس عليكم أنّ تُرى ضمّرا قبا
رعتها الفيا في فاستدقتّ جسومها بما قد رعّت فيها الكلا يابسا رطبّا
عليها رجال كالقذاج ، وإنما يكونون في الهيجاء هندیة قضيّا

فإن تبدأوا بالغرب فالفتح واضح وأن نجوم الدين طالعة غربا
ضمانا عليكم أن تبيحوا حريمه وأن تكسروا فيها التماثيل والصلبا (١)

وقد كان إيمان أبي الربيع الموحد بختمية الظفر على المشركين ، وثقته بقوة
المسلمين دافعا قويا جعله يلح على الخليفة المنصور في تنفيذ العزم على جهاد
الأعداء ، حيث قال :

جيش الضلال بجيش الحق مهزوم فنفيذ العزم إن الفتح محسوم
وجس بعسكرك المنصور محتكما أرض العدا فالذي عودت معلوم
صيمم لفتح يرى في الدهر نادرة فكم أتاك به عزم وتصميم

* * *

من ذا يرُدُّ جنودَ الله يقدّمها حيث انتحيت بها للنصر حيزوم
جيش تصدى لدين الله ينصره من يُحرم الغزو فيه فهو محروم (٢)

وقد تنوعت أساليب الاستثارة التي لجأ إليها الشعراء لحفز الهمم ، وتعبئة
المشاعر . وهي أساليب مرتبطة ارتباطا وثيقا بطبيعة الصراع العقائدي . فمن جهة
فإن وضع الصراع في إطاره الاسلامي الشامل كان كفيلا بتعبئة مشاعر الأمة ،
واستقطاب طاقاتها على درب الجهاد .

كذلك ، فقد ركز الشعراء في قصائدهم على أن الإسلام يواجه عدوا متسلحا
بالقوة والعتاد يريد أن يقضي عليه ؛ لذلك أسهبوا في الحديث عن خطر هذا العدو
على الإسلام وأهله وحضارته ، وحذروا المسلمين منه ، ودعواهم للوقوف في وجهه
للقضاء عليه .

١ - المن : ج ٢ ص ١٥٢ .
٢ - ديوان أبي الربيع الموحد : ص ٣٢ .

وقد بدأت دعوة الشعراء الى مواجهة العدوان منذ وقت مبكر . فمما نقل عن القرشي العامري (١) قصيدة طويلة في رثاء الأندلس ، لم يبق منها إلا ثمانية أبيات ، هي :

ألا مسعدٌ منجزٌ ذو فِطْنٍ يكي بدمعٍ معينٍ هَتِنُ
جزيرةَ أندلسٍ حسرةً ألا غالباً من حقودِ الزَمْنِ
ويندبُ أطلالها آسِفاً ويرثي من الشُّعرِ ما قد وهَنُ
ويكي الأيامي ويكي اليتامى ويحكي الحمامِ دواتِ الشَّجْنِ
ويشكو إلى الله شكوى شجٍ ويدعوه في السرِّ ثم العلنِ
وكانت رباطاً لأهلِ التَّقَى فعادتْ مناطاً لأهلِ الوثنِ
وكانت معاذاً لأهلِ التَّقَى فصارتْ ملاذاً لمن لم يَدِنِ
وكانتْ شَجَى في حلقِ العدا فأضحى لهم مالها مُحتَجِنُ (٢)

والقصيدة وإن اتخذت طابع الرثاء للأندلس ، فإنها تحمل في ثناياها دعوة قوية لانقاذها من خطر الصليبيين ؛ فإن فيها ثروة عاطفية حقة قادرة على إثارة المشاعر ، وحفز الهمم . يظهر ذلك في الوصف المؤثر لأوضاع المسلمين في الأندلس وقد أهدق العدو بهم .. والمقارنة بين حالها أيام قوة المسلمين وحالها بعد ضعفهم .. وإبراز خطر الأعداء على التراث الإسلامي ، وجماعة المسلمين الذين قُتل كثير منهم ؛ فكثير الآيامي واليتامى ، وأصبحت البلاد ملاذاً للكفار بعدما كانت عامرة بأهل الإيمان .

١ - سكن إشبيلية ، وكان متفناً في معارفه ، محدثاً ، عدلاً ، فقيهاً ، شاعراً ، كتب بخطه كثيراً من الدواوين . توفي سنة ٥٧٢ هـ . انظر : الإحاطة : ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٧ .
٢ - الإحاطة : ج ١ ص ٣٦٦ .

وعندما حاصر ابن مردنيش وحلفاؤه النصارى بلدة شقر وأطبقوا عليها ، بعث أبو بكر الخزومي رسالة حسنة في الاستصراخ والاستنصار ، أودعها عدة أبيات صوّر فيها الخطر الذي كان يمثله ابن مردنيش على أهل تلك البلدة . فقد أرهقهم وأباح دماءهم ، وضيق الخناق عليهم ، وقذف الرعب في قلوبهم ، حيث قال :

تَدَارِكُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دِمَاءَنَا فَإِنَّكَ لِلْإِسْلَامِ وَالِدِينَ نَاصِرُ
وَوَجَّهَ إِلَى اسْتِنْقَاذِنَا بِكَيْتِيَةٍ يِهَابُ الرَّدَى مِنْهَا الْعَدُوُّ الْمَحَاصِرُ
تُنْفَسُ مِنْ ضَيْقِ الْخِنَاقِ بِأَرْضِنَا فَتَدْرِكُ آمَالَ وَثُرَعَى أَوَاصِرُ (١)

وقد ألحّ الشعراء على انتزاع المعاني التي تصوّر خطر الوجود الصليبي على جماعة المسلمين . فعندما بويغ الخليفة يوسف بالخلافة رفع إليه أبو بكر بن المنخل الشلبي قصيدة هناه فيها ، وقد أودعها وصفا مؤثرا لأوضاع المسلمين في مدينة شلب ، ودعوة قويّة للتوجّه إلى هذه المدينة لصدّ العدوان عنها ، وإنقاذ أهلها :

إِنَّ الْأَعَادِي لَا تَزَالُ كَعَهْدِهَا تُورِي بِشَلَبَ مَغَارِهَا وَكِفَاحِهَا
قَدْ غِيَضَتْ أَنْهَارَهَا ، وَتَحْرَقَتْ أَشْجَارَهَا ، وَتَكْفَأَتْ أَقْدَاحَهَا
كَلَفَتْ بِهَا أَعْدَاؤُهَا حَتَّى لَقَدْ أَخَذُوا عَلَيْهَا نَجْدَهَا وَبِطَاحَهَا
مَا ضَرَبْنَا أَنْ غَلَقُوا مَا حَوْلَهَا إِنْ كَانَ سَيْفِكَ بَعْدَهَا مِفْتَاحَهَا
فَعَلَى سَيْوْفِكَ أَنْ تَبِيدَ كَاتِبَهَا وَعَلَى جِيوشِكَ أَنْ تَرُوحَ سَاحِبَهَا (٢)

وإذا كان الشعراء أبرزوا الخطر المحدق بجماعة المسلمين عامّة ودعوا إلى تداركه ، فإنّ بعضهم صوّر الآلام الشخصية التي يعاني منها من جراء استشهاد

١ - الحلة السّواء : ج ٢ ص ٢٦٩ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

عزيز^(١) ، أو سقوط مدينة^(٢) ، أو تخريب ديار^(٣) ، أو أسر الأعداء . فهذا أبو محمد ابن عذرة^(٤) ، يبعث من موضع أسره في طليطلة عدة أبيات الى الخليفة الناصر يعصّر فيها الضيق الذي يعاني منه ، والآلام التي يكابدها ، والخطر الذي يهدّد حياته :

لَوْ كُنْتُ حَيْثُ تُجِينِنِي لِأَذَابِ قَلْبِكَ مَا أَقُولُ
يَكْفِيكَ مَنِّي أَنْتَنِي مَا أَسْتَقِلُّ مِنَ الْكَبُولِ
وَتَجَاهَ لِحَظِي أَلْفَ لَحْوَ بِكَ كُنِي أَقْرَرٌ وَلَا أَزُولُ
وَإِذَا أَرَدْتُ رِسَالَةً لَكُمْ فَمَا أَلْفِي رَسُولُ^(٥)

ومما قال في أسره :

يَعِصُّ بِرَجْلِي الْحَدِيدُ وَلَيْسَ لِي حَرَاكٌ لَمَّا أَبْغَيْ وَلَا أَتَقَلُّ^(٦)

وإذا كانت هذه الأبيات قد جاءت على هيئة وصف للآلام النفسية والجسدية التي يعاني منها ابن عذرة في أسره ، حيث صور نفسه مراقبا من الأعداء الذين شددوا الحراسة عليه ، مقيدا بكمول الحديد التي أثقلت قدميه ، وأعاقت حركته ... فإن هذه الطريقة في التعبير كانت يومئذ قوية في استشارة العواطف ، وحفز المشاعر ، ومؤثرة في التذكير بالآلام الأسر ، وذلك الاعتقال .

- ١ - انظر : الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠ - ٩٥ .
- ٢ - انظر : الروض المطار : مادة بلنسية ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
- ٣ - انظر : المغرب : ج ٢ ص ٤٤٨ ، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ١٩ .
- ٤ - هو أبو محمد بن عذرة ، أسرته التصاري ، وطالبوه بمال كثير ، فكتب في ذلك لناصر بني عبد المؤمن ، فأمر ألا يسمع منه في إعطاء هذا المال ، لأن فيه تقوية للعدو . انظر : - المغرب : ج ٢ ص ١٤٨ .
- ٥ - المغرب : ج ٢ ص ١٤٩ .
- ٦ - المغرب : ج ٢ ص ١٤٩ .

وقد أنكر أحد المرسيين على الخليفة العادل تقاعسه عن الغزو ، وتأخّره عن
الجهاد ، والمسلمون لا يأمنون على حياتهم :

وليسَ الصليبُ يرى مانِعًا لغيرِ تواترِ إعدامِنَا
وسيدُنَا ناظِرٍ في الجوازِ يرومُ النجاةَ بإسلامِنَا^(١)

وكما حذّر الشعراء من الخطر الصليبي على جماعة المسلمين ، كذلك فقد
أبرزوا خطورة ذلك على الإسلام وتراثه وأرضه .

فقد دعا ابن حربون الخليفة يوسف إلى الجهاد في الأندلس لإعادة سابق
عهدِها إليها ، وإحياء رسوم التابعين وسننهم في تلك الأرض ، التي لا ينفكّ الأعداء
عن العبث فيها ، وتخريب معالمها ، ومكايدة أهلها :

وإتني لأرجو للجزيرة كَرَّةً تُعيدُ عليها عهدَها المتقادِمَا
وأنتَ أمينُ اللهِ تجبرُ صدعَها وإن قالَ قومٌ إنّه قدّ تقادِمَا
وُثحي رسومَ التابعين بأرضِها فها هي تستدعيكَ غيراً طواسِمَا
طلولِ بذاك الثغرِ ما انفكّ هأمُها على البعدِ بَسْتَسْقِي القَنَا واللهاذِمَا^(٢)

وقد تحدّث ابن الأبار بحرقه عن دخول الصليبيين مدن الأندلس ، وتغيير
معالمها الحضارية ، وتحويل مساجدها بيعا ، ودعا الأمير الحفصي إلى الوقوف في وجه
العدوّ ، وإنقاذ البلاد منه :

أذركَ بخيلِكَ خيلِ اللهِ أندلسًا إنَّ السبيلَ إلى منجاتِها درسًا

* * *

١ - الرض المعطار : مادة عفض ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

وحاشي مما تعانیه حُشاشتها فطالما ذاقَتِ البلوى صباحَ مَسَا

* * *

يا للمساجِدِ عادتُ للعِدا بيعا وللنداءِ غدا أثناءها جرسًا

* * *

سرعانَ ما عاثَ جيشُ الكفرِ واحربا عيثَ الدِّبا في مغايبها التي كَبَسَا

ويرتفع صوت الشاعر عاليا عندما يتحدث عن الخطر المحدق بجماعة المسلمين في الأندلس ، ويدعو إلى تدارك حالهم :

يا للجزيرةِ أضْحَى أهلها جزرا للحادثات وأمسى جُدْها نَعْسًا

في كلِّ شارِقِ الإمامِ بائقةً يعود مأتْمها عندَ العِدا عُرْسًا

وكلِّ غاريةِ إجحافِ نائِيةٍ تشي الأمانَ حذارا والسُرورَ أَسَى

* * *

وفي بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ ما يَنْسِفُ النَّفسَ أو ما يَنْزِفُ النَّفْسَا

صلَّ حبلها أبها المولى الكريمُ فما أبقى المِراسُ لها حَبلاً ولا مَرَسًا

وتصوّر هذه الأبيات نكبة الأندلسيين ، ومأساتهم الدامية ، والعدوان الطاغوي عليهم ، والقسوة العارمة التي يؤخذون بها . وقد أودع الشاعر هذه الأفكار في عبارات موحية ذات تأثير مباشر في النفس .

ويستثير ابن الأَبَر حميةَ الأمير الحفصي ونخوته حين يخلع عليه مجموعة من

الفضائل ، ويقصر النداء عليه :

هذي رسائلها تَدْعوكَ من كَثِبِ وَأنتَ أفضلَ مرجوٍ لِمَنْ يَبْسَا

وافتكَ جاريةً بالنجحِ راجيةً منك الأمير الرُّضَى والسَيِّدَ التُّدْسَا

تَوَمَّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبلةً من تربيهِ القُدْسَا

مَلِكُ تَقَلَّدتِ الأَملاكُ طاعتهُ دينا ودُنيا فَعَشَّها الرُّضَى لَبْسَا

ويدعو ابن الأبار الأمير الحفصي إلى تطهير البلاد من رجس الصليبيين ،
ونصرة المسلمين الذين يعانون وطأة الأعداء ، وذلك الهزائم :

طَهَّرْ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ وَلَا طَهَارَةَ إِلَّا لِمَنْ تَغْسِلُ النَّجَسَا
وَأَوْطَىءَ الْفَيْلَقَ الْجَرَّارَ أَرْضَهُمْ حَتَّى يَطَاطَىءَ رَأْسًا كُلَّ مَنْ رَأَسَا
وَانصُرْ عَيْدًا بِأَقْصَى شَرْقِهَا شَرْقَتْ عِيُونُهُمْ أَدْمَعًا تَهْمِي زَكَا وَخَسَا^(١)

وقصيدة ابن الأبار وإن كانت بشكل حثّ على إنقاذ الأندلس ، إلا أنها
تحمل معاني واضحة لثرائها ، مما زادها قدرة على التأثير . والقصيدة « لا تعوزها القوة
ولا الحماس ولا التألّق ولا البلاغة المتقدّمة »^(٢) . لذلك فعندما وصلت الأمير الحفصي
« حرّكت من جناحه أخفض جناح ، ولشغفه بها ، وحسن موقعها منه أمر شعراء
حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غير واحد »^(٣) . ويادر « السلطان بإعانتهم ، وشحن
الأساطيل بالمدد إليهم ، من المال الصامت والأقوات والكسّي »^(٤) .

وقد صوّر ابن سهل تضايق الإسلام وجرحه واستغاثته بالمسلمين ، عندما
اشتدّ العدوان على مدينة إشبيلية :

أَضْحَى الْهَدَى يَشْكُو الظَّمَا وَلَا تَنْتُمْ طَلَّ وَرِيٌّ كَالرَّيْبِ الْمَطْرِ
الدينُ ناداكمُ وفوقِ سروجكمُ غوثُ الصرِيخِ وَبُغْيَةِ الْمُسْتَنْصِرِ
لو صوّر الإسلامُ شخصا جاءكمُ عمدا بنفس الوامق المتحيرِ
لو أنّه نادى لنصرِ خصمكمُ ودعاكمُ : يا أسرتي يا معشري

١ - النفع : ج ٤ ص ٤٥٧ - ٤٦٠ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠١ - ٦٠٤ .
٢ - الأدب الأندلسي في عصر الموحدين : ص ١٣٧ .
٣ - النفع : ج ٤ ص ٤٦٠ .
٤ - النفع : ج ٤ ص ٤٦٠ ، وانظر : مخطوط الحلال السندسية : ورقة ٢٢ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٤٤ .

ويصّر الشاعر المسلمين بالخطر الذي كان يمثله الوجود الصليبي على التراث الإسلامي في الأندلس . فقد غير الأعداء معالمها الحضارية ، وأبطلوا سنن النبي عليه السلام ، وأسكنوا منابر الإسلام :

كَمْ نَكَّرُوا مِنْ مَعْلِمٍ ، كَمْ دَمَّرُوا مِنْ مَعَشِرٍ ، كَمْ غَيَّرُوا مِنْ مَشْعَرٍ
كَمْ أَبْطَلُوا سِنَّ النَّبِيِّ وَعَطَّلُوا مِنْ حَلِيَّةِ التَّوْحِيدِ ذُرُوءَ مِثْبَرٍ

ويتوجه ابن سهل بدعاء مباشر الى المسلمين للخروج إلى جهاد الصليبيين في الأندلس ، مبينا لهم الأجر الذي أعدّه الله للمجاهدين في سبيله :

هَزُّوا مَعَاظِفَكُمْ لِسَعْيِ تَكْتَسِي فِيهِ ثِيَابَ مَثْوِيَةٍ أَوْ مَفْخَرٍ
جِدُّوا وَنَمَّوْا بِالْجِهَادِ أَجُورَكُمْ مَا خَابَ قَصْدُ مُشْمَرٍ وَمِشْمَرٍ^(١)

وقد كان أبو موسى بن هرون قويا في دعوته إلى الجهاد ، مؤثرا في أسلوبه ، صادقا في عواطفه ، عندما وصف مأساة المسلمين في مدينة إشبيلية ، ودعا إلى انقاذها من وحشية الصليبيين . فقد اختار الشاعر ممّا حلّ بمدينة إشبيلية مناظر قادرة على تعبئة المشاعر ، وحفز الهمم ، واستثارة العواطف فصوّر مناظر القتل الجماعي ، والضيق النفسي ، والأسر ... بعبارات مؤثرة تأسر الوجدان ، وتوغر الصدور^(٢) . ويتخذ أبو موسى من ذلك حافزا قويا للاستنجاد بأهل العدو المغربية ، وحثهم على الجهاد :

يَا أَهْلَ وَادِي الْحَمَا بِالْعُدُوِّ انْتَعَشُوا هَذَا الدَّمَاءُ فَقَدْ أَشْفَى بِهِ سَقَمًا
مَاذَا يِطْفِكُمْ عَنَّا وَحَوْلَكُمْ إِنْ تَبَصَّرُوا ، دَارُ قَوْمٍ أَصْبَحَتْ رَمَمًا

١ - ديوان ابن سهل : ص ١٤٠ .

٢ - انظر : ص ١٤٦ - ١٤٧ من هذه الدراسة .

وَحَقَّنَا وَاجِبٌ فَالِدَيْنُ يَجْمَعُنَا
مَعَ الْجَوَارِ الَّذِي مَا زَالَ مُنْتَظِمًا
فَنَحُ الْجَزِيرَةَ مِمَّا سَنَّ أَوْلَكُم
فَلْتُشْبِتُوا لِلْهَدَى فِي أَرْضِنَا قَدَمًا^(١)

وتعاون الأبيات معنى ومبنى على إثارة المشاعر ، وحفز الهمم . فقد بصر الشاعر أهل العدو بواقع الأندلس التي أشفت على الهلاك ، وذكرهم بروابط العقيدة والجوار التي تربطهم بالأندلسيين ، واستوحى مواقفهم الأولى في الدفاع عن الدين الحنيف في تلك البلاد ، ودعاهم إلى مواصلة ذلك .

وقد استغل بعض الشعراء المدح الشخصية لحث الخلفاء والقادة على الجهاد في الأندلس . من ذلك قصيدة لأبي جعفر الوقشي في مدح الخليفة يوسف . وقد خصص منها جزءا كبيرا لحثه على الجهاد في الأندلس :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يُمَدُّ لِي الْمَدَا
فَأَبْصَرَ شَمَلَ الْمُشْرِكِينَ طَرِيدَا
وَهَلْ بَعْدُ يُقْضَى فِي النَّصَارَى بِنَصْرَةٍ
تُغَادِرُهُمُ لِلْمَرْهَفَاتِ حَصِيدَا
وَيَغْزُو أَبُو يَعْقُوبَ فِي شَنْتِ يَاقِبٍ
يُعِيدُ عَمِيدَ الْكَافِرِينَ عَمِيدَا
وَيُلْقِي عَلَى إِفْرَنْجِهِمْ عَبَاءَ كُلْكِيلٍ
فَيَتْرَكُهُمْ فَوْقَ الصَّعِيدِ هُجُودَا
يُغَادِرُهُمْ جَرْحَى وَقَتْلَى مَبْرَحًا
رُكُوعَا عَلَى وَجْهِ الْفَلَاحِ وَسُجُودَا
وَيُفْتِكُ مِنْ أَيْدِي الطَّغَاةِ نَوَاعِمَا
تَبْدَلُنَّ مِنْ نَظْمِ الْحَجُولِ قُبُودَا^(٢)

ويظهر من الأبيات شعور الوقشي بالمرارة من كيد الصليبيين وفضائعتهم ، مما ملأ قلبه حقدا عليهم . وقد أملى عليه هذا الشعور بدعوة الخليفة يوسف للخروج إليهم . وهو في دعوته هذا يظهر اندماجه في الجماعة الإسلامية ، حيث يتمنى أن يتد به العمر لرؤية المسلمين يفتكون بأعدائهم ، ويشخنون فيهم .. ويفتكون الأسيرات المسلمات من أيديهم .

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٤ .

٢ - النفع : ج ٤ ص ٤٧٨ .

وقد كان لهذه الدعوات المتتالية التي أطلقها الشعراء لجهاد الأعداء ، وقع كبير على الأمة : قادة ورعيّة . فقد استشارت حماستهم ، وحفزت همهم ، واهبت مشاعرهم ، وجعلتهم يسترخصون الموت ، ويقذفون بأنفسهم مجاهدين في سبيل الله ... وذلك ليؤدوا واجبهم المفروض عليهم في صدّ العدوان عن الحواض الإسلامية في الأندلس .. إلّا أنّ الكتاب بلغ أجله .

وقد كانت الحرب النفسية موقفاً آخر من تلك المواقف التي تمثلها الشعراء ، وأدركوا أهميتها في رفع معنويات الأمة ، ودعم الجبهة الداخلية . لذلك تعدّوا نقل الأحداث في إطارها المجرد إلى تقديمها في صور مختلفة تبعث على الثقة ، وتحقق أغراض الجماعة الإسلامية . ومن هنا أبرز الشعراء قوّة المسلمين ، وهذّبوا الأعداء بها ، وضخموا الانتصارات ، وقدموها في اطار من التفاؤل والاستبشار ، في الوقت الذي هولوا فيه هزائم الأعداء ، وبالغوا في وصفها ، وقدموها في اطار مثير .

كذلك ، بذل الشعراء وسعهم في الإزراء بالقيادة الصليبية ، فوصفوها بصفات تؤدّي إلى خلق حالة من عدم الثقة بها . ويقابل ذلك إشادة عارمة بالقيادة الإسلامية ...

أمّا الجيش الصليبي ، فقد ألصق الشعراء به صفات مزرية كالجن ، والخوف ، والفرار ، والغرور .

فقد اصطنع ابن المنخل الشلبي أروع ألفاظ الحرب ، وأقدر صورها على إثارة الحفيظة ، وإشعار المسلمين بالبأس والقوّة ، وبالكرامة والعزّة ، والشمم والاباء ، حين وصف جيش المسلمين ، وهذّب القائد الصليبي ابن ريمند ، وتوعده بغزوة في عقر داره :

فَقُلْ لابن ريمند تَاهَبْ لغزوة يسدّ عليكم جيشها الأفتح السهبا
إذا جردت فيها السيوف حسبيتها جداول روض ، والرماح به قصباً
كأنّ نعماً الدو باضت بأفقه وقد لفتحت هوج الرياح به سحبا !

وإن عثرت أعلامه لمُحَارِبٍ جري دمه من تحتها وإبلاً سكباً
وإن لقيت هضباً حوافر خيله أصارته سهلاً لا ترى فوقه هضباً
إذا جاوزت درباً إليكم فإتما يجوزُ وشيكُ الموت نَحوكُمُ دَرَبًا(١)

وقد أخذت ابن سيّد الاشيلي ثقة عارمة بالنفس حينما وصف جيش
المسلمين ، وأبرز قوته ، وهَدّد الأعداء به ، ودعاهم إلى المبادرة إلى طلب السلم ،
حقنا لدمائهم من سيوف المسلمين :

أبلغ ذوي الشرك والإلحاد قاطبة أن ما لهم من جنودِ الله من قِبَلِ !
أناكُم الجيشُ محفوفاً جوائبه بالمَشْرِقِيَّةِ وَالخَطِيَّةِ الذَّبَلِ
رِيعُوا إِلَى السَّلْمِ وَالإِسْلَامِ وَيَحْكُمُ لا تَحْسَبُوا دَوْلَةَ التَّوْحِيدِ كَالدَّوَلِ
فإن أتيتم حقتُم من دِمَائِكُمُ وإن أبيتُم فخافوا فَجَاءَ الأَجَلَ(٢)

وقد دفع تفوق المسلمين في معركة السبيكة الشّواش الشلبي إلى تحذير
الأعداء ، وتهديدهم ، وحثّهم على التسليم ، وطلب الأمان :

تلك المخايلُ أَعْدَقَتْ وَكَافَتْ فحذارٍ من رَجَلِ الرّوَاعِدِ صَائِبِ
تلك السيولُ تغولُ من تَسْطُو بِهِ فاطلب أماناً من هزبرِ غاضِبِ

وقد ولد الظفر السابق مشاعر جامحة في نفس الشّواش الشلبي ، دفعته إلى
المبالغة حين تحدّث عن الرّعب الذي دبّ في قلوب الأعداء بعد هذه المعركة :

وَيَقِنَنَّ الأَعْدَاءُ أَنَّ جِماهُمُ مِنْ بَعْدِ هذا اليوم نهبُ النَّاهِبِ
ما بعدها إلاّ مقادّةُ صاغِرٍ يلقي يداً ، أو توبةً مِنْ تَائِبِ(٣)

١ - المّن: ج ٢ ص ١٥٤ .

٢ - المّن: ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

٣ - المّن: ج ٢ ص ٢٠٩ .

وقد أوحى مظاهره القوة العسكرية التي عبرت مع السيد أبي حفص إلى الأندلس سنة ٥٦٠ هـ إلى ابن حريون بتهديد الأعداء ووعيدهم ، وهو تهديد تنتسم منه قوة المسلمين ، وثقة الشاعر المطلقة بها :

فالآن قل لذوي الإلحاد شأنكم فما لكم دون هذا الأمر ملتحد
وبشر العجم أن العرب قد دلفت على العراب وأن الملتقى صدد^(١)

وقد دعا الأمير أبو الربيع الموحد الصليبيين إلى الإسراع في طلب الأمان من المسلمين ، قبل أن تفتك سيوفهم بهم :

فقل لأهل الصليب حقاً إنهم خسروا وخابوا
فليطلبوا الأمان من إمام في كفه الصلح والعقاب^(٢)

وقد ضخم الشعراء انتصارات المسلمين ، ومجدوها ، وتحدثوا عنها بلهجة ملؤها الثقة العارمة بالنفس . فقد استهل ابن حزمون قصيدته التي قالها في معركة الأرك بأبيات تعبر عن الفرحة الكبرى بهذا الظفر ، والانتشاء به :

حيثك معطرة النفس نفحات النصر بأندلس
فذر الكفار ومائمهم إن الإسلام لفي عرس^(٣)

وظلت مشاعر الفرح والابتهاج هذه ، تغمر القصيدة من أولها إلى آخرها .

كذلك ، استهل أبو العباس الجراوي القصيدة التي قالها في المعركة السابقة بأبيات تضحّم هذا النصر ، وتعظمه ، وتصور ابتهاج المسلمين به ، لذلك فإن البلغاء يعيون عن وصفه ، كما يقول^(٤) .

١ - المتن : ج ٢ ص ٢٥٥ .

٢ - ديوان الأمير أبي الربيع : ص ٣٥ .

٣ - المعجب : ص ٣٧١ .

٤ - انظر : ص ١٩٣ من هذه الدراسة .

ولإضفاء هالة من الضخامة على ظفر فحص بلقون ، فقد استهل أبو العباس
الجزاوي قصيدته التي قالها في هذه المناسبة بمطلع حافل بإيحاءات الفخامة :

أعليتَ دينَ الواحدِ القهارِ بالمَشْرِقِيةِ والقنا الخَطَّارِ
وللغرض نفسه ، فقد جعل الجزاوي موسى بن نصير وطارق بن زياد يزيدان
جهودهما لورأيا ظفر المسلمين في المعركة السابقة :

لو راء موسى ما فعلتَ وطارقُ زُريا بما لهُما مِنَ الآثارِ^(١)

وقد كان تهويل هزائم الصليبيين واسباغ هالة من الضخامة عليها دأب
الشعراء ، فقتلاهم يعدون بالآلاف^(٢) ، ويساؤون بين الأرض لكثرتهم^(٣) ، بل إنهم
عدد الحصى^(٤) ، لذلك فإن جيول المسلمين لا تضع أقدامها إلا على جثثهم :

أوطأتها هامَ الكُماةَ فلم تضعْ إلا على تحيدِ صريعِ مبتكى^(٥)

والدمار الذي حلّ بالأعداء في غزوة طليطلة تعجز الروايات عن وصفه :

قد أصليتَ نارها العداةَ وأنجرتَ بهمُ العداثُ
وعمَّهمُ بالدمارِ يومٌ تُقصرُ عن وصفهِ الرواةُ
مشهد لا تُزال تُتلى آياؤه وهي بيناتُ

وانهزام الصليبيين في هذه الغزوة ، كان دافعا قويا للجزاوي للإزاء بجندهم .

فهم على الرغم من شجاعتهم وقوتهم لم يقدرُوا على الثبات أمام قوّة المسلمين :

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٧ .

٢ - انظر : ص ١٣٤ من هذه الدراسة .

٣ - انظر : ص ١٩١ من هذه الدراسة .

٤ - انظر : ص ١٣٤ من هذه الدراسة .

٥ - ديوان الأمير أبي الربيع : ص ٢٨ .

ذَلُّوا الأَمْرَ اللهُ قَسْرًا وَهُمْ أَوْلُو نَجْدَةٍ أَبَاءَ
 وَقَرَّبَتْ جَمْعَهُمْ بَحَارًا أَمْوَجُهَا الخَيْلُ وَالكَمَّاءُ
 رَأَوْا لِحْزِبِ الإِلهِ صَبْرًا وَالْمَوْتُ حَفَّتْ بِهِ الجِهَاتُ
 فَحَاوَلُوا مِنْهُمْ انْفِلَاتَنَا وَلَيْسَ لِلخَائِنِ انْفِلَاتٌ^(١)

والإزاء بالصليبيين وقيادتهم ، والاستهانة بأمرهم ، والانتقاص من قدرهم بعد
 أن ذاقوا مرارة الهزائم صوّرها الشعر في أكثر من موضع .

فالصليبيون يتسمون بالجهل وسوء التقدير إذ يزينون لأنفسهم قتال
 المسلمين :

جَهْلَ النَّصَارَى أَنَّهُ المَلِكُ الَّذِي يَرِثُ البِلَادَ وَعُدْرُهُمْ مَقْبُولُ
 أَهْلُ الجَهَالَةِ هُمْ فَكَيْفَ أَلْوَمُهُمْ وَعَلِمْتُ أَنَّ الطَّبَعُ لَيْسَ يَحْوُلُ^(٢)

وهم إذا عزموا على قتال المسلمين يدبّ الرعب في قلوبهم ، ولا يجروون على
 ذلك :

يَلْقَى العِدَاءَ الرَّعْبُ قَبْلَ لِقَائِهَا فَيَزِلُّ قَبْلَ قِتَالِهَا أَقْدَامَهَا^(٣)
 وقد سخر أبو الوليد القسطلي من الصليبيين لأنهم أسلموا أمرهم لقائد غوى
 قادهم إلى المهالك :

نَزَلُوا عَلَى طَرَفِ البِلَادِ وَمَا ذَرَوْا أَنَّ النَزُولَ عَنِ الحَيَاةِ نَزُولُ
 وَتَخَيَّلُوا إِسْلَامَهُمْ لِعُيُوبِهِمْ وَمِنَ الشَّقَاوَةِ ذَلِكَ التَّخْيِيلُ
 هِيَاةً مِنْ دُونِ الَّذِي قَدْ أَمَلُوا ضَرَبْتُ كَمَا شَقَّ الرِّدَاءَ طَوِيلُ^(٤)

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٠ .
 ٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٨ .
 ٣ - المنّ : ج ٢ ص ٤٦٠ .
 ٤ - زاد المسافر : ص ٥٨ .

ويصل الإزراء بالصليبيين ، والاستهانة بهم ، والانتقاص من قدرهم لتقوية معنويات المسلمين الغاية في قول ابن صاحب الصلاة :

تَنوِّمُهُمْ بِيضُ الخُدُودِ نَوَاعِمٌ وَتُوقِظُهُمْ سَمْرُ القِنَى والسَّوَابِقُ
كَانَ بِهِمُ وَالسَيْفُ يَأْكُلُ وَفَرِهِمُ وَمَا جَمَعُوا لِلنَّائِبَاتِ مَفَارِقُ
فَمَا وَلَدُوا لِلْمُسْلِمِينَ غَنَائِمَ وَمَا جَمَعُوا لِلنَّائِبَاتِ طَوَالِقُ (١)

وهم لشدة خوفهم فإنهم يتوهمون وقع سلاح المسلمين ، فيهمون بالفرار عن أوطانهم :

تَتَوَهَّمُ الكِفَارُ وَقَعَ سَلَاحِهِمْ فَتَهُمُّ عَن أوطَانِهِمْ * بِتَعَرُّبِ (٢)
وَهُم تَصَفَّرُ أَلْوَانَهُمْ عِنْد رُؤْيَا المُسْلِمِينَ :

وَتَصَفَّرُ أَلْوَانَ العِدَاةِ كَأَتَمَّا رُمُوا مِنْكَ طُولَ الدَّهْرِ بِالْبِرْقَانِ (٣)
لذلك فقد دعا أبو الحكم بن رضى البنسي إلى عدم الاكتراث بهم ، فإن مصيرهم القتل بسيف المسلمين :

لَا تَشغَلَنَّ بِهِمْ بِالْأَفَانِهِمْ لِجَائِعِ المَوْتِ مَشْرُوبٌ وَمَأْكُولٌ
وَسَوْفَ يَأْتِيكَ عَن قُرْبِ زَعِيمُهُمْ قَسْرًا عَلَى كِلِ حَالٍ وَهُوَ مَذْهُولٌ (٤)

وهكذا فقد اضطلع الشعر بدور إعلامي هادف في الصراع مع العدو ، إلا أنه ينبغي ألا يظن أن الشعراء في مواقفهم السابقة قد حججوا عن أعين الأمة ما يخفيه المستقبل من أخطار ، وضلوا جماعة المسلمين ، وأوهمهم أن التغلب على العدو

١ - المن : ج ٢ ص ١٦٧ .
* ورد في المن : ٥ أوطارهم .
٢ - المن : ج ٢ ص ١٧٠ .
٣ - المغرب : ج ٢ ص ٢٩ .
٤ - المن : ج ٢ ص ٤٢٧ .

كان أمرا ميسورا ... وإنما كان الشعراء في الوقت نفسه منذرين ، ومحذرين ، ومبصرين ، ومحرضين ، وداعين إلى الأخذ بأسباب القوة لمواجهة هذا العدو . لذلك فإن الموقف التالي الذي اتخذه الشعراء إزاء الصراع هو إيمانهم بأن القوة هي السبيل الوحيد إلى دفع العدوان . وقد كان هذا الموقف نابعا من مشاهدات الشعراء . ومن هنا تعالت دعواتهم إلى الأخذ بأسباب القوة لمواجهة العدو ، دون أن يتركوا أدنى شك في أنهم دعاة قوة .

وقد كانت محاولات الشعراء لاستقطاب طاقات الأمة في مواجهة العدو ، ودعواتهم المتتالية إلى الوقوف في وجهه مظهرا من مظاهر القوة التي نادوا بها ، ودعوا إليها .

ويستوحى أبو حفص الأغماتي الأثر القائل « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » حين يعبر عن إيمانه بالقوة سبيلا إلى قطع دابر العدو :

يزع الإله بسطوة السلطان من لم يزعه واعظ القرآن

* * *

شدوا البراعة بالحسام فإنه برهان من يعمى عن البرهان (١)

وإذ يرى أبو العباس الجراوي الموحدين يخضعون أعداءهم بقوة السلاح ، فإنه أطلق لقلمه العنان بتمجيد القوة والإشادة بها :

بسيفك صال الدين في الشرق والغرب ودارت على الأعداء دائرة الحرب

* * *

وأذعن نأي واستقام معاند ولان * قيادا كل متمنع صعب (٢)

١ - زارد المسافر : ص ١٤٤ .

* ورد في البيان المغرب « لام » .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤ .

وإيماننا بالقوة سبيلا إلى النصر ، فقد دعا ابن حربون الأندلسيين إلى الانضمام للجيش الموحدية المجاهدة :

خُذُوا بِحِظِّكُمْ يَا أَهْلَ أُنْدَلُسِ فَمَا لِعَاوِيَ بِهَا مِنْ بَعْدِهَا رَشْدُ
وَاسْتَمْسِكُوا بِعُرَى الْأَمْرِ الَّذِي بَهَرَتْ آيَاتُهُ كُلٌّ مِنْ يَعْلُو وَيَقْتَصِدُ
الْيَوْمِ أَصَمَّ صَدَى الْغَاوِي بِأَرْضِكُمْ وَالْكَلْبُ يَنْبَحُ مَا لَمْ يَزَارِ الْأَسَدُ (١)

ويظهر أن ابن سيد الاشبيلي قد تأثر بالمتنبي لفظا ومعنى عندما ربط بين تولى الممالك والقوة ، حيث قال :

وَالْمَلِكُ لَيْسَ بِمِرْسَاةٍ قَوَاعِدُهُ مَا لَمْ يَقُمْ بَيْنَ أَيْدِي الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ

* * *

تُرْهِى بِمَلِكٍ قَدِيرٍ كُلَّ مَمْلَكَةٍ وَيَزِدْهِى رُبُّهَا أَنْ عُدَّ فِي الْخَوْلِ (٢)

وقد قال أبو الحكم بن رضى البلنسي في المعنى نفسه :

وَالْمَلِكُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يَسْتَقِلُّ بِهِ إِلَّا ذُوهُ الصَّنَادِيدُ الْبِهَالِيلِ (٣)

وقد كان ابن طفيل قويا في دعوته إلى الأخذ بأسباب القوة ، لاقتناعه المطلق بأنها السبيل الوحيد إلى المجد :

فَلَا تُقْتَنَى الْأَمَالَ إِلَّا مِنَ الْقَنَاءِ وَلَا تُكْتَبُ الْعَلِيَا بِغَيْرِ الْكُتَائِبِ
وَلَا يَبْلُغُ الْغَايَاتِ إِلَّا مَصْمُومٌ عَلَى الْهَوْلِ رَكَبٌ ظَهَرَ الْمَصَائِبِ (٤)

١ - المن : ج ٢ ص ٢٥٣ .

٢ - المن : ج ٢ ص ١٥٨ .

٣ - المن : ج ٢ ص ٤٢٦ .

٤ - المن : ج ٢ ص ٤١٢ .

ويؤكد أبو عمران موسى بن سعيد * إيمانه بالقوة سبيلا إلى حسم عناد الأعداء ، ورد كيدهم حين يقول :

حُتَّ الرِّكَابَ إِلَى هَذَا الْجَنَابِ فَقَدْ ضَلُّوا فَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ وَالتُّذْرُ
وَاعْرَمَ كَمَا عَزَمَ الْمَأْمُونُ إِذْ نَشَزَتْ أَرْضُ الْعِرَاقِ فزال البؤسُ والضررُ (١)

ولم ير أبو الربيع الموحد أن ثمة مجالا للتساهل مع المعتدين ، لذلك فقد دعا الخليفة المنصور إلى الاحتكام الى السيف في معالجة أمرهم :

شَكَتِ الثُّغُورُ الْخَطْبَ لَمَّا لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَيْكَ مِنَ الْخُطُوبِ الْمُشْتَكَى
وَتَخَصَّمَتْ مَهْجُ النَّفُوسِ بِهَا إِلَى حَدِّ الْحَسَامِ فَلَمْ تُشِيرْ إِلَّا لَكَ
وَالسَّيْفِ أَعْدَلُ حَاكِمٍ ، فَقَضَى لَهْدِي أَنْ تُصَانَ ، وَهَذَا أَنْ تُسْفَكَ (٢)

ولعل من مظاهر إيمان الشعراء بالقوة سبيلا إلى النصر ، تمجيدهم كل انتصار يحرزه الموحدون على الخارجين . فقد ربط ابن طفيل مسألة صاحب صقلية المسلمين ، وخضوعه لهم ، بانتصارهم على المشاغبين في مدينة قفصة حيث قال :

وَلَمَّا انْقَضَى الْفَتْحُ الَّذِي كَانَ يُرْتَجَى وَأَصْبَحَ جِزْبُ اللَّهِ أَغْلَبَ غَالِبِ

* * *

أَشْرْنَا بِأَعْنَاقِ الْجِيَادِ إِلَيْكُمْ وَعُجْنَا عَلَيْكُمْ مِنْ صُدُورِ الرِّكَابِ

* * *

وَمَدَّ عَلَى رِغْمِ الصِّغَارِ لِسَلْمِنَا يَدِيهِ عَظِيمُ الرُّومِ فِي حَالِ رَاغِبِ (٣)

* هو أحد مؤلفي كتاب المغرب ، ووالد عبد الملك بن سعيد ، توفي سنة ٦٤٠ هـ . انظر : المغرب : ج ١ ص ١ - ٥ .

١ - النفح : ج ٢ ص ٣٦٥ .

٢ - ديوان أبي الربيع الموحد : ص ٢٨ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٤ - ١١٥ .

ويرى شاعر مجهول أن غزو الموحدين قبيلة رياح وإخضاعهم إيّاها ، لم يكن إلا من أجل التفرغ للجهاد في الأندلس :

سَتَلْقَى بِلَادُ الرُّومِ مِنْهُ حُتُوفَهَا وَيَعْشَى أُولَى الإِحَادِ مِنْ ذِكْرِهِ جَهْدُ
وَمَا كَانَ هَذَا الغُزُوَ إِلاَّ مِنْ أَجْلِهِ فَلَمَّا تَجَلَّى صَبْحُهُ كَمَلَ القَصْدُ^(١)

ولمّا كان الشعراء دعاة قوّة ، فقد عملوا جاهدين على حشد القوى الجماعيّة خلف القيادة الإسلاميّة ، وتعميق علاقة الولاء العاطفي والعقدي بينها وبين الرعيّة . لذلك تعالت دعوات الشعراء إلى الانقياد للقادة الموحّدين وطاعتهم ، ومن ذلك قول ابن سيّد الإشبيلي مخاطبا بعض القبائل العربيّة الخارجة :

هَلَّا اقْتَدَوْا بِسُرَاةِ قَيْسٍ إِنَّهَا جَارَتْ بِمَنْسَبِهَا كَرِيمِ المَنْصِبِ
تَرْضَى إِذَا رَضِيَ الخَلِيفَةُ دَائِمًا وَكَذَلِكَ إِنْ يَعْضَبُ لِحَقِّ تَعْضَبِ^(٢)

بل إنّ الايمان لا يكمل إلا بطاعة الإمام :

مَنْ لَيْسَ مَعْتَقِدًا إِيمَانَ طَاعَتِكُمْ فَلَيْسَ يُعْنِيهِ إِيمَانٌ وَتَوْحِيدُ^(٣)

وكسبا لثقة الأمة المطلقة بالإمام ، فقد استوحى بعض الشعراء تعاليم الموحّدين في الإمامة ، وصوّروا خلفاءهم أئمة معصومين ، أمرهم صواب : —

كَأَنَّ النَّاسَ مِنْ خَطَأٍ وَأَنْتُمْ أَدَامٌ اللهُ أَمْرُكُمْ — صَوَابُ^(٤)

وللهدف نفسه فقد مجدّ الشعراء القيادة الإسلاميّة ، وأسبغوا عليها الفضائل الحربيّة والخلقيّة .

١ — المَنْ : ج ٢ ص ١٣٣ .

٢ — المَنْ : ج ٢ ص ١٦٩ .

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٦٥ .

٤ — المَنْ : ج ٢ ص ٢٦٤ .

ب - الأداء الفني :

يهدف هذا الحديث إلى تقويم الأداة الفنية التي عبّر بها الشعراء عن مضامين قصائدهم . وسنعمد في هذا التقويم على الدراسة الداخلية لشعر الجهاد .

١ - بناء القصيدة :

عزف الشعراء في قصائدهم الجهادية عن المقدمات الغزلية والطلبية ، واستعاضوا عنها بمطالع ترتبط بالجو العام للقصيدة . فقد استهل ابن مجبر قصيدته التي قالها في معركة الأرك بالإشادة بجهود قائد المعركة في جهاد الأعداء :

قَضَى حَقوقَ اللهِ في أعدائه ثمَّ انثنى والنَّصْرُ تحتَ لوائِهِ (١)

واستهلَّ أبو حفص عمر الأعماني قصيدته في المعركة السابقة بمطلع قرن فيه الجَدَّ الإنساني بالتوفيق الإلهي :

أطاعَتِكَ الذوابِلُ والشِّفارُ ولبىَّ أَمْرَكَ الفلَكُ المُدارُ (٢)

وبدأ أبو عمر الأشيري قصيدته التي قالها في معركة السَّبْطاط بمطلع يوحني بعنف المعركة ، وضراوة القتال :

دارتُ رحي الهلكات بالسَّبْطاط وسطا بها زُبُّ الزمانِ السَّاطي (٣)

وافتح شاعر مجهول قصيدته التي وجهها إلى الأمير الحفصي عندما سقطت بلنسية بيت يحثّ على الجهاد ، ويبين الخطر المحدق بالأندلس :

نَادَتْكَ أنْدلسُ فلبَّ نداءها واجعَلْ طواغيتَ الصليبِ فِدَاءَها (٤)

١ - رفع الحجب المستورة : ج ٢ ص ١٥٥ .

٢ - الفصول الياضة : ص ٩٦ .

٣ - زاد المسافر : ص ١٠١ .

٤ - النفع : ج ٤ ص ٤٧٩ .

واستهل أبو موسى هرون قصيدته التي رثى فيها إشبيلية ببيت حزين منكسر ،
يعتب فيه على الأيام سوءَ صنيعها :

يا حمصُ أقصدك المقدورُ حينَ رمى لم يرعَ فيكِ الردىَ إلّا ولا ذمّما^(١)

ولم يشذّ الشعر الجهادي الذي جمعه الدّارس عن هذه السبيل في الاستهلال .
ويبدو أنّ لطبيعة الموقف الذي قيلت فيه هذه القصائد دورا أساسيا في التخلّص من
المقدمات الغزلية . فهذه المقدمات ، وخاصة المرتبطة بالطلل ، يغلب عليها طابع
الحزن والهدوء ، وهذا الجو الحزين لا يتلاءم مع مظاهر القوّة التي يزخر بها الشعر
الحربي .

ثمّ أنّ القصائد الحربيّة غالبا ما كانت تلقى في احتفالات شعبية ضخمة^(٢) ،
لذلك فإنّ استهلال القصائد بالمقدمات الطلليّة يفسد الجوّ الحماسي ؛ فالجماهير
احتشدت لتسمع أناشيد الحرب ، لا لتسمع غناء حزينا .

وربّما كان لما عرف عن الخلفاء الموحّدين الأوّل من ورع وتقوى وحبّ للجهاد
أثر في عزوف الشعراء عن مقدمات الغزل هذه .

كذلك ، فقد نادى النقاد ، ومنذ وقت غير قصير ، بالتخلّص من المقدمات
الطلليّة لأنها لا تتناسب والتطوّر الحضاري^(٣) .

وإذا كانت أبعاد قصيدة الحرب هي : جيش ، وهجوم ، ولقاء ، وهزيمة^(٤) ،
فإنّ هذه الأبعاد لم تتحدّد مجتمعة في القصيدة الجهاديّة في عصر الموحّدين . فنحن
قد نجد في القصيدة الجهاديّة منظر الجيش مدجّجا بالسلاح يجتاز الدروب نحو

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٢ .

٢ - انظر : - النفتح : ج ٤ ص ١٧٢ ، المنّ : ج ٢ ص ١٠٠ .

٣ - الشعر والشعراء : ج ١ ص ٢٢ .

٤ - شعر الصراع مع الروم : ص ٣٠٧ .

العدو ، وقليلًا ما نجد فيها منظر الهجوم ، ولكن كثيرا ما نرى الجيش المعادي منهبًا ، وقد أثنى المسلمون فيه . أما ساعة اللقاء فنحن لا نظفر بها في شعر الجهاد . ونادرا ما نجد تلك المناظر مجتمعة في قصيدة واحدة .

ويرتبط قسم كبير من شعر الجهاد بالمدح . فقد كان القائد هو المحور الأساسي للقصيدة الجهادية ، حيث تتجمع الأحداث كلها حوله ، ويترك الشاعر للقارئ تخيل المعركة من خلال حديثه عن دور القائد فيها ؛ وبذا تكون القصيدة سلسلة متصلة الحلقات من مواقف البطولة .

وهذه الطريقة في تصوير الأحداث أفقدتها كثيرا من تفصيلاتها . فالشعراء لم يكن همهم الولوج في طبيعة كل معركة ، بقدر ما كان همهم تصوير البطولة والأبطال . وإن لم يقدم الشعراء بطريقتهم تلك تفصيلات ضافية عن المعارك ، فإنهم خلّدوا البطولة الإسلامية في عهد الموحدين في أروع صورها .

وتنتهي القصيدة الجهادية بخاتمة ، وهي بضعة أبيات تذييل بها ، وغالبا ما تكون ذات علاقة وثيقة بالجو العام للأبيات كلها .

فالقصائد التي يشيع فيها جو التفاؤل والاستبشار ، غالبا ما تنتهي بالثناء على البطل ، والتقدير له ، والدعوة إلى الالتفاف حوله ، والثقة ، وحثه على القيام بمزيد من الأعمال الجهادية ضد العدو . ويظهر ذلك في قصيدة ابن حزمون : —

| | |
|-----------------------|---------------------|
| أجزيرة أندلس اعتصمي | بإمام الأمة واحترسي |
| رعاك حراسته ملك | جبريل له أحد الحرس |
| حكمت أسيافك سيدنا | في كل مضر الكفر مسي |
| ومضت في الروم مضاربها | وكذلك تفعل في الفرس |

لا يُخْلِيفُ رُبُّكَ مَوْعِدَهُ دَوَّخُ أَقْطَارِهِمْ وَدُسٌّ (١)
وقصائد الرثاء غالباً ما تنتهي بالدعاء للشهيد والترحم عليه ، كما في قصيدة
أبي المطرف بن عميرة في رثاء الكلاعي الشهيد :

تَلْقَاكَ رَبِّي بِرِضْوَانِهِ وَجَادَكَ مِنْهُ الْحَيَا السَّاكِبُ
وَإِنَّ الَّذِي نَلْتَّ مِنْ قَرَبِهِ لِأَفْضَلُ مَا يَطْلُبُ الطَّالِبُ
عَلَيْكَ السَّلَامُ إِلَى غَايَةٍ مِنْ الْمَوْتِ كُلِّهَا ذَاهِبٌ (٢)

أما القصائد التي تصف تحركاً عسكرياً ، فغالباً ما تنتهي بتهديد الأعداء
ووعيدهم ، كما في قصيدة ابن سيّد الاشبيلي في تحرك سنة ٥٥٥ هـ : —

لَا أَيْنَ يَا آلَ الصَّلِيبِ وَحَزْبِهِ حَتَّى يَعْمَ الْقَتْلُ كُلَّ مَصْلَبٍ
وَيُورَثَ التَّوْحِيدُ عَرْضَ بِلَادِكُمْ مِنْ بَعْدِ بَحْثِ عَنكُمْ وَتَنْقَبِ (٣)

وأما القصائد التي تمجد البطولة والقوة ، فغالباً ما تنتهي بالدعاء للبطل ،
والإشادة بدوره في حماية الأمة ، كما في قصيدة أبي العباس الجراوي في معركة فحوص
بلقون : —

أَخْلِيفَةَ الْمَهْدِيِّ دُمْتَ مَوْئِداً بِاللَّهِ مُنْتَقِماً مِنَ الْكَفَّارِ
تَرْمِي شَيَاطِينَ الْأَعَادِي فِي الْوَعَى بِرَجُومِ خَيْلٍ مِنْ سَمَاءِ غِبَارِ
رَوَّعْتَ كُلَّ مَرُوعٍ ، وَحَفِظْتَ كُلَّ مُضَيِّعٍ ، وَحَمَيْتَ كُلَّ ذِمَارِ (٤)

١ — المعجب : ص ٣٧٢ — ٣٧٣ .
٢ — صفة جزيرة الأندلس : ص ٣٤ ، رسائل أبي المطرف : ورقة ١٩٦ وما بعدها .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٧٠ .
٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٧ .

والسمة العامّة لنهايات قصائد الحثّ والاستنجاد ، الدّعاء للقائد بالبقاء حتى
يظلّ رداءً للأمة يدافع عنها ، كما في قصيدة أبي بكر الخزمي :

بقيتَ أميرَ المؤمنين مخلّداً وكلّ الوري عن كُنه وصفك قاصرُ^(١)

أمّا القصائد الحماسيّة التي تختلط فيها الأحداث ، وتحوّل إلى قصيدة
مدحيّة ، فغالبا ما تكون نهاياتها عبقة بتعاليم ابن تومرت في الإمامة ، كما في قصيدة
الجرّاوي في فتح بطليوس :

ما زال أمرمّ الذي هو عصمةٌ والعزُّ لا يعدوهُ والتّمكينُ^(٢)

ويرتبط بناء القصيدة بالإطار الموسيقي ، وقد حافظ الشعراء على أوزان الشعر
العربي ولم يخرجوا عنها . ويظهر أن طبيعة الموضوع الذي يعبر عن القوّة ، جعلت
الشعراء يميلون إلى البحور الطويلة في قصائدهم الجهاديّة . فقد وجد الدّارس أن
البحر الطويل كان أكثر البحور استعمالا في شعر الجهاد ، يليه البحر الكامل ، ثم
البحر البسيط .

ولعلّ شيوع هذه البحور في شعر الجهاد نابع من البنية الإيقاعيّة لها . فهي
قادرة على استيعاب انفعالات القوّة ، ومشاعر التحدي التي تولّدها الحروب ، كما هي
قادرة على تصوير جوّ المعركة وما فيه من جلبة وحركة ، كذلك فهي تتسع
للموضوعات الجادّة والمواقف الخطيرة^(٣) . ويجدر التنبيه هنا ، أنه لا يوجد روابط
ملزمة ما بين موضوع القصيدة وبحرها ، وإنّما هي استقرّاءات داخلية لشعر
الجهاد .

١ - الخلة السّراء : ج ٢ ص ٢٦٩ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٨١ .

٣ - أصول النقد الأدبي : ص ٣٢٢ - ٣٢٥ - 464 - 461 Martial Poetry, pp

٢ — الصورة الشعرية :

من العناصر الرئيسية التي تدخل في بناء القصيدة الصورة الشعرية ، فهي جزء ضروري من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة ، وهي تحمل في حناياها حقائق شعرية تنأى بها عن الزخرف الأدبي ، والزينة البلاغية ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكر والعاطفة^(١) . ولا يعني ارتباط الصورة الشعرية بالفكر والعاطفة أنّ الصور الشعرية في شعر الجهاد مستوحاة من مناظر الحرب فقط ، وإنما كانت مصادرها متنوعة ، وهنا تتبدى قدرة الشاعر على إدراك العلاقات بين الأشياء التي قد تبدو متناقضة في الواقع .

فقد تكون الصورة الشعرية في شعر الجهاد مأخوذة من البيئة الطبيعية ومناظرها المختلفة ، كما في قول ابن المنخل الشلبي ؛ حيث شبه جيش العدو وهو يتقدم بكامل أسلحته بالبحر الهائج في التدفق والسير بسرعة ، مع الاندفاع الشديد والإتيان على كلّ ما في طريقه :

أَتَوْكُم بِجُرُونِ الْحَدِيدِ سَوَابِغاً كَأَنَّهُمُ الْبَحْرُ الْغَمَالُ قَدْ عَبَّ^(٢)

وقد شبّه ابن حربون الجيوش الإسلامية وهي تتقدّم نحو العدو بالجراد في الكثرة والانتشار مع السرعة والنشاط ، حيث قال :

ها أَنَّهُ كَالدَّبَا تَسَاعُ نَحْوَكُمُ فِيهَا الْحَفَاطُ وَفِيهَا الصَّبْرُ وَالْجَلْدُ^(٣)

ويقدم أبو الوليد القسطلي صورة مشرقة لأحد القادة الموحدين وقد تقدّم الجيش ، حيث شبّهه بالهلال في كبد السماء ، وقد أحاطت به النجوم كأنها جند له ، يقول :

أَمَامَ الْخَمِيسِ الْأَرْجَوَانِيِّ كَأَنَّهُ هَلَالٌ تَمَامَ وَالنَّجْمِ لَهُ جُنْدُ^(٤)

١ — الشعر والتجربة : ص ٦٧ — ٦٨ ، الصورة الفنية : ص ١ .

٢ — المَنّ : ج ٢ ص ١٥١ .

٣ — المَنّ : ج ٢ ص ٢٥٦ .

٤ — زاد المسافر : ٥٧ .

ولعلّه من الممضّ حقّاً أنّ أصداء الطبيعة الأندلسية الجميلة كانت خافتة في شعر الجهاد ، ولعل هذا يعود إلى أن تلك الطبيعة بصورها الرقيقة لم تكن تناسب مناظر العنف التي يصوّرها شعر حرّبي ، أو أنّ الشعراء انكبوا على تقليد القديم ولم ينتفتوا إلى استيحاء الصور من البيئة المحيطة بهم .

وقد تكون الصورة مستوحاة من حياة الناس وعاداتهم الاجتماعية . فقد قدم ابن سيّد الإشبيلي صورة ساخرة للربح الذي دبّ في قلوب الأعداء عند رؤيتهم الجيش المسلم ، حيث قرن الآمهم النفسية ، وتضعض قواهم ، بالآلام التي تعاني منها المرأة عند الوضع ، حيث قال :

راعَ الممالكَ فاتّقت بملوكها حتّى كأنّ بها حُبالي تطلقُ^(١)
وقد صور الشوّاش الشلبي انتشاءه بفتك المسلمين بالأعداء ، عندما شبّه صوت السيف ، وقد وقع على رؤوسهم ، بنغمات الموسيقى التي تطرب السامعين :

في حيثُ صوتُ المَشرفي مرجعٌ يشدو فتطربُ في الطلّي نغماتُه^(٢)
ومن مصادر الصورة في شعر الجهاد : القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . فقد استوحى ابن حربون آي الذكر الحكيم عندما قال في جيش المسلمين :

وجاءَ في سرعان الجيش يقدمه جبريلُ والملاّ الأعلى له مددُ^(٣)
وتظهر المعاني القرآنية واضحة في قول أبي العباس الجراوي :

ترمي شياطينَ الأعادي في الوغى برجوم خيل من سماء غبارٍ^(٤)

١ - المُن : ج ٢ ص ٤٥٤ .

٢ - المُن : ج ٢ ص ٢٦١ .

٣ - المُن : ج ٢ ص ٢٥٤ .

٤ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

ويشبه أبو الحكم بن رضى البلنسي جيوش المسلمين ، وقد همت على الأعداء ؛ ففتكت بهم ، بالطير الأبايل التي فتكت بأنصار أبرهة^(١) :

كَأَنَّ أَنْصَارَهُمْ أَنْصَارُ أِبْرَهَةَ وَمِنْ رِجَالِكُمْ طَيْرٌ أَبَائِيلُ^(٢)

وقد اتكأ ابن حريق الخزومي^(٣) على قوله عليه الصلاة والسلام : « حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات »^(٤) عندما صوّر ضجره من مدينة بلنسية :

فَقُلْ هِيَ جَنَّةٌ حَفَّتْ رُبَاهَا بِمَكْرُوهِينَ : مِنْ جَوْعٍ وَحَرْبٍ^(٥)

وكان التاريخ القديم مصدرا آخر من مصادر الصورة في شعر الجهاد . فقد استعان أبو العباس الجراوي بأيام العرب في الجاهلية عندما صور حزن النساء الصليبيات وجزعهن بعد معركة الأرك :

حَكَّتْ أَخْتٌ صَخْرٍ فِي الرِّزَايَا نَسَاؤُهُمْ كَمَا قَدْ حَكَى أَبْطَالُهُمْ فِي الرَّدَى صَخْرًا^(٦)

ويلتفت أبو الحكم بن رضى البلنسي إلى التاريخ القديم ، حين يشبه رجال البحر المسلمين ، وقد ركبوا سفنهم ، وعلتهم أشرعتها ، بالقيصر المتوج :

أَوْ رَاكِبٌ فَوْقَ مَتْنِ الْمَاءِ مَرْتَفِقٌ كَأَنَّهُ قَيْصَرٌ وَالْقَلْعُ إِكْلِيلُ^(٧)

١ - انظر : سيرة الفيل .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٤٢٣ .

٣ - هو علي بن محمد بن أحمد بن حريق الخزومي ، شاعر مقلد ، وكاتب بلغ . شعره مدون كثير ، توفي سنة ٦٢٢ هـ . انظر : صلة الصلة : ص ١٢٩ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ، المغرب : ج ٢ ص ٣١٨ .

٤ - مسند ابن حنبل : ج ٢ ص ٣٨٠ .

٥ - المغرب : ج ٢ ص ٣٢٠ ، زاد المسافر : ص ٣٦ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٧٧ ، معجم البلدان : مادة بلنسية .

٦ - شاعر الخلافة الموحدية : الملحق : ص ٧ .

٧ - المنّ : ج ٢ ص ٤٢٣ .

وقد تكون الصورة مستوحاة من التاريخ الإسلامي ، كما في قول أبي العباس الجراوي :

وَتَشَبُّ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ عِزَمَاتُهُ حَرْباً كَمَا وُصِفَتْ لَنَا صِفِينُ^(١)

هذه بعض الأمثلة التي توضح مصادر الصورة الشعرية في شعر الجهاد . ويلاحظ أنها مستوحاة من مصادر عديدة . فهي من الطبيعة ، والحياة الاجتماعية ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والتاريخ القديم ...

وأهم موضوعات الصورة في شعر الجهاد هي : — المعركة ، والهَيْئَةُ الْعَامَّةُ للجيش ، والخيال ، والأسلحة ، والمعدات ، والتحصينات .

والصورة المتكررة للمعركة في شعر الجهاد هي صورة رحي تطحن الناس ؛ فتذروهم للرياح ، كما يقول أحد الشعراء :

ذَرَّتْهُمْ فِيهِ رِيحُ النَّصْرِ طَحْنًا غَدَاةَ أَدَارَتِ الْهَيْجَا رَحَاهَا^(٢)

وقد شبه ابن المنخل الشلبي أثر وقع المعركة على الأعداء ، وما يصيرون إليه من حيرة وارتباك ، حتى أنهم لا يستطيعون التفكير السليم ، بمن يضل الناس ويفسد عقولهم ، يقول :

أضَلَّتْهُمْ الْبَيْضُ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا فَكَانَتْ لَهُمْ رَفْعًا وَكَانُوا لَهَا نَصْبًا^(٣)

ولما كانت المعركة تهلك القوم ، فقد شُبِّهَتْ بِالْكَأْسِ الْمَمْلُوءَةِ بِالسَّمِّ الثَّمِيلِ :

ثَدَّارٌ عَلَيْهِمْ حَمْرُ الْمَنَائِيَا بِكَأْسٍ فِيهِ عَقْرٌ لَا عَقَارُ^(٤)

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٨١ .

٢ — المزي : ج ٢ ص ٢٨٣ .

٣ — المزي : ج ٢ ص ١٥١ .

٤ — العصور البانعة : ص ٩٦ .

والمعركة بكثرة الدماء التي تراق فيها جعلت ابن سيّد الاشبيلي يتصورها رياضاً
أنبتت زهوراً حمراء ، يقول :

وجَلَا رياضاً للتواظِرِ أَطْلَعَتْ فِيهَا الدَّمَاءُ أَزْهَرًا لَا تَعْبَقُ^(١)

وقد شبّه ابن عيَّاش الدَّمَاءَ الغزيرةَ بالبحرِ المتفجّرِ بجامعِ القُوَّةِ في الاندفاع ،
يقول :

ويُضْحِي بِهِ بَحْرُ الدَّمَاءِ مَفْجَرًا بِأَسْمَرِ عَسَائِلٍ وَأَبْيَضَ نَاصِلِ^(٢)

وعلى سبيلِ التهكّمِ والسخريةِ شبّه أبو بكر بن المنخَلِ الشَّلْبِيَّ الطعنَ والضربَ
بقرى الضيف وإكرامه :

قَرَوَكُمْ عِتَاقًا شَرِيًّا وَعَوَاتِقًا بِمَا قَدْ قَرَاهُمْ جَيْشُكَ الطعنَ والضربًا^(٣)

ويقارن بعض الشعراء حالة الفرسان ، وهم منهمكون في القتال ، باللاعبين في
ساحة رياضية ، مبالغة في عدم الاكتراث بأيّ خطر . من ذلك قول ابن سيّد
الاشبيلي :

مَرِحَ بِمُعْتَرِكِ الهِجَاءِ كَأَنَّهُ فِي ضَنْكِهِ مَتَقَلَّبٌ فِي مَلْعَبِ^(٤)

وعندما يراد الإشادة بشجاعة البطل المسلم في المعركة ، فإنّها تصوّرُ أمّا
حانية عليه ، يقول الشّواش الشلبي :

وَكأَنَّمَا الهِجَاءُ أُمَّ بِرَّةٍ تَحْنُو عَلَيْهِ بِرْفَقَةٍ وَثَلِينِ^(٥)

١ - المَرَّ : ج ٢ ص ٤٥٤ .

٢ - المَرَّ : ج ٤ ص ٤١٦ .

٣ - المَرَّ : ج ٢ ص ١٥٢ .

٤ - المَرَّ : ج ٢ ص ١٦٩ .

٥ - المَرَّ : ج ٢ ص ٢٤١ .

أما الجيش المسلم ، فإن أغلب الصور التي وردت في شعر الجهاد عنه تدور حول ضخامته وكثرتة . فهو يزحف كالجراد^(١) ، ويسير كالسحاب^(٢) ، وهو كالموج الهادر يغرق كل شيء في طريقه^(٣) ، وكالبحور الواسعة^(٤) ، أما كتابه حالة الاصطفاف فإنها تشبه السطور المكتوبة^(٥) ، والطير ترافقه وتظلله حتى تحجب الشمس عنه^(٦) ، وأما رجاله فأسود غاب^(٧) ، وهم كالقداح في الخفة والنشاط وسرعة الحركة^(٨) .

أما الخيول ، فقد شبهت بالرماح في الطول والدقة والضمور^(٩) ، وبالسهم في السرعة والقوة والخفة^(١٠) ، وبالبرق وأسراب القطا والعقبان في السرعة^(١١) ، وبالصخرة الساقطة من أعلى الجبل ، وبالذئب في السرعة والفتك^(١٢) ، والفتيات الحسان بالحسن والجمال^(١٣) ، أما صهيلها فهو حنين للقتال^(١٤) ، وهي تضجر في مرابطها^(١٥) .

أما الرماح ، فهي كالشهب في التوهج والقضاء على كل ما تقع عليه^(١٦) ، وقورنت بقدود الحسان اللواتي أضناهن الحب في الطول والاستقامة مع النحالة والضمور ، وشبهت وهي تقطر دما بعيونهن الحمراء من كثرة السهر^(١٧) ، وبالعين الرمضاء^(١٨) ، وكنتي عنها بالأزاهر بجامع الحمرة^(١٩) ، وشبهت خرصانها

-
- ١ - المنّ : ج ٢ ص ٢٥٦ .
 - ٢ - المنّ : ج ٢ ص ٢٠٩ .
 - ٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٠ .
 - ٤ - المنّ : ج ٢ ص ٢٦٣ ، ص ٤٥٤ .
 - ٥ - المنّ : ج ٢ ص ١٦١ .
 - ٦ - المنّ : ج ٢ ص ٢٦٣ .
 - ٧ - المنّ : ج ٢ ص ١٣٤ .
 - ٨ - المنّ : ج ٢ ص ١٥٢ .
 - ٩ - المنّ : ج ٢ ص ١٥١ .
 - ١٠ - المنّ : ج ٢ ص ١٥١ .
 - ١١ - المنّ : ج ٢ ص ٢٠٩ ، ص ٢٨٣ ، ص ٤٥٩ .
 - ١٢ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٨ .
 - ١٣ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٨ .
 - ١٤ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٢ .
 - ١٥ - ديوان ابن سهل : ص ١٤٠ .
 - ١٦ - المنّ : ج ٢ ص ٢٥٦ .
 - ١٧ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٨ .
 - ١٨ - زاد المسافر : ص ٥٧ .
 - ١٩ - المنّ : ج ٢ ص ٦١٩ .

بالمقل^(١) ، وحركة اضطرابها واهتزازها عندما تطلق بغصن ترفرف فوقه الطير^(٢) ، وأما صوت تواليها عندما تطلق فشبّه بالنغم^(٣) .

وقد شبّهت الدماء التي لَطَّخت السيف بالقميص الأحمر ، وبالورود المتفتحة^(٤) ، وقورنت وهي تفتك بالأعداء بالأيدي التي تصبّ الشراب للندامي ، فثُمَّلَهُمْ ؛ فيقعون هامدين لا جراك لهم^(٥) .

وشبّهت الحصون والقلاع بالعذارى الممتعة^(٦) ، والسفن وهي تمخر عباب البحر بالزبد في كثرتّه وكثافته^(٧) ، وبالقباب في هيئتها وشكلها^(٨) ، أما مجاذيفها فكأثها الحيات^(٩) .

هذه هي أبرز الصور الشعرية التي وردت في شعر الجهاد ، ويلاحظ أنّ الصور القديمة قد استحوذت على الشعراء الذين قالوا القصائد الجهادية . إلا أنّ بعضهم لم ينقل هذه الصور كما هي وإنما ركّبوا منها صوراً تبدو جديدة أو كالجديدة ... ولكنّ هذا قليل ، مثل قول ابن المنخّل الشلبي في قتلى الأعداء :

وَحَرَّوْا جَمِيعاً هَامِدِينَ كَأَنَّهُمْ نَدَامَى تَسَاقَوْا بَيْنَهُمْ أَكْوَسَ الصَّهْبَا^(١٠)

فحسب الشّاعر القديم أن يقول : أننا سقينا الأعداء كؤوس الخمر^(١١) . إلا أنّ ابن المنخّل أخذ هذه الصورة وأضاف إليها لمسات جديدة كما ترى .

١ - المّن : ج ٢ ص ٢٥٦ .

٢ - المغرب : ج ١ ص ٤٢٦ .

٣ - المّن : ج ٢ ص ٢٥٦ .

٤ - المّن : ج ٢ ص ١٦٧ .

٥ - المّن : ج ٢ ص ٢٤٤ .

٦ - زاد المسافر : ص ٥٧ .

٧ - المّن : ج ٢ ص ٢٥٥ .

٨ - المّن : ج ٢ ص ٢٥٥ .

٩ - النفع : ج ٣ ص ٥٦ .

١٠ - المّن : ج ٢ ص ١٥١ .

١١ - انظر المفضّلات : ٣٧٨ .

وقد يجد بعض الشعراء وجه شبه جديداً غير الذي أوجده القدماء . فوجه الشبه عند القدماء في تشبيههم الجيش بالسحاب هو الكثوة . إلا أن الشواش الشلبي أوجد علاقة جديدة : فالسحاب يحمل الماء ، والجيش يحمل الهلاك للأعداء :

طَلَعَتْ عَلَى الأعداء سُحْباً للردى سَأَلَتْ دَمًا بِأَباطِحٍ وَمَذَانِبِ (١)

وقد نجد صوراً جديدة ولكنها بسيطة ساذجة ، كقول أبي حريز بن محفوظ ابن مرعي الشريف (٢) في اخراج الأعداء من مدينة تدمير : —

نَقِيَتْ بِهِ تدميرٌ من أخلاطِهَا فكأَنَّمَا شَرِبَتْ دَوَاءً مُسَهِّلاً (٣)

وقد شبه الرصافي البلنسي النجوم وقد علت جبل الفتح بالدنانير في اللمعان والاستدارة :

تُسمي النجوم على إكليلٍ مَفْرِقِهِ في الجوّ حائمةً مثلَ الدنانيرِ (٤)

وأغلب الصور الفنية في شعر الجهاد قائمة على التشبيه بأنواعه ، حيث يتجسّم المعنى على هيئة علاقة بين حدّين هما : المشبّه والمشبّه به . وهذه العلاقة غالباً ما كانت علاقة معنوية يتداخل فيها المثال الذي يطمح إليه الشاعر بالواقع . ولنأخذ مثلاً على ذلك قول ابن المنخل الشلبي :

فَقَلَّ لابن ريمندٍ تَأَهَّبَ لغزوةٍ يسدُّ عليكم جينئها الأفتح السهبا
إذا جُرِّدَتْ فيها السيوفُ حسبئها جداولَ روض ، والرماح به قُضِباً (٥)

١ — المرنّ : ج ٢ ص ٢٠٩ .

٢ — انظر زاد المسافر : ص ١٢٣ .

٣ — زاد المسافر : ص ١٢٣ .

٤ — ديوان الرصافي البلنسي : ص ١٣١ .

٥ — المرنّ : ج ٢ ص ١٥٤ .

فالعلاقة بين السيوف والجداول ، والرّماح والقضب علاقة حسّية في ظاهرها ، فالسيّوف تشبه الجداول في ترققها ولمعانها ، والرّماح تشبه القضب في سموّها ومادّتها ... ولكنّ ينبج عن هذه العلاقة معنى « الجمال والكثرة » . وهذا المعنى ليس هو معنى الصورة الواحدة ، ولا مجموع الصورتين ، وإنّما هو نتيجة لهما . لذلك فإننا نجد في الصورة الشّعرية تداخلا بين الحسّ والمعنى وقد ظهر الشكل الحسّي للصورة في شعر الجهاد على هيئات متعدّدة . وأكثر الأشكال الحسّية بروزا للصورة في شعر الجهاد هي « الصورة البصريّة » . وأبرز سمة للصورة البصرية هي « الحركة » . فكلّ شيء في شعر الجهاد يصرّ متحرّكا . فالبطل كالأسد في انقضاضه ، والرّمح كالشّهّاب ، والجيش كالسّحاب ، والفارس كاللاعب ، والخيل كالسهم ... وحتّى جثث القتلى تصوّر وقد طارت بها النسور القشاعم . وهذه الحركة أتاحت لبعض القصائد الجهاديّة ضربا من الروح القصصيّة .

أما الصور اللّونية التي وردت في شعر الجهاد ، فإنّها تُظهر كلف الشعراء بثلاث ظواهر لونية ، هي : — اللون الأحمر ، واللمعان ، واللون الأسود . ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة الموضوع الذي يكثر فيه الدم ، ولمعان السيوف ، وبريق الأسنان ، وقنّام المعارك .

وقد نجد في شعر الجهاد صورا تتبدّى فيها المساحات اللّونية بشكل بارز ، كقول ابن مجبر في خيل المنصور :

| | |
|--|---|
| فَمِنْ يَقِي كَالطَّرْسِ تَحْسَبُ أَنَّهُ | وَإِنْ جَرَّدُوهُ فِي مُلَاعَةِ التَّفَا |
| وَأَبْلَقَ أَعْطَى اللَّيْلَ نِصْفَ آهَابِهِ | وَعَارَ عَلَيْهِ الصَّبْحُ فَاحْتَبَسَ النِّصْفَا |
| وَوَرِدٍ تَغَشَّى جِلْدَهُ شَفْقُ الدَّجَى | فَإِذْ حَازَهُ دَلَى لَهُ الذَّيْلَ وَالْعُرْفَا |
| وَأَشْقَرَ مَعَ الرَّاحِ صَرَفَا أَدِيمِهِ | وَأَصْفَرَ لَمْ يَمْسَحْ بِهَا جِلْدَهُ صَرَفَا |
| وَأَشْهَبَ فَضِيَّ الْأَدِيمِ مَدْنَرِ | عَلَيْهِ خَطُوطٌ غَيْرُ مَفْهَمَةِ حَرْفَا ^(١) |

فنحن في هذه الأبيات أمام موكب لوني ، فالخيول بيضاء ، بلقاء ، شقراء ، صفراء ، شهباء بلون الفضة ، وردية بلون الشفق .

وقد مزج ابن عيَّاش بين الصور الحركية واللونية ، حين شبه يوم المعركة في إظلامه بليل تهاوت كواكبه ، وذلك لكثرة الغبار وتكاثفه ، وتحرك السيوف والرماح اللامعة فيه :

ويطلع ليل النقع فيه كواكباً من البيض أو من مُرهفات المناصل^(١)
والصور السمعية قليلة في شعر الجهاد . ويظهر من الصور التي استقرأها الدارس أنّ الشعراء لم يكونوا يقفون عند الأصوات الخافتة ، وإنما عند الأصوات القوية .

فجزر الفرسان لخيولهم كأنه الرعد ، كما يقول أبو الوليد القسطلي :

وسحائبٌ فيها السيوفُ بوارقٌ والزجرُ رعدٌ والخيولُ سيولٌ^(٢)
وجلبة المعركة كهدير الرِّحَا كما يقول أبو العباس الجراوي :

ودارتُ رِحا الهيجا عليهم فأصبحوا هشيماً طحيناً في مهبِّ الصبا يُذراً^(٣)

والصور الذوقية في شعر الجهاد نادرة المنال . وما وجد منها كان في الحديث عن قتلى الأعداء ، حيث شبه أثر السيوف فيهم بالخمير التي تسكر الشارين حتى الثمالة ، أو بالسّم القاتل :

تسقي العداة سِمامها فكأنتها أيدٌ تصفِّقُ للندامي راحها^(٤)

١ - المنّ : ج ٢ ص ٤١٦ .

٢ - زاد المسافر : ص ٥٨ .

٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ .

٤ - المنّ : ج ٢ ص ٢٤٤ .

والصور الشعرية في شعر الجهاد غاية في السهولة والبساطة ، فهي في نطاق تجارب الناس وحياتهم ، أو في حدود ثقافة الشاعر ومعرفته ، فنحن لا نجد فيها إبداعا أو إغرابا أو تعسفا أو غموضا . ومع ذلك فقد استطاع بعض الشعراء عرض بعض الصور الدقيقة لما يريدون تصويره ؛ فجاء تصويرهم معبرا على الرغم من اتكائهم على الشعر الموروث في تقديمها . مثل : تصوير المحارب بالسيف في الميدان بصورة اللاعب ، وتصوير صهيل الخيل حيننا للقتال ، وتشبيه حركة الرماح باهتزاز الأغصان وقد علتها الطير ، والرايات بالعقبان ... وهذا يدل على قوة الملاحظة لديهم ، وحسن استغلالهم الصور المختزنة في عقولهم .

يستشف من التراجم الوفيرة التي أوردها المقرئ لمن رحل عن الأندلس إلى المشرق استقرارا ، أو طالبا للعلم والحجّ والسَّماع ، ولمن وفد من أهل المشرق على الأندلس من أهل العلم والأدب ؛ يستشف من ذلك مدى الأثر الذي تركه المشرق في الأندلس ، ويتبين كذلك مدى الصلة التي كانت تربط بينهما^(١) .

والحق أن الصلة بين القطرين كانت وثيقة إلى حدّ يستحيل معه الفصل بين فكر مشرقى وفكر مغربي ؛ ذلك أن التآثر والتأثير بين هذين القطرين كان مستمرا على مدى العصور الإسلامية .

وقد كان ولع الأندلسيين بكل ما هو مشرقى عظيما ؛ فهامهم يسمون بعض مدنها بأسماء مشرقية ؛ وهامهم يقرنون كثيرا من شعرائهم بأسماء كثير من شعراء المشرق بشكل يستوقف النظر^(٢) .

وقد كان اهتمام الأندلسيين بالمشاركة وانتاجهم واسعا إلى حدّ « لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا عن ذلك صنما وتلوا ذلك كتابا محكما ... »^(٣) على حدّ قول ابن بسّام الشتريني .

١ — تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ص ٥٢ .

٢ — المرجع السابق : ص ٤٣ .

٣ — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ق ١ ج ١ ص ٢ .

والمطلع على كتب برامج العلماء^(٢) التي ألفها الأندلسيون تتضح أمامه « حقيقة الكتب المعتمدة للتدريس المباشر ؛ فإذا هي مشرقية في معظمها »^(٣) . وكان على رأس هذه الكتب الدواوين الشعرية ، وأولها : ديوانا أبي تمام والمنتبي .

أما شعر أبي تمام ، فقد كان له من الشهرة والاهتمام في الأندلس مقام عظيم . ونقله إلى الأندلس اثنان ، هم : عثمان بن المثني النحوي^(٤) ، ومؤمن بن سعيد^(٥) . وكان عبد الرحمن الناصر قد أمر بانتساخ شعر أبي تمام وأحضر جماعة من أدباء الأندلس لتحقيق ذلك^(٦) .

وأما أبو الطيب المنتبي ، فقد طار ذكره وشعره إلى الأندلس ؛ فوضعت فيه الكتب ، ولديوانه الشروح ، وحاكوه في معانيه وأغراضه^(٧) . ولعل فيما نقله عبد الواحد المراكشي قبسا يوضح مكانة المنتبي عند الأندلسيين ، حيث قال : — رأيت عند أبي جعفر الحميري المؤدب^(٨) « نسخة من شعر أبي الطيب قرئت علي ... فألفيتها شديدة الصحة . فقلتُ له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحريته في نقلها . فقال لي : — ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل أصح من الأصل الذي

-
- ١ — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ق ١ ج ١ ص ٢ .
 - ٢ — البرنامج : — هو كتاب يسجل فيه العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم ، ذكرا عنوان الكتاب ، واسم مؤلفه ، والشيخ الذي قرأه عليه ، أو تحمله عنه ، وسنده إلى مؤلفه الأول . انظر : تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ص ٥٧ .
 - ٣ — تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ص ٦٥ .
 - ٤ — طبقات النحويين : ص ٢٨٨ .
 - ٥ — المغرب : ج ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ .
 - ٦ — طبقات النحويين : ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .
 - ٧ — تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ص ٢٦٨ ، عصر سيادة قرطبة : ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
 - ٨ — توفي سنة ٦٠٨ هـ . المعجب : ص ٣٨٠ .

كُتِبَتْ مِنْهُ . فَقُلْتُ لَهُ : — أَيْنَ وَجَدْتَهُ ؟ قَالَ : — هُوَ مُوجُودٌ الْآنَ بَيْنَ أَيْدِينَا وَعِنْدَنَا . وَكُنَّا فِي الْمَسْجِدِ فِي زَاوِيَةٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : — أَيْنَ هُوَ ؟ فَقَالَ لِي : — عَنِ يَمِينِكَ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَرِيدُ الشَّيْخَ ، فَقُلْتُ : — مَا عَلَيَّ يَمِينِي إِلَّا الْأَسْتَاذَ . فَقَالَ لِي : — هُوَ أَصْلِي ، وَبِإِمْلَائِهِ كُتِبَتْ ... » (١) .

وليس الغرض من الحديث السابق الافتراض أن شعر الجهاد يجب أن يقلد شعر المشاركة ، وإلّا الغرض منه تعليل ما ظهر في هذا الشعر من محاولات لمحاكاة شعراء المشرق . فقد لفت الدارس أن السمة البارزة في شعر الجهاد هي اتكاؤه على التراث الشعري الموروث ، وخاصة شعر أبي تمام والمتنبي ، والنسج على منواله ، وتقليد صورته ، واحتذاء معانيه . وسنورد فيما يلي بعض الشواهد التي توضح ذلك .

يقول أبو العباس الجراوي من قصيدة قالها في معركة الأرك :

هُوَ الْفَتْحُ أَعْيَا وَصَفَهُ النِّظْمَ وَالنَّثْرَا وَعَمَّتْ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ الْبُشْرَى
وَأُنْجِدَ فِي الدُّنْيَا وَغَارَ حَدِيثُهُ فَرَاقَتْ بِهِ حُسْنًا وَطَابَتْ بِهِ نَشْرَا (٢)

وقارىء هذين البيتين لا يملك إلا أن يتذكر أبيات أبي تمام التالية التي وردت في بائيته المشهورة :

فَتَحَّ الْفَتْوحُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ نَظَّمَ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثَرَ مِنَ الْخُطْبِ
فَتَحَّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبَرَّزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقَشْبِ (٣)

وإذا أوحى الأحداث إلى أبي تمام بربط انتصار المسلمين في « عمورية » بانتصارهم في معركة « بدر » حين قال :

١ — المصعب : ص ٣٨٠ .

٢ — شاعر الخلافة الموحدة : الملحق : ص ٧ .

٣ — ديوان أبي تمام : ج ١ ص ٤٥ — ٤٦ .

فبينَ أيامك اللاتي نُصرتَ بها وبينَ أيام بدر أوثقَ النسبِ
فإن أبا العباس الجراوي قد ربط هزيمة الصليبيين في معركة « الأرك » بهزيمة
الكفار «يوم بدر» حيث قال :

حكى فعلَ ابليس بأصحابه الأولي تبراَ منهم حينَ أوردَهُم بَدرا
وحين يقول أبو العباس الجراوي في قائد الروم في قصيدة أخرى :

طاحتَ به هفواته والماء لا بدُّلهُ من أن يفيض إذا غلا (١)
إنما يغير على قول أبي تمام التالي :

برزتَ بهم هفواتٌ علجهمُ وقد يردي الجمالَ تعسفَ الجمالِ (٢)
وأحال أن صلة قوية بين قول أبي العباس الجراوي :

ملكَ الملوك لقد أنفتَ إلى العلى ونظرتَ من فوق إلى الأقدارِ (٣)
وبين قول المتنبي التالي في سيف الدولة :

فيا بحرَ البحور ولا اورّي ويا ملكَ الملوك ولا أحاشي
كأنك ناظر في كلِّ قلبٍ فما يخفى عليك محلُّ غاشي (٤)

ومطلع قصيدة الشواش الشلبي التي قالها في معركة السبيكة :

عزماث منصور العزائم غالبِ ضمنتَ فتوحَ مشارقِ ومغاربِ (٥)

-
- ١ - شاعر الخلافة الموحدية : الملحق : ص ٩ .
 - ٢ - ديوان أبي تمام : ج ٣ ص ١٤٠ .
 - ٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٧ .
 - ٤ - ديوان المتنبي : ج ١ ص ٢٤٩ .
 - ٥ - المن : ج ٢ ص ٢٠٨ .

يُذَكِّرُ بِمَطْلَعِ قَصِيدَةِ الْمُتَنَبِّيِ الَّتِي قَالَهَا فِي « مَعْرَكَةِ الْحَدَثِ » :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعِزْمِ تَأْتِي الْعِزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ (١)

ويبدو أن ابن المنخل الشلبي في بيته التالي :

وَإِذَا بُرُوقُ الْمَرْزِ لُحْنًا كَوَادِبًا صَدَقَتْ بَرُوقُ نَوَالِهِ مَنْ شَامَهَا (٢)

كان ينظر إلى قول أبي تمام :

بِأَوْفَاهُمْ بَرَقًا إِذَا أَخْلَفَ السَّنَا وَأَصْدَقِيهِمْ رَعْدًا إِذَا كَذَبَ الرَّعْدُ (٣)

وَإِذَا ارْتَفَعَ أَبُو حَفْصِ عَمْرِ السَّلْمِيِّ بِمَدْحِهِ يَعْقُوبَ الْمَنْصُورَ إِلَى آفَاقِ
سَامِقَةٍ حِينَ قَالَ :

أَطَاعَتْكَ الذَّوَابِلُ وَالشَّفَارُ وَلَبَّى أَمْرَكَ الْفَلَكَ الْمَدَارُ (٤)

فَأَمَّا يَنْهَلُ مِنْ قَوْلِ الْمُتَنَبِّيِ التَّالِيِ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

كَأَنَّ الْقَسِيَّ الْعَاصِيَاتِ تُطِيعُهُ هَوَىٌّ أَوْ بَهَا فِي غَيْرِ أَنْيَلِهِ زُهْدُ

يَكَادُ يَصِيبُ الشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمِيهِ وَيُمْكِنُهُ فِي سَهْمِهِ الْمُرْسَلِ الرَّدُّ (٥)

وحين يقول أبو المطرف بن عميرة :

وَهَلْ أَذْنَبَ الْأَبْنَاءُ ذَنْبَ آبِيهِمْ فَصَارُوا إِلَى الْأَخْرَاجِ مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ (٦)

١ - ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٤٠١ .

٢ - المن : ج ٢ ص ٤٥٨ .

٣ - ديوان أبي تمام : ج ٢ ص ٩٠ .

٤ - الغصون الياض : ص ٩٦ .

٥ - ديوان المتنبي : ج ١ ص ٢٠٧ .

٦ - النفع : ج ٢ ص ٣١٥ .

فإنما يهتدم قول أبي تمام التالي :

صارَ ذنبي كذنبِ آدمَ يا عمَ رو فأخرجتُ من جَنَّةِ الخلودِ (١)

وقول الشواش الشلبي التالي في الخليفة يوسف :

ألفَ الحروبَ فلم يُخلَ بعهدِها والحِجْلُ لا تُنسى له حُرْماتُه
وإذا تذكَّرها أجدُّ نزاعُـه وحنينُه وتواصلتُ ذِكراتُه (٢)

قريب جدا من قول المتنبي التالي :

فلا تبلغاه ما أقولُ فأنتُ شجاع متى يُذكرُ له الطعنُ يشتقِ (٣)

والأمثلة السابقة ما هي إلا جزء يسير جدا يكشف عن مدى التأثير الجزئي
بشعر أبي تمام والمنتبي . إلا أن الأمر يتعدى ذلك إلى الاقتداء المتعمد المدروس
بقصائد كاملة لهذين الشعاعين ..

فقصيدة ابن سيد الإشبيلي التي قالها في تحرك عبد المؤمن سنة ٥٥٥ هـ ،

ومطلعها :

غمضَ عنِ الشَّمسِ واستقصِرَ مدى رُحيلِ وانظر إلى الجبلِ الراسي على جَبيلِ (٤)

تُذكرُ في آن واحد بقصيدتين للمنتبي ، الأولى ومطلعها :

أُعلَى الممالكِ ما يُنتى على الأسيلِ والطعنُ عندَ محبينَ كالقبيلِ (٥)

١ - ديوان أبي تمام : ج ٤ ص ١٨٤ .

٢ - المن : ج ٢ ص ٢٦١ .

٣ - ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٣٦٠ .

٤ - المن : ج ٢ ص ١٥٦ .

٥ - ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٢٨١ .

والثانية ومطلعها :

أجابَ دَمْعِي وما الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرِّكْبِ والإِبِلِ (١)

وتأثر ابن سيد الاشبيلي بهاتين القصيدتين ليس مقصورا على الوزن والقافية ، وإنما تعداه إلى بعض الأمور التفصيلية ...

فقول ابن سيد :

غَمَضَ عَنِ الشَّمْسِ واستَقْصَرَ مَدَى زَحَلٍ وانظُرْ إِلَى الجَبَلِ الرَّاسِي على جَبَلٍ
أَتَى استَقَرَّ لَهُ ، أَتَى استَقَلَّ بِهِ أَتَى رَأَى شَخْصَهُ العَالِي ولم يُزَلْ

يقابله من قول المتنبي :

ضاقَ الزَّمانُ ووجهُ الأرضِ عن مَلِكٍ مَلءُ الزَّمانِ ومَلءُ الأَعْصِرِ الأوَّلِ

وقول ابن سيد :

أضحى بكَرَّتِهِ الإسلامُ في جَدَلٍ والمُشْرِكُونَ وأهلُ الكُفْرِ في جَدَلٍ

يقابله من قول المتنبي :

فَنحْنُ في جَدَلٍ والرُّومُ في جَدَلٍ والبرُّ في شَغَلٍ والبحرُ في تَحْجَلٍ

وهناك الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة ، والإيمان بها سبيلا إلى احتياز الممالك

في قصيدة ابن سيد ، حيث يقول :

والمَلِكُ ليسَ بِمِراسَةٍ قِوَاعِئُهُ ما لَمْ يَقمْ بينَ أيدي الخَيْلِ والإِبِلِ

* * *

ولقد سلخ عبد العزيز بن الطراوه (١) قول المتنبي حين قال :
وأهاً له من غزال ضاع في بقرٍ اللثمُ عندهمُ كالطعنِ بالأسلِ (٢)
وقصيدة أبي بكر بن المنخل الشلبي التي مطلعها :

فَتَحْتُمُ بِلَادَ الشَّرْقِ فَاغْتَمِدُوا الْغَرْبَا فَإِنَّ نَسِيمَ النَّصْرِ بِالْفَتْحِ قَدْ هَبَا (٣)
ذات صلة وثيقة بقصيدة المتنبي التي مطلعها :

فَذِينَاكَ مِنْ رِيحٍ وَإِنْ زِدْنَا كَرَبَا فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا (٤)
قصيدة ابن المنخل تفتي خطي قصيدة المتنبي ، فقد اصطنع الشاعر الوزن
نفسه ، واللغة نفسها ، واستعار من هذه القصيدة طائفة من الألفاظ والمعاني
والأساليب ، ويظهر ذلك في الأمثلة التالية :

أَصْرْتُمْ إِلَيْهِ الْخَيْلَ وَهِيَ أَجَادَلُ فَسَالَتْ بِكُمْ بَحْرًا وَطَارَتْ بِكُمْ رَكْبَا

* * *

أَتَوْكُم مَّيْرُونَ الْحَدِيدَ سَوَابِغًا كَأَنَّهُمُ الْبَحْرُ الْغَمَالُطُ قَدْ عَبَا

* * *

فَلَوْ لَمْ تَجْزِهَا السَّفْنَ نَحْوَ عَدُوِّهَا لَجَازَتْ إِلَيْهِ الْبَحْرَ تَقَطُّعُهُ وَثَبَا

فقد سلخ ابن المنخل في الأبيات السابقة قوافي المتنبي في الأبيات التالية :

نزلنا عن الأكوارِ نَمِشِي كَرَامَةً لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نَلَمَ بِهِ رَكْبَا

* * *

١ - انظر عنه المغرب : ج ١ ص ٤٤٢ .

٢ - المغرب : ج ١ ص ٤٤٢ .

٣ - المن : ج ٢ ص ١٥١ .

وَيُخَشَى عَابُ الْبَحْرِ وَهُوَ مَكَانُهُ فَكَيْفَ بَيْنَ يَغْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَبَا

* * *

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَانَ لَمْ أَفْزِ بِهِ وَعَيْشاً كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثَبْنَا

وَالأمر عند ابن المنخل يعدو سلخ القوافي إلى انتزاع المعاني . فإذا يقول ابن المنخل :

وَمَنْ تَخِذَ الْأَسَادَ عِدَّةَ حَرْبِهِ أَعَدَّ مُجَاجَاتِ الْكَلُومِ لَهُ شِرْبَنَا

فإنما ينتزع قول أبي الطيب :

وَمَنْ تَكُنَ الْأَسَدُ الضَّوَارِي جُدُودَهُ يَكُنْ لَيْلُهُ صُبْحًا وَمَطْعَمُهُ غَصْبًا

وإذا يقول الأول :

وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ الْخَفِيَّاتِ أَمْرَهُ لَمَا دَرَسُوا صُحُفًا وَلَا صَنَّفُوا كُتُبًا

فإنما يغير على قول أبي الطيب :

عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللَّغَى لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضُحُ النَّاسَ وَالْكَتُبَا

وقول ابن المنخل الشلبي :

فَمَا أَعْطَى الْعَرَبُ الْقِيَادَ طَوَاعَةً وَلَا أَسْمَحَتْ وَدَاً ، وَلَا أَدْعَنْتُ حُبَا

وَلَكِنْ رَأَتْ شَهَبَ الْهُدَى مُسْتَنِيرَةً فَخَافَتْ رَجُوماً مِنْ أَسْتَيْهِ شُهَبَا

ذو صلة قوية جدا في المعنى والصياغة بقول أبي الطيب :

لم تفترقِ عنهُ الاستَّةُ رَحْمَةً ولم تتركِ الشامَ الأعادي له حُبًّا
ولكن نفاهاً عنهُ غير كريمةٍ فريقُ رياحٍ واجهت غصنا رطبًا

كما يشير قول ابن المنخل السابق الى قول أبي تمام :

أقروا لعمري - بحكم السيوف وكانت أحقُّ بفصلِ القضاءِ
وما بالولاية إقرارُهُم ولكن أقروا له بالولاءِ (١)

كذلك فإن قول أبي المنخل :

قروكم عناقاً شرباً وعواتقاً بما قد قراهم جيشك الطعن والضرباً
ذو صلة بقول أبي تمام :

وما ظفروا به حتى قراهم قشاعم أنسرٍ وضباعٍ بيدِ
بطعن في نحوهم مريدٍ وضربٍ في رؤوسهم عنيدي (٢)

أما البيت التالي من القصيدة :

بلادٌ قضى فيها الشبابُ مآربي وأبقى لنفسي ما بقيت به إرباً
فيميل الى قول ابن الرومي :

وحببٌ أوطان الرجالِ إليهم مآرب قضّاها الشبابُ هنالكاً (٣)

ومن القصائد التي تصوّر النزعة الاتباعية عند الشعراء الأندلسيين الذين نظموا في الجهاديات ، قصيدة الأصبم المرواني التي مطلعها :

ما للهدا جنة أوفى من الهربِ أين المفرُّ وخيلُ الله في الطلبِ (٤)

١ - ديوان أبي تمام : ج ٤ ص ١٩ .

٢ - ديوان أبي تمام : ج ٤ ص ٥٨ .

٣ - ديوان ابن الرومي : ج ٢ ص ١٣ .

٤ - المرن : ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦٤ .

والمطلع — كما هو واضح — فيه بالإضافة إلى الوزن والقافية ضخامة مطلع قصيدة أبي تمام في معركة عمورية :

السيفُ أصدقُ أنباءَ من الكتبِ في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ (١)

والجو العام لقصيدة الأَصمِّ المرواني بما فيه من مظاهر الفخامة والضخامة يوحي بالجَو العام لقصيدة أبي تمام المشار إليها أعلاه .

وتأثر الشاعر السابق غير مقصور على الجو العام ، وإنما تعداه إلى انتزاع المعاني والقوافي بشكل متعمد . وها هي بعض الأبيات على سبيل المثال :

ويلبسُ الدينُ غضاً ثوبَ عزِّتهِ كأنَّ أيامَ بدرٍ عنه لم تَعِبِ !

* * *

سَمَا إلى الشرفِ الأقصى بهمتهِ دينٌ مُرِجٌ وعزمٌ دائمٌ التَّعبِ

* * *

ملكٌ إذا ما دَعَتْه الحربُ من بُعْدِ طارَ السفينِ أمامَ الجحْفِ اللَّجِبِ

* * *

حَقَّتْ صقليةٌ جهلاً فوقَها حرقُ الحسامِ وطيشٌ في القنا السِّلْبِ

ويقابل هذه الأبيات من قول أبي تمام الأبيات التالية على التوالي :

فبينَ أيامِكِ اللَّاتيْ نصرتَ بها وبينَ أيامِ بدرٍ أوثقُ التَّسْبِ

* * *

١ - ديوان أبي تمام : ج ١ ص ٤٥ - ٧٣ .

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسرٍ من التعب

* * *

ولو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغداً من نفسه وحدها في جحفلٍ لجب

* * *

أمانيا سلبتهم نجح هاجسها ظبي السيوف وأطراف القنا السلب

وإذا لذ لأبي تمام أن يستعير ألفاظ الغزل في وصف حصانة عمورية ، وما حلّ بها من تدمير على أيدي المسلمين ، فإنّ الأصمّ المرواني نحا هذا النحو في وصف تحصينات العدو :

حتى أناخ بأمّ الشرك مرضعة أولادها حلبا جما على حلب
حساء يفتّر للخطاب مبسمها عن جوهر السيف لا عن مبسم شنب

ومشايعة القدر للمدوح كثيرا ما أشأ إليها أبو الطيب المتنبي . وقد تأثر الشعراء الأندلسيون بفكرة المتنبي هذه وردوها في شعرهم الجهادي كثيرا . من ذلك قول أبي العباس الجراوي في أبي حفص :

عن أمرم يتصرف الثقلان وينصرم يتعاقب الملوان
وبما يسوء عدوكم ويسرّم تتحرك الأفلاك في الدوران^(١)

والجراوي في ذلك القول إنّما يقتدي بقول المتنبي التالي في الوزن والقافية والمعنى :

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤ .

عدوك مذموم بكلِّ لسانٍ ولو كان من أعدائك القمَّرانِ

* * *

فما لك تختارُ القسيَّ وإنَّما عن السعدِ يرمي دونك الثقلانِ
وما لك تُعنى بالأسنةِ والقنا وجذك طعانٌ بغيرِ سنانِ

* * *

لو الفلكُ الدوّارُ أبغضتَ سعيه لعوقه شيء عن الـدورانِ (١)

وقصيدة أبي موسى هرون بن هرون في رثاء إشبيلية ، ومطلعها :

يا حمصُ أقصدك المقدورُ حينَ رمى لم يرعَ فيك الردى إلاّ ولا ذمّما (٢)

ذات صلة وثيقة بقصيدة أبي تمام التي تبدأ بقوله :

أصغى إليّ البينِ مغترا فلا جرّما إنّ النوى أسارت في قلبه لَمّما (٣)

والتشابه بين القصيدتين يعدو الوزن والقافية إلى انتزاع الشاعر اللاحق لمعاني الشاعر السابق . وها هي بعض الأمثلة التي توضح ذلك :

يا سائلي عن مُصابِ المسلمين بها أصيخُ لتسمعَ أمراً يورث الصمّما

* * *

يدعو الوليدُ أباه وهو في شُغلٍ عن الجوابِ بدمعٍ سأل وانسجَمّا

* * *

سطا بها الكفرُ إذ قلَّ النصيرُ بها فمنَ معزٍ بها الإسلامَ ما سلّمّا

١ - ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٥١٢ - ٥١٥ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٢ - ٣٨٤ .

٣ - ديوان أبي تمام : ج ٣ ص ١٦٥ - ١٧٤ .

وهذه يقابلها من قول أبي تمام :

أصمّني سرُّهم أيام فرقتهم هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ سِرّاً يورث الصمّما

* * *

فكاد شوقِي يتلوّ الدَّمعَ منسجما لو كانَ في الأرضِ شوقَ فاضٍ فانسجما
ويوم خيزجِ والألبابُ طائِرةٌ لو لم تكنْ ناصرَ الإسلامِ ما سلّما

وإذا ألمّ أبو موسى ببعض معاني أبي تمام في أبياته تلك ، فإنه انتزع قوافيه
وبعض عباراته في كثير من الأحيان ، وهذه بعض الأمثلة :

يا حمصُ أقصدكِ المقدورُ حينَ رمى لم يرعَ فيك الردى إلا ولا ذمّما

* * *

يا عينُ فابكي على حمصٍ وقلّ لها منك البكاءُ إذا ما ترسليةِ دَمّا

* * *

وقد دعونا فأسمعنا على كليبٍ بما قد استنفدَ القرطاسَ والقلمّا

ويقابل هذه الأبيات التالية من قول أبي تمام :

كم نفحةٍ لك لم يحفظْ تدمّمها لصامتِ المالِ لا إلّا ولا ذمّما

* * *

أضحكتَ منهم ضباعَ القاعِ ضاحيةً بعد العبوسِ وأبكيتَ العيونَ دما

* * *

تركتهمُ سِراً لو أنّها كُتِبَتْ لم تُبقِ في الأرضِ قرطاسا ولا قلمّا

وقصيدة أبي موسى كذلك ذات صلة وطيدة بقصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة ، حيث ردد كثيرا من معانيها ، مما يدعو إلى القول بأن الشاعر قد اطلع على القصيدة قبل نظم قصيدته أو على الأقل كان ملما بها (١) .

وقد أعار ابن الأثير في قصيدته التي مطلعها :

أَلَمَّا بِأَشْلَاءِ الْعَلَى وَالْمُكَارِمِ تَقَدَّ بِأَطْرَافِ الْقِنَى وَالصَّوَارِمِ (٢)

على بعض معاني أبي تمام في قصيدته التي مطلعها :

لَنِمْنَا وَصَرَفَ الدَّهْرِ لَيْسَ بِنَائِمٍ خَزَمْنَا لَهُ قَسْرًا بَغَيْرِ خَزَائِمِ (٣)

والقصيدتان كما هو واضح تتشابهان في الوزن والقافية ، علاوة على التشابه في بعض المعاني الذي يظهر فيما يلي :

أَلَمَّا بِأَشْلَاءِ الْعَلَى وَالْمُكَارِمِ تَقَدَّ بِأَطْرَافِ الْقِنَا وَالصَّوَارِمِ

ذو صلة قوية بقول أبي تمام :

أَلَمَّا فَهَذَا مَصْرَعُ الْبَاسِ وَالنَّدَى وَحَسْبُ الْبَكَاءِ انْ قَلْتَ مَصْرَعُ هَاشِمِ

* * *

إِذَا فُقِدَ الْمَفْقُودُ مِنْ آلِ مَالِكٍ تَقَطَّعَ قَلْبِي رَحْمَةً لِلْمُكَارِمِ

وقول ابن الأثير التالي :

وَعُوجًا عَلَيْهَا مَارِيًا وَحَفَاوَةً مَصَارِعَ غَصَّتْ بِالطَّلِيِّ وَالْجَمَاجِمِ

١ - انظر ديوان ابن الرومي : ج ٣ ص ٤١٩ .

٢ - الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠ - ٩٥ .

٣ - ديوان أبي تمام : ج ٤ ص ١٢٩ - ١٣٦ .

ينترعه من قول أبي تمام :

فلا تطلبوا أسيافهم في جفونها فقد أسكنت بين الطلى والجماجم

وقد استعار ابن الأبار كثيرا من عبارات أبي تمام وقوافيه ، وألبسها معاني جديدة ، ويظهر ذلك في الأمثلة التالية :

عظائم راموها فحاضوا لنيلها ولا روع يثنيهم ، صدور العظام

* * *

بعيشك طارحني الحديث عن التي أراجع فيها بالدموع السواجم

* * *

بعيد مداه لا يشق غباره إذا فاه فاض السحر ضربة لازم

وهذه يقابلها من قول أبي تمام الأبيات التالية :

وما نكبة فأتت به بعظيمة ولكنها من أمهات العظام

* * *

خليلي من بعد الأسي والجوى قفا ولا تقفا فيض الدموع السواجم
أهاشم صار الدمع ضربة لازم وما كان لولا أنت ضربة لازم

ولم يكن احتذاء الشعراء لشعر أبي تمام والمنتبي مقصورا على محاولاتهم الواعية لتقليد قصائد بعينها ، وإنما تعدى ذلك إلى التأثير ببعض السمات العامة لشعرهما الحرابي .

فهناك الضخامة والجلبة والوضواء التي عرف بها المتنبي في قصائده الحربية .
ومن ذا الذي يقرأ الأبيات التالية ولا يتراءى إلى مخيلته صوراً من شعر المتنبي الحربي :
هيات من دون الذي قد أمَلوا ضربت كما شقَّ الرِّداءِ طويلاً
وسحائب فيها السيوف بوارق والزجرُ رعْدٌ والخيولُ سيولُ
جيشٌ يجرُّ من الحديدِ ملاءةً زرقاءَ زئبها فنا ونُصُولُ
وكأنما بين السماءِ وبينها للنعج سحفٌ بالظُّبا مسدولُ
جيشٌ بأقصى المشرقين سَرائهُ وله بأقصى المغربين تليلُ (١)
وهناك التركيز على الخيل التي بنى على حركتها أبو تمام والمتنبي قصائدهما الحربية .

وهناك التركيز على شخصية القائد المسلم . وقد كان الشعراء في هذا المجال أكثر اقتراباً إلى أبي تمام . فقصيدة أبي تمام الحربية ترتبط بالقائد أكثر من ارتباطها بالجيش عامة كما هو الحال عند أبي الطيب (٢) .

وإذا أسقط المتنبي المقدمة الغزلية من شعره الحربي ، وبدأ قصائده بمقدمات حماسية تتواءم وطبيعة الموقف ، فإن الشعراء المغاربة والأندلسيين أغفلوا هذه المقدمة في قصائدهم الجهادية ، ونهجوا نهج المتنبي في استهلال القصائد بمقدمات حماسية .

وقد قيل عن أبي الطيب أنه تفرد باستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في شعره الحربي ، وأنه أول من فتح هذا الباب . ويقول الثعالبي في ذلك : « وهو أيضاً مما لم يسبق إليه ، وتفرد به ، وأظهر الخدق بحسن النقل ، وأعرب عن جودة التصرف والتلعب بالكلام » (٣) .

١ - زاد المسافر : ص ٥٨ .
٢ - شعر الصراع : ص ٣٢٩ .
٣ - بئمة الدهر : ج ١ ص ٢٠٩ .

وقد أكثر الشعراء الذين نظموا شعر الجهاد من ألفاظ الغزل والتسيب في أشعارهم ، وهم بذلك يقتفون خطى أبي الطيب الذي فتح هذا الباب البكر . من ذلك قول ابن صاحب الصلاة في الأعداء :

تَنوِّمُهُمْ بِيضُ الخُدُودِ نَواعِمٌ وتوقظهم سمرُ القنا والسوابق (١)

وقول ابن حربون في الرماح :

تميسُ كما ماستُ قدودٌ نواعِمٌ تثقلُ أغلاما ثدى نواهد (٢)

وقول أبي الوليد القسطلي في تحصينات العدو :

وعذارى من بكر الفتوح افتضضتها وليس لها إلا بحكم الوغا عَقْد (٣)

وقول ابن مجبر :

إذا القضبُ هزَّتْها الرِّياحُ تذكروا قدودَ الحسانِ البيضِ فاعتنقوا القضبًا (٤)

ولم يكن تقليد الشعراء المغاربة والأندلسيين في شعرهم الجهادي مقصورا على احتذاء شعر أبي تمام والمنتبي . فقد ورد في الحديث السابق إشارة أوضحت استفادة أبي بكر بن المنخل الشلبي من معاني ابن الرومي . كما أشير إلى استفادة أبي موسى هرون في قصيدته التي رثى فيها إشبيلية من معاني قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة . كذلك فقد نقل الشواش الشلبي بعض معاني البحترى وقوافيه وطريقة نظمه في أبياته التالية :

يمضي لأمرٍ لله غيرَ معرِّجٍ متوجها بالنصر ضربةً لازِب

* * *

-
- ١ - المن : ج ٢ ص ١٦٧ .
 - ٢ - زاد المسافر : ص ٥٧ .
 - ٣ - صفة جزيرة الأندلس : ص ١٠٨ .
 - ٤ - صفة جزيرة الأندلس : ص ١٠٨ .

بسوابقِ كبوارقِ ، ومواكبي ككواكبِ ، وجنائبِ كخبائبِ

* * *

يقضي فيمضي كلَّ حقٍ واجبٍ إلا إذا أعطى فوق الواجبِ

* * *

تلقاه آساد الوعى وكماتها فكأثما يلقاه سربُ كواعبِ (١)

وهذه يقابلها من قول البحري الأبيات التالية :

وإذا رأيتَ الهجرَ ضربةَ لازِبٍ أبداً ، رأيتُ الصبرَ ضربةَ لازِبٍ

* * *

بطرائقِ كطرائقِ ، وخلائقي كخلائقي ، وضرائبِ كضرائبِ

* * *

ومواهب « كعبية » « وهيبة » يوجِبَن في الإفضال فوق الواجبِ

ما كان أحسنَ هذه من وقفةٍ لو كان ذلك السربُ سربَ كواعبِ (٢)

كذلك فان قوافي قصيدة أبي الحكم بن رضى البلسني التي مطلعها :

مسامري وخبيرُ القومِ مسؤول حُدث فقولك مسموعٌ ومقبول (٣)

كثيرا ما تذكر بقوافي قصيدة كعب بن زهير التي مدح فيها سيدنا محمداً عليه

الصلاة والسلام ، ومطلعها :

١ - المن : ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢١١ .

٢ - ديوان البحري : ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

٣ - المن : ج ٢ ص ٤٢٢ - ٤٢٨ .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفد مكبول (١)
تلك هي بعض الأمثلة التي توضح العلاقة بين الشعر الجهادي في عصر
الموحدين والتراث الشعري الموروث ، وخاصة شعر أبي تمام والمنتبي . ولعل في تلك
الأمثلة دليلا على ما ذهب إليه الدارس ، من اقتداء الشعراء الذين قالوا القصائد
الجهادية بالشعراء السابقين .

وقد وجد الدارس بعد أن استقصى المواضع السابقة ، وغيرها من المواضع ،
أن تأثر الشعراء اللاحقين ، الذين عني بنوع خاص من شعرهم ، بالشعراء السابقين
لم يكن تأثرا عفويا ناجما عن توارد الأفكار أو عن تزامم المعاني ، بسبب ألفة الشعراء
لهذا التراث الشعري ، وإنما هو احتذاء متعمد ، وتقليد مدروس . وهو احتذاء وصل
إلى درجة الهيمنة الفكرية على بعض الشعراء ، فالأمثلة السابقة لا تترك مجالا للشك
في أن بعض الشعراء الذين قالوا القصائد الجهادية ، قد أصروا على صور معينة من
الصور القديمة ، وكان في أذهانهم قصائد محددة يحدونها وينظمون على منوالها . فهل
من تعليل لهذه الظاهرة ؟ .

لقد وُجِدَتْ في هذا العصر دعوة قوية من بعض النقاد إلى الاقتداء
بالشعراء ، والاستفادة منهم الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية ، بحجة اختلال
الطباع ، وتقصير الأفكار (٢) .

وقد يكون للأسباب النفسية التي تدعو الأجيال اللاحقة إلى الإعجاب
بالأجيال السابقة وإنتاجهم دور في ذلك . فهم ينظرون إلى العصور الإسلامية الأولى
على أنها المثل الأعلى للحياة الدينية والخلقية ، والحجة الأولى لعلوم الدين وبعض فروع
الثقافة (٣) بل أن الأندلسيين ينظرون إلى المشاركة — كما رأينا — باعتبارهم أئمة
الفصاحة والبيان .

١ — شرح قصيدة كعب بن زهير : ص ١١ — ٣٧ .

٢ — مناج البلقاء : ص ٢٦ — ٢٧ .

٣ — ابن سناء الملك : ص ٢٩ .

وقد يكون لما رددّه النقاد المسلمون من أنّ الأقدمين قد استهلكوا المعاني ، ولم يبق للاحقيين من المعاني إلاّ القليل^(١) أثر في ذلك أيضا . لذا انكبّ الشعراء على التراث القديم ، ينهلون منه ، ويردّدون معانيه .

وقد تكون « المشكلة اللغويّة »^(٢) عاملا من العوامل التي جعلت الشعراء يحتذون السابقين ، ويقتدون بهم . ونقصد بالمشكلة اللغوية « الازدواج اللغوي » . فقد ابتعدت في هذا العصر الشقة بين اللغة اليوميّة ولغة الأدب ، فاللغة التي ينظم بها الشاعر في هذه الفترة لم تعد هي اللّغة التلقائية التي يفكر ويشعر بها بصور تلقائية ، والمثال الواضح على ظاهرة الازدواج اللغوي في الأندلس « الأرجال » التي نظمت باللّغة العاميّة الشائعة ، لذلك فقد راجت رواجاً كبيراً في الأوساط الشعبية الأندلسية^(٣) .

بل إنّ « الازدواج اللغوي » في الدّولة الموحدية تعدى الازدواج بين اللغة العربيّة الفصحى وبين اللهجة العامية إلى انتشار اللغة البربرية على نطاق واسع . فقد لجأ الموحدون — لسبب أو لآخر — إلى اللغة البربرية وسيلة للاتصال بالجماهير ، والتأثير عليها ، فالمهدي يدرس بالبربريّة ويؤلف بها كتبه في المذهب ، ويأمر بالنداء للصلاة بها^(٤) . وعبد المؤمن يكتب لولائه بأن يؤمر الذين يفهمون اللسان البربري ، ويتكلمون به ، أن يقرأوا التوحيد بذلك اللسان^(٥) . و « كانوا لا يقدمون للخطابة والإمامة إلاّ من يحفظ التوحيد باللسان البربري »^(٦) . بل أنهم يلقون خطبهم على الجند في ساحة القتال باللسان العربي تارة ، وباللسان البربري تارة أخرى^(٧) .

١ — تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ص ١٢٨ — ١٣٩ .

٢ — ناقش د. عبد العزيز الأموي موضوع الازدواج اللغوي في كتابه « ابن سناء الملك ... » ص ١٧ .

٣ — انظر : الزجل في الأندلس : ص ١ — ٥١ .

٤ — الاستقصا : ج ٢ ص ٢١٢ .

٥ — رسائل موحدية : ص ٣٩ .

٦ — الأمير الشاعر : ص ٥٤ .

٧ — المنّ : ج ٢ ص ٥٠١ .

فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بدّ للمتأدب أن يعيش في دواوين الشعر القديم ليتعلم منها أساليب التعبير ، حتى يتحول بصورة تلقائية حين يكتب أدبا إلى اللغة العربية الفصحى . وهنا قد ينظر بعض الشعراء إلى ما احتوته هذه الدواوين باعتباره مثلا أعلى يجب أن يحتذى في كل عمل أدبي جديد^(١) . والحالة هذه ، فإن كثيرا من الشعراء لم يكونوا يعبرون عن أحاسيسهم ومشاعرهم بلغتهم التلقائية . ومن ثمّ لم يعودوا قادرين على التعبير عن الانفعال تعبيرا صادقا حارا أميناً ؛ وذلك لأن حرارة الانفعال تخفت في خضم البحث عن وسيلة للتعبير .

أما تأثر الشعراء بشعر أبي تمام والمنتبي بشكل خاص ، فيمكن أن يكون مرجعه بالإضافة إلى ما سبق ، شهرة هذين الشاعرين اللذين نال شعرهما قدرا كبيرا من العناية من الأندلسيين .

ثم أن الصلة واضحة ما بين شعر أبي تمام والمنتبي الذي نظم في مقارعة الدولة البيزنطية ، وبين شعر الجهاد الذي نظم في جهاد الصليبيين في الأندلس ؛ فكلاهما شعر حماسي .

ثم إن « عنصر الفخامة والضحامة الذي تميز به شعر أبي تمام وأبي الطيب المنتبي ، وبخاصة شعرهما في الحماسة والحرب ، كان عنصرا يستهوى كل شاعر لاحق يبحث عن الإطار اللفظي المناسب لمادة الحماسة والحرب »^(٢) .

ومع ذلك ، فإن الدارس لا يشك إطلاقا في عواطف الشعراء الذين قالوا القصائد الجهادية . صحيح أن اتكأهم على القديم قد حدّ من انطلاقهم الوجداني ، وأبتهت من توهج العاطفة ، وهذا ما أطلق عليه حازم القرطاجني^(٣) اختلال الطباع وتقصير الأفكار^(٤) ، وهي ظاهرة لاحظها عند شعراء العصر كله .

١ - صدى الغزو الصليبي : ص ١٨٨ .

٢ - صدى الغزو الصليبي : ص ١٩٠ .

٣ - انظر ترجمته في : بغية الوعاة : ص ٢١٤ ، أزهار الرياض : ج ٣ ص ١٧٢ .

٤ - منهاج البلغاء : ص ٢٦ - ٢٧ .

إلا أنه كان وراء قصائدهم الجهادية ثروة عاطفية حقة ؛ فما من شك أنهم ككل أبناء المجتمع الإسلامي في عصرهم يريدون الظفر للجيش الإسلامية ، وما من شك أيضا أنهم كانوا يحاولون بشعرهم الإسهام بنصيب أكبر في إثارة العواطف .

وعلى الرغم من محاولات التقليد هذه ، فإنّ الشعراء — بصورة عامّة — لم يصلوا إلى مستوى شعر أبي تمام والمنتبي الحربي إلا نادرا . وهذا لا يعني أنّ كلّ مستمدّ من التراث لا بدّ أن يقع فيما وقع فيه أولئك الشعراء ؛ فالماضي قد يكون مصدر الهام .

أثر مقاييس العصر الأدبية :

رمى بعض الدارسين الشعر الأندلسي في عهد الموحدين بالإغراق في المحسنات البديعية والصناعة اللفظية^(١) ، وأخذوا عليه ذلك^(٢) ، حتى بات هذا الشعر كما يقول أحدهم « عبارة عن كلام فارغ ، كل ما فيه شقشقة الألفاظ »^(٣) ، ومن ثم سمو هذا العصر « بانحطاط الأدب »^(٤) .

والحق أن البديع استهوى الشعراء في هذه الفترة ، ودعا النقاد إلى الأخذ به^(٥) ، وعدوه « قيم الأشعار وقوامها ، وبه يعرف تفاضلها وتباينها ... »^(٦) .

وسينظر الدارس فيما يلي في بعض القصائد الجهادية الموزعة على فترات مختلفة ، ولشعراء مختلفين ، ليرى مدى تأثيرها بمقاييس العصر الأدبية التي شغفت بالبديع ، ومدى صدق الدارسين المحدثين في أحكامهم السابقة على الشعر في عهد الموحدين .

قصيدة ابن صاحب الصلاة الباجي التي مطلعها :

تلاًلاً من نور الخلافة بارق أضاءت به الآفاق والليل غاسق

يسيطر عليها البديع بشكل معتدل ، فإنه لم يرد في أبياتها الثلاثة والأربعين إلا ستة عشر بيتاً ظهرت فيها المحسنات البديعية ، مثل الجناس والطباق في قوله :

١ - أبو البقاء الرندي : ص ٨٨ .

٢ - الأدب الأندلسي في عصر الموحدين : ص ١٤٨ .

٣ - هذا رأي الأستاذ هنري بروس ، وقد نقله الدارس عن كتاب الأمير الشاعر : ص ٢٣٩ .

٤ - زاد المسافر : المقدمة : ص ٦ .

٥ - انظر : تاريخ النقد العربي : ص ٩١ و ص ٣٢٤ ، تاريخ النقد الأدبي في الاندلس : ص ٤٤٨ ، أبو البقاء الرندي :

ص ١٠٢ .

٦ - الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٦ .

* وإن طالت البيداء قصر بعدها
 * قد انتخبوا من نخبة العرب كلها
 * وكر إلى نصر الجزيرة بعدما
 * ولا زال أمر الله للدين هادياً

والمبالغة في قوله :

* تكاد الربي تنحط عند لقائه
 * وخيل تسوق الأسد فوق متونها

والموازنة والمقابلة في قوله :

* أزاح الردى عمن يلود بظله
 * ففي ظله أمن من الخوف مانع
 * وأسمر في كفيه أسمر نافذ
 * تنومهم بيض الحدود نواعم

والتقسيم في قوله :

* ملكت قلوب الناس حياً ورهبة
 * فدان بك الصنغان : بر وفاسق

والجمع مع التقسيم في قوله :

* كأن بهم والسيف يأكل قرهم
 * فما ولدوا للمسلمين غنائم

وقد ورد لابن حريون عدد من القصائد الجهادية لم يكن البديع بالظاهرة الواضحة فيها ، ممّا يدل على أنه لم يكن معنياً بالتماسه في شعره الجهادي ، ومن هذه القصائد قصيدته التي تبدأ بقوله :

لَكُمْ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَهْدَى الْحَامِدُ فِي وَصْفِ عَلِيَّكُمْ تُصَاغُ الْقَلَائِدُ

وهذه القصيدة على طولها لم يظهر فيها إلا نزر يسير من المحسنات البديعية ، مثل : الجناس والطباق والمبالغة في قوله :

★ إِلَيْكُمْ سَرَى مِنْ شِلْبَ رَكْبٌ كَأَنَّهُمْ مَطَارِدُ أَوْهَمُ لِلخُطُوبِ طَرَائِدُ
★ وَيَكْتَسِبُ الرَّعْدِ مَنْهُ بِسَالَةً وَتَعْرِفُ مِنْ جَدْوَى يَدِيهِ الرَوَاعِدُ
★ تَزَيْتَ بِيَزِّي الْحَبِّ فَهِيَ سَوَاهِمٌ وَأَعْيُنُهَا حَمْرُ الْمَآقِي سَوَاهِدُ
★ نَزَلَتْ عَجَاجَ الْمَوْتِ ثُمَّ تَكشَفَتْ وَقَدْ فَازَ بِالنَّصْرِ الْجَلِيدِ الْمُجَالِدُ
★ وَفِي تَحْلُدِي إِنْ كَانَ فِي الْعَمْرِ مَهْلَةٌ عَجَائِبُ يَفْنَى الدَّهْرُ وَهِيَ خَوَالِدُ !

والمقابلة والموازنة في قوله :

★ وَيَرْجِعُ عَنْهُ جَاهِلٌ وَهُوَ عَالِمٌ وَيَرْجِعُ عَنْهُ مُعَدَّمٌ وَهُوَ وَاجِدٌ
★ أَبَتْ أَنْ تُرَى إِلَّا وَرِيَانٌ صَادِرٌ يَفِيءُ دَمًا مِنْهَا وَظَمَانٌ وَارِدٌ

وإيهام التضاد في قوله :

وسايلٌ به تُخْبِرُكَ عَزَمَاتِهِ سَوَائِلٌ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ رَوَاكِدُهُ^(١)

وقد جمع الدّارس لأبي العباس الجراوي عدّة قصائد جهاديّة ، ولم يكن الشاعر في قصائده تلك كلفا بالمحسنات البديعية ، وما ورد فيها من هذه المحسنات كان عفو الخاطر ، لا يدل على التماس واع له . وأكثر قصائده التي يبرز فيها الصبغ البديعي قصيدته التي مطلعها :

فتعّ مبين جل أن يتخيلاً جاء الزمان به أغرّ مُحجّلاً^(١)

وهذه القصيدة لم يرد فيها إلاّ الجناس والمبالغة والتقسيم .

وأما الشاعر أبو الربيع الموحد ، فلم يرد في شعره الجهادي من ألوان البديع ما يدل على شغفه به . وكذلك فإنّه لم يظهر في شعر أبي المطرف بن عميرة الذي ولده الصراع من البديع شيء يستحق الذكر ، في حين أنّه كان مولعا بالصناعة اللفظية في أغراضه الأخرى .

ولم يكن الشّواش الشلبي وابن المنخل الشلبي وابن سيد الأشبيلي وأبو بكر بن مجر — ولكل من هؤلاء عدّة قصائد جهاديّة — معنيين بتزيق شعرهم الجهادي وتنميقة بالمحسنات البديعية .

وقد كان ابن الأبار من أكثر الشعراء الذين تأثروا بمقاييس العصر الأدبية ، التي كان من أبرز مظاهرها الاتجاه إلى البديع . يظهر هذا واضحا في قصيدته التي قالها في معركة أنيشة ، حيث جاءت حافلة بضروب المحسنات البديعية ، على الرّغم من أنّها قيلت في موقف رثاء ... ولعل ذلك يعود إلى أن الشّاعر قد استقى معاني قصيدته من شعر أبي تمام ، علاوة على التأثير بمقاييس العصر . وهذه بعض الأمثلة على تجنيسات ابن الأبار :

١ — شاعر الخلافة الموحدة : الملحق : ص ٨ — ٩ .

- * وهانَ عليهمَ أن تكونَ لحوذهم
 * عفا حسنُها إلا بقايا مباسم
 * ويا رَبُّ صَوَامِ الهواجرِ واصل
 * سقى اللهَ أشلاءً بسفحِ أنيشةِ
 * جلائلُ دقِّ الصبرِ فيها فلم نُطيقْ
 * ومنَ لي بسلوانٍ يحلّ منفرا
 * سعيدُ صعيدٍ لم تَرَمه قرارةُ
 * فعالمٌ ربحَ دقِّ في صَدْرِ عامل
 * * بأبدعِ حُسناً من صحائفِهِ التي
 متونَ الروابي أو بطونَ التهايم
 يعزُّ علينا وطوءُها بالمناسم
 هنالك مصرومُ الحياة بصارم
 سوافحُ تزجيتها ثقالُ الغمامِ
 سوى غضِ أجفانٍ وعضِ أباهم
 بجاثٍ من الأرزاءِ حولي جاثم
 وأعظمُ بها وسطَ العظامِ الرّمايم
 وقائمُ سيفٍ قدَّ في رأسِ قائم
 تُسَيِّرها أقلامُه في الأقاليم

ونذكر من الأبيات السابقة ولع ابن الأبار بالجناس ، وهو ولع دفعه إلى التماسه
 من الألفاظ التماسا واعيا عن طريق الاشتقاق ، كما في في : « مصروم وصارم » ، و
 « جاث وجاثم » ، و « أعظم والعظام » ، و « عامل : ما يلي السنان من الرمح ،
 وعامل : — مشتقة من العمل » ، و « قائم : بمعنى مقبض السيف ، وقائم : مشتقة
 من القيام » ، و « أقلامه والأقالم » .

وقد يتأثر ابن الأبار برسم الكلمة فيدفعه ذلك إلى التماس كلمة تماثلها في
 رسمها وإيقاعها كلياً أو جزئياً ، كما في : « متون ويطون » و « مباسم ومناسم » ،
 « وغضّ وعضّ » ، و « سعيد وصعيد » .

والأمثلة السابقة تدل على حسن لغوي دقيق لدى ابن الأبار ، كما تدل على
 اهتمامه بالتواؤم الصوتي بين الألفاظ ، وقد دفعه ذلك الى نوع من التجنيس الحرفي
 يقوم على تكرار حرف معين في البيت الواحد . وهذه بعض الأمثلة على ذلك :

* ويا بأبي تلك الجسمَ نوحلاً بإجرائها نحو الأجور الجسام
* نُحِّي وُجوهاً في الجنان وجهيةً بما لقيت حُمرًا وجوهَ الملاحم

فقد تكررت « الجيم » في البيتين السابقين تكراراً غير عادي . كما تكررت
« العين » و « الصاد » في البيتين التاليين بشكل يلفت النظر :

* تَفَرَّدَ بالعلياءِ علماً وسُوددا وحسبُك من عالٍ على الشَّهبِ عالمِ
* ويا ربَّ صومِ المهاجرِ واصلِ هنالك مصرومَ الحياةِ بصارمِ

وصور الطباق والمقابلة كثيرة في قصيدة ابن الأبار كثرة تجنيساته ... وهنا
تبدو عملية القفز الذهني من معنى الى معنى آخر يقابله . وهذه بعض الأمثلة على
ذلك :

* تغفلَ فيها كلُّ أسمرِ ذابلِ فجدَّلَ منها كلُّ أبيضِ ناعِمِ
فلا يعدد الله الذين تقربوا إليه باهداءِ النفوسِ الكرائمِ
* وما هي إلا غادياتُ فجائعِ تعبَّرُ عنها راتحاتِ ماتِمِ
* وأعقدُ بالنجمِ المشرقِ ناظريِ فيغربُ عني ساهراً غيرَ نائمِ
* فها أنا في خوفِ دهرِ محاربِ وكنْتُ به في أمنِ دهرِ مسلمِ
أخو العزة كهلاً القمصاءِ ويافعاً واكفاؤه ما بين راضٍ وراغِمِ
* له منطق سهلِ النواصي قريباِ فإن رمته ألفت صعبَ الشكائمِ
* فمُدَّ إليها رافعاً يدَ قابلِ أكبُّ عليها خافضاً فمَ لائِمِ (١)

وتشتمل القصيدة كذلك على أصناف أخرى من البديع ، كالمبالغة ، والموازنة
والترصيع ، والتقسيم ...

وهكذا فإن اهتمام الشعراء بالبديع كان نسبياً ، فهم يتفاوتون في الأخذ به .
إلا أن أغلبهم لم يكن ملتصقاً له التماساً واعياً مقصوداً ، لذلك لم يكن البديع
بالظاهرة السائدة في شعر الجهاد ، كما هو الحال في الأغراض الشعرية الأخرى ،
ويظهر الفرق واضحاً ما بين الشعر الحماسي وبين الأغراض الأخرى من حيث الإكثار
من البديع ، بمقارنة الأشعار التي وردت في كتابي : « المن » و « والبيان المغرب » ،
وكُلِّها من الشعر الحماسي ، بالأشعار التي وردت في القسم الأندلسي من كتاب
« الخريدة » أو بالأشعار التي وردت في كتاب « الغصون اليانعة » ، حيث يظهر أثر
مقاييس العصر الأدبية واضحة في المجموعتين الأخيرتين .

ومن هنا ندرك أن بعض الدارسين المحدثين قد عمّموا في أحكامهم على الشعر
في عهد الموحدين ، حينما وصفوه بالإغراق في المحسنات البديعية . فالبديع له
مواضع ، وأشهر مواضعه الوصف والغزل ، في حين أن الشعراء ترخصوا لأنفسهم
بالتخلص منه في الأغراض الحماسية .

وأحال أن تحلّل شعر الجهاد من عقال البديع يحتاج إلى تحليل ، فربّما يعود
ذلك إلى ارتباط هذا الشعر بأحداث الصراع الذي يهيم الأمة جميعها . فالشعراء لم
يغفوا من قصائدهم الخطوة الفنية أو الأعطيات المادية بقدر ما كانوا يهدفون إلى
خدمة الأمة في صراعها مع العدو . فشعر الجهاد لم يكن موجهاً إلى فئة خاصة أو
إلى جمهور معين ، وإنما كان موجهاً إلى الأمة جميعاً . وقد أشار الدارس في موضع
سابق إلى أن الشعراء كانوا يلقون قصائدهم الجهادية على مسامع الأَشهاد في محافل
شعبية تقام خصيصاً لذلك . فعندما فتح المسلمون المهديّة سنة ٥٥٥ هـ ، وجّه
عبد المؤمن إلى أهل الأندلس قصيدة يبشرهم بهذا الفتح ... وقد أمر السيد أبو يعقوب —
أمير المؤمنين فيما بعد — الناس والطلبة بأشيلية بحفظ هذه القصيدة وسردها على
ألسنتهم ، فقرئت وتليت « وارتقيت بها ذوائب المنابر ، وأسمع بها الحاضر والبادي

بجميع هذه البشائر ، وطارت الركبان بأبياتها العذبة المبشرة مطارها إلى الجهات والعمائر» (١) .

كما بعث عبد المؤمن شعرا إلى أهل الأندلس يخبرهم فيه بنيته على التوجه إليهم ، لجهاد الصليبيين ، وعندما وصل هذا الشعر « قرىء على المنابر ... وانتسخ الناس والطلبة والموحدون والعامّة نسخا من الشعر المدرج فحفظوه ... » (٢) .

وهذه الشواهد توضح أن الشعر لم يكن محصورا في طبقة معينة ، لذلك فإن أحد الدارسين لم يصب الحقيقة عندما حصر جمهور الشعر في « طبقة الدارسين المتمكنين ... وتضم فقهاء وعلماء، من اصحاب الثقافة » (٣) .

ولا شك أن الإكثار من البديع ، والإسراف فيه قد يعمي معاني الشعر ، أو على الأقل يفقدها القدرة على التأثير المباشر ؛ ذلك أن الذهن يحتاج إلى وقت لاستيعاب دلالة الزينة البديعية ، فما بالك إذا كان الشعر موجها الى الأمة جميعا ؟ لذلك ترخص الشعراء لأنفسهم في الشعر الجهادي التخلص من البديع . ولعل ذلك أيضا يفسر انخفاض المستوى الفني لبعض القصائد الجهادية .

وإذا سلم شعر الجهاد من التزويق والتنميق البديعي ، فإنه لم ينج من المبالغة ، وهي ضرب من ضروب المحسنات البديعية المعنوية ، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الموقف ، وما يكتنفه من أجواء انفعالية تدعو إلى المبالغة في الوصف والقول .

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٢٦ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ١٣٥ .

٣ - الأمير الشاعر : ص ٢٣٧ .

خاتمة :

واكب الشعر الصراع بين الموحدين والصليبيين في الأندلس ، وتابع مراحلها المختلفة ، وقدم صورة أمينة عنه ، فهو جهاد إسلامي شامل بين المسلمين عامة ، والصليبيين غزاة الديار الإسلامية ، ومن هنا تلك الروح الإسلامية الدافقة التي غمرت هذا الشعر ، وتجلت في مظاهر مختلفة .

وشعر الجهاد يؤمن بالأواصر القائمة بين العروبة والإسلام ، ويقدر للعرب الدور الذي اضطلعوا به في جهاد الصليبيين في الأندلس على عهد الموحدين .

وقد تغنى الشعراء ببطولة المجاهدين المسلمين ، أمثال : الخليفة عبد المؤمن ، والخليفة يوسف ، والخليفة المنصور ، وغيرهم من القادة الذين أبلوا في جهاد الصليبيين ، سواء بالاشتراك الفعلي في المعارك ، أو بتعبئة الجيوش وتجهيزها .

والبطولة في شعر الجهاد ليست بطولة فردية ، وإنما هي بطولة جماعية . فالشعراء لم يصوروا البطل وحده ، وإنما صوروا جماعة المسلمين المجاهدين معه .

وشعر الجهاد يستوحي المثل الحربية والخلقية والنفسية في المجتمع الموحد ، ومن ثم فإن أبرز المعاني في تصوير البطولة ، هي : الشجاعة الخارقة ، والعقيدة القوية ، وسعة العلم ، والتقوى

وحديث الشعراء عن الصليبيين يحط من قدرهم ، ولكنه لا يقلل من خطرهم فقد صورهم الشعراء تصويرا يثير الحفيظة ، ويحفز الهمم ، ويدعو إلى العمل ، ويحث على السعي ومضاعفة الجهد ، ورأوا أنه ليست ثمة مجال للتساهل معهم ، وأن القوة هي السبيل الوحيد إلى التغلب عليهم .

وقد تحدث الشعراء عن ضخامة جيوش الصليبيين ، وكثافة حشودهم ، وصوروا هزائمهم ، وبالغوا في وصفها ، وقدموا صوراً دموية لها . وسخروا من قاداتهم سخيرة مريرة .

كذلك فقد بصّر الشعراء المسلمين بخطورة الصليبيين على الإسلام وأهله ،
وصوّروا فظائعهم في البلاد الإسلامية ، وحثّوا على جهادهم ، وإنقاذ البلاد منهم ،
واتمسوا كل وسيلة تحفز الأمة على قتالهم ، وصدّهم عن البلاد .

وكان موقف الشعراء من الخونة والمتعاونين مع العدو حازما ، فقد جرّدوهم من
الفضائل الخلقية وأزروا بهم ، وأوغروا الصدور عليهم ، وصوروهم خارجين على
الجماعة الإسلامية ؛ فأباحوا دماءهم .

وقد سجل الشعراء أحداث الصراع الكبرى . ويمكن أن نستقرئ تلك
الأحداث من الشعر بشكل يوازي استقراءها من المصادر التاريخية .

وشعر الجهاد صورة فذة للانتصارات التي حققها الموحدون في الأندلس ، ولا
نرى فيه حديثا عن الهزائم التي منوا بها إبان قوتهم .

وشعر الجهاد لا يصور المارك ولا يعطي تفصيلات شافية عنها . إلا أن فيه
حديثا عن الجيش المسلم . فقد صوّر الشعراء كثرته ، وشجاعته ، ودرسته ، وإيمانه
بالله .

ولم تظهر المعركة البحرية في شعر الجهاد ... إلا أننا ندرك منه قوّة أسطول
الموحدين وضخامته .

وقدّم الشعر صورا مؤثرة لمأساة المسلمين في الأندلس ، والأحوال النفسية
لهم ، وهم يعانون وطأة العدو ، وذلّ الهزائم ، بعد أن تضعض سلطان الموحدين .
وقد أرسل الشعراء قصائدهم تلك ممزوجة بالبكاء ، فجاءت انفعالات وجدانية
متأججة ، تنقل السامع عن حالته .

وقد كثر شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم في عصر الموحدين ، والشعراء ينحون فيه إلى التفجع على ما حلّ بالمسلمين ، والتأسي من تخريب الديار ، وقتل الأحياء ، والتذكير بقوة المسلمين ، واستلهاهم ماضيهم العريق .

ويميل شعر الجهاد إلى البحور الطويلة ، والعبارات الفخمة ، والألفاظ الجزلة ، والتراكيب القوية التي تنأى عن الزخرف اللفظي ، والتنميق البديعي .

وقد استحوذت الصور والأخيلة وطرائق التعبير القديمة على الشعراء الذين قالوا القصائد الجهادية . فهم يتغنون بانتصارات المسلمين ، ويندبون هزائمهم على الطريقة التي تغني بها الأجداد ... وكأنهم يرون في ذلك صورا من صور الصمود الحضاري أمام الغزو الصليبي^(١) .

وفي شعر الجهاد روح جماعية قوية . فنحن نسمع فيه صوت الشعراء المسلمين يخوضون المعركة بشعرهم ، ويسعون جاهدين إلى شحذ الهمم ، وتعبئة الطاقات .

وأخيرا فإن شعر الجهاد يكشف عن حال غير حال الجمود والانحطاط اللذين وسم بهما الشعر في عهد الموحدين ...

وآخر دعوانهم أن الحمد لله ربّ العالمين .

١ - صدى الغزو الصليبي : ص ٢٣٤ .

الفهارس

- الأعلام
- القبائل والطوائف والجماعات .
- الأماكن والبلدان .
- المصادر والمراجع
- المحتوى

الاعلام

(أ)

- ابن الأتبار : — ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،
١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٨٣ ، ٢٠٢ ، ٣٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٦٩ ،
٢٧٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨١ ، ٢٧٠ .
- ابراهيم بن أبي يوسف : — ٦١ ، ١١٢ ، ١٢٧ .
- أبرهة الأشرم : — ٢٤٦ .
- أبرويز ملك الفرس : — ١٨٤ .
- ابن الأثير : — ٥٢ .
- ابن الأحمر : — ٢١١ .
- أذفونش الصغير : — انبرذور .
- أرسطو : — ٤٤ .
- اسكندر الأكبر : — ١٦٠ .
- اسكندر الثالث : — (البابا) : — ٥٢ .
- أشباخ ، يوسف : — ١٥ .
- ابن الأشبيلي ، علي بن محمد : — ٣٨ .
- الاشبيلي : — عبد الحق بن عبد الرحمن : — ٣٧ .
- الأشيري ، أبو عمر : — ٥٥ ، ٧٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٩ .
- الأصم المرواني : — ٧٤ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٦٠ ،
١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٦٤ .

- الأغماتي ، أبو حفص عمر : — ١٩٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥١ .
- الأقرع النصراني : — ١٣٧ ، ٧٠ ، ١٧٢ .
- انبرذور ، الفونش الهنشة : — ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٣٩ ،
١٤٣ — ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١١ .
- الأنصاري ، أبو محمد عبدالله : — ٣٥ .
- أنوسنت الثالث : — ١٦ ، ٥٢ ، ١٩٨ .
- الأيوبي ، صلاح الدين : — ٤٠ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٢ .

(ب)

- البيوج ، فرانده : — ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٣ .
- البتّي ، عبد الوالي : — ٣٥ .
- البحتري : — ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
- البرشونوي : — ٥١ .
- البشير : — ١٣ .
- البطليوس ، أحمد بن محمد : — ٣٥ .
- البلنسي ، أبو الحكم بن رضى : — ٩٢ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،
١٧١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٧٣ .
- البهراي ، أبو الحكم : — ٣٥ .
- البيذق ، أبو بكر : — ٤٣ .

(ت)

- ابن تاشفين ، علي بن يوسف : — ١١ .
ابن تاشفين ، يوسف بن علي : — ١١ .
أبو تمام : — ٢٥٦ ، ٢٥٧ — ٢٦٠ ، ٢٦٤ — ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،
٢٧٧ ، ٢٨١ .

ث

الثعالبي : — ٢٧١ .

(ج)

- جايمش بن بطرة : — ١٤٣ .
ابن جبير : — ٢٤ .
ابن الجدد ، أبو بكر : — ١٢٤ .
ابن الجدد (الحفيد) ١٢٤ .
الجرأوي ، أبو العباس : — في مواضع كثيرة
أبو جعفر الحميري : — ٢٥٦ .
أبو جعفر بن سعيد : — ٢٨ ، ١١١ ، ١٦٨ .

ح

حاتم (؟) : ٧١ .

حازم القرطاجني : — ٢٧٦ .

ابن حبوس الفاسي : — ٤٠ ، ١٦٠ ، ١٦٢ .

ابن حبيب القصري : — ٤٥ .

ابن حريون : — ٦١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،

١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،

١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ،

٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ .

ابن حزمون : — ٤١ ، ٦١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٣٦ ، ١٩٠ — ١٩٤ ، ٢٣١ ، ٢٤١ .

أبو الحسن علي بن يوسف : — ٣٥ .

أبو حفص عمر (السيد) : — ٦١ ، ٦٧ ، ١٠١ ، ١٥٩ ، ١٧٢ —

١٧٥ ، ٢٣١ ، ٢٦٦ .

أبو حفص عمر (الشيخ) : — ٢٠ ، ٣٣ ، ٧٦ ، ١٨٣ — ١٨٥ .

حفصة الركونية : — ٢٨ .

أبو الحملات ، مدافع : — ٨٨ ، ١٣٢ .

(خ)

ابن خروف : — ٣٥ ، ٣٨ .

الخضر عليه السلام : — ١٧٣ .

ابن خلدون : — ٦٦ ، ١١٣ ، ١٤٦ .

(د)

- . ٣٦ ، أبو الحسن علي :
- . ١٩٩ ، ابن الدباغ الاشبيلي :
- . ٣٩ ، ابن دحية الكلبي :

(ذ)

- . ٤٣ ، أبو جعفر أحمد :

(ر)

- . ٢٨١ ، ٢٣٧ ، ٢٣١ ، ٢٢٠ ، ١٣٥ ، ١٢٤ ، ٩٩ ، أبو الربيع الموحد :
- . ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٣ ، ٣٢ ، ابن رشد ، أبو الوليد :
- . ٣٠ ، الرشيد الموحدّي :
- . ٢٥١ ، ١٦٧ ، ١٠٦ ، ٤٠ ، الرصافي البلنسي :
- . ابن رمند (رمند) : — انبذور .
- . ٢٥١ ، ٢٢٩ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ابن رمند (؟) :
- . ١٣٨ ، ٢٠ ، ريموند برنجير (رمند بلنقير) :
- . ٣٥ ، الرندی ، أبو علي :
- . ١٥٢ ، الرندی ، أبو القاسم :
- . ٢١٩ ، ١٧٩ ، ١٦٣ ، ١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٨ ، ابن الرنق :
- . ابن الرنك : — ابن الرنق .
- . ابن الرنق : — ابن الرنق .
- . ٢٧٢ ، ٢٦٩ ، ٢٦٤ ، ١٧٠ ، ابن الرومي :
- . ٤٤ ، ٤٣ ، ابن الرومية :

(ز)

- ابن أبي زرع : — ١٥٨ .
أبو زكريا الحفصي : — ٧٨ ، ١٤٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٩ .
ابن زهر الأيادي : — ٤٢ .
الزهري ، أبو بكر : — ٤٣ ، ١٠٠ .

(س)

- ابن سعادة ، محمد : — ٣٧ .
سعدونة : — ٢٨ .
أبو سعيد عثمان : — ١٧٣ .
السلمي ، أبو حفص عمر : — ٢٥٩ .
السموأل بن عادياء : — ٨٨ .
ابن سهل الأندلسي : — ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
السهيلي ، أبو زيد : — ٣٥ .
السهيلي المالقي : — ٣٧ ، ٣٩ ، ١٤٤ .
سيبويه : — ٣٩ .
ابن سيد الأشبيلي (اللص) : — ٤١ ، ٥٤ ، ٩١ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ،
١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،
٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٨١ .
ابن سيد المالقي (الأستاذ) : — ٩٨ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
١٥١ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

سيف الدولة الحمدانيّ : — ٢٥٨ .

السيوطيّ : — ٥٦ .

(ش)

الشاريّ ، أبو الحسن : — ٣٣ ، ٣٤ .

الشاطبيّ ، أبو عبد الله : — ١٧٦ .

شانجه : — ابن الرنق .

الشريف ، أبو حريز : — ٢٥٠ .

الشفنديّ ، أبو الوليد : — ١٩٦ .

ابن شلبون ، أبو الحسن : — ٢٠٤٠ .

الشتتريّ ، ابن بسّام : — ٢٥٦ .

الشوّاش الشلبيّ : — ٥٦ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٣ ،

١٧٠ ، ١٧٦ ، ٢٣٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ .

(ص)

صاحب صقلية (روجار) : — ١٨٧ .

ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك : — ١٥ ، ٢٩ ، ٦٦ ، ٩٨ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ .

ابن صاحب الصلاة ، أبو الحسين عبد الله : — ٨٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ،

١٢٣ ، ١٦٦ ، ٢٣٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ .

صخر : — ٢٤٦ .

الصدفِيّ أبو العباس : — ٤١ .

(ط)

طارق بن زياد : — ٦١ ، ١٦٦ ، ٢٣٢ .

ابن طفيل : — ٣٢ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(ع)

ابن العابد الأنصاري : — ٣٦ .

العادل الموحّدِيّ : — ٢٢٠ ، ٢٢٤ .

عامر (؟) : — ٧١ .

العبدريّ ، أبو العباس : — ٣٤ .

عبد الرحمن الناصر : — ٢٥٦ .

عبد السلام الكومي : — ١٤ .

عبد العزيز بن الطراوة : — ٢٦٢ .

عبد الملك بن سعيد : — ٨٩ .

عبد المؤمن بن عليّ : — في مواضع كثيرة .

عبد الواحد عمر (الشيخ) : — ٥٠ .

ابن عبيد : — ١٣٧ ، ١٧٢ .

عبيد الله المهديّ : — ٣١ .

- عثمان بن عفان : — ٢٦ .
- عثمان بن عبد المؤمن : — ٢٢ .
- عثمان بن المثنى : — ٢٥٦ .
- العذراء ، مريم : — ١٢٦ .
- ابن عذرة : — ٢٢٣ .
- ابن عصفور : — ٣٩ ، ٣٤ .
- عليّ (جدّ الموحّدين) : — ١١٦ .
- أبو عمران بن سعيد : — ٢٣٧ .
- ابن عمران ، عيسى : — ٦٥ ، ٥٨ .
- أبو عمران (والي إشبيلية) : — ٥٩ .
- عمرو (؟) : — ٧١ ، ٢٦٠ .
- عنان ، محمد عبدالله : — ١٩١ .
- ابن عيّاش ، التجيبي : — ٤٢ ، ٧٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ .

(غ)

- الغافقي ، عيسى بن محمّد : — ٣٥ .
- الغزالي (الامام) : — ١٢ .

(ف)

- الفارغي محرز بن زياد : — ١٦٦ .
- ابن الفخّار ، علي : — ٣٧ .

- فرّانده الثالث : — هرّانده بن الهنشه .
 الفندلاوى ، محمد : — ٣٨ .
 الفونسو انريكيت : — ابن الرئق .
 الفونسو السابع : — ١٣٧ .
 الفونسو الثامن : — انبرذور .
 الفونسو رمونديس : — ١٣٩ .

(ق)

- قراقوش : — ٧٢ ، ٧٣ .
 القرشيّ العامريّ : — ١٢١ ، ١٢٦ .
 القرشيّ القرطبيّ : — الأصمّ المروانيّ .
 القرطبيّ ، أبو محمّد : — ٣٥ .
 القسطلبيّ ، أبو الوليد : — ٨٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ .
 ابن قسيّ : — ٦١ .
 القيسيّ ، ابن واجب : — ٣٣ .

(ك)

- الكلاعيّ ، أبو الربيع : — ٣٧ ، ٦٢ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١١٧ ، ٢٠٢ — ٢٠٤ ،
 . ٢٤٢
 كعب (؟) : — ٧١ .
 كعب بن زهير : — ٢٧٣ .

(ل)

لقمان : — ١٧٣ .

(م)

ماجوج : — ١٦٠ .

المأمون العباسي : — ٢٣٧ .

المأمون الموحدي : — ١٦ ، ٢٣ ، ٤٦ .

المتنبي : — ٣٤ ، ١٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٥٦ — ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ،

٢٧٤ ، ٢٧٧ .

ابن مجبر ، أبو بكر : — ٤١ ، ٥٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ — ١٨٨ ،

١٩٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢ ، ٢٧٢ ، ٢٨١ .

أمّ المجد مریم : — ٢٨ .

ابن محشرة القيسي : — ٤٢ .

محمد بن تومرت (المهدي) : — ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ ،

٣١ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٦٩ ، ١٦٧ ، ٢٤٣ ، ٢٧٥ .

محمد بن عبد المؤمن : — ١٥ .

الخزومي ، أبو بكر : — ٢٢٢ ، ٢٤٣ .

الخزومي ، ابن حريق : — ٢٤٦ .

المراكشي ، عبد الواحد : — ٢١ ، ٥١ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١١٢ ، ١٢٧ ، ١٦٥ ،

٢٥٦ .

- المراكشي ، ابن عذارى : — ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨٣ .
- ابن مردنيش : — ٦٧ ، ١٣٧ ، ١٤٩ — ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨ — ١٨١ ، ١٨٧ ، ٢٢٢ .
- المستنصر بالله الأمويّ : — ٤٤ .
- المستنصر بالله الموحدّيّ : — ٢٦ ، ٢٧ .
- مطران طليطلة : — ٥١ .
- أبو المطرف محمد (؟) : — ٥٣ .
- أبو المطرف بن عميرة : — ٤٢ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ — ٢١١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٢٨١ .
- معاوية بن أبي سفيان : — ٦٦ .
- المقريّ التلمسانيّ : — ٢٥٤ .
- ملك أرغون (جايمش) : — ٢٠٤ .
- ابن المنخل الشلبيّ : — في مواضع كثيرة .
- ابن منقذ ، أسامة : — ٤٠ ، ٥١ .
- المنصور (الخليفة العبّاسي) : — ٦١ ، ١١٢ .
- المنصور (الخليفة الموحدّيّ) : — في مواضع كثيرة جداً .
- المهديّ : محمد بن تومرت .
- موسى عليه السلام : — ١٦٥ ، ١٧٣ .
- موسى بن ميمون : — ٤٣ ، ٤٥ .
- موسى بن نصير : — ٦١ ، ١٦٦ ، ٢٣٢ .
- موسى بن هرون : — ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٠ ، ٢٦٧ — ٢٦٩ ، ٢٧٢ .

مؤمن بن سعيد : — ٢٥٦ .

(ن)

ناصر بني عبد المؤمن : — ١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٧ ،
١٩٨ ، ٢٢٣ .

ابن نصر ، محمد بن يوسف : — ١٩ ، ٢٠ .

النعمان بن المنذر : — ١٨٤ .

(هـ)

السيدة هاجر : — ٦٢ .

هاشم (؟) : — ٢٧٠ .

هاشم بن عبد المطّلب : — ١١٦ .

هرّانده بن الهنشه : — ١١٢ .

أبو هريرة : — ٣٨ .

ابن هشام : — ٣٩ .

هلال بن عامر : — ٦٨ .

الهمدانيّ ، أبو القاسم : — ٤١ .

ابن همشك : — ١٧٠ ، ١٧٢ .

أمّ الهناء : — ٢٨ .

ابن هود ، محمد بن يوسف : — ١٩ .

(و)

- . ابن وزير الشلبي : — ١٢٩ ، ١٨٩ .
- . الوقشي أبو جعفر : — ٢٢٨ .
- . ولادة : — ٢٨ .

(ي)

- . ياجوج : — ١٦٠ .
- . اليحصبي ، ابن باديس : — ٣٨ .
- . يحيى بن أبي حفص : — ٢٢٥ .
- . أبو يحيى بن أبي يعقوب : — ٢٦ .
- . السيد أبو يعقوب : — يوسف بن عبد المؤمن .
- . أبو يعقوب بن يوسف (الشيخ) : — ٥٠ .
- . يغمراسن بنم زيّان : — ٢٠ .
- . يوحنا (القديس) : — ٤٠ .
- . يوسف بن عبد المؤمن : — في مواضع كثيرة من البحث .

القبائل والطوائف والجماعات

(أ)

- . الاستبارية : — ٥٢ .
- . الأغارقة : — ٤٣ .
- . آل البيت : — ١٤٤ ، ٥٩ .
- . آل سعد : — ٨٩ .
- . آل مالك : — ٢١٣ .
- . آل هاشم : — ٩١ .

(ب)

- . تينملل : — ٢١ .

(ج)

- . جدميوة : — ٢١ .
- . جنفيسة : — ٢١ .
- . جماعة القديس ميخائيل ذي الجناح : — ٥٢ .
- . جماعة القديس ياقب : — ٥٢ .
- . جماعة المحاربة الجديدة : — ٥٢ .

(ح)

- . الحفصيون : — ١٤٥ ، ٢٠ .

(د)

الداوية : — ٥٢ .

دباب : — ٧٧ .

(ر)

بنو رياح : — ٦٦ ، ١٦٥ ، ٢٣٨ .

(ز)

بنو زيان : — ٢٠ .

زناة : — ٢٠ .

الزيريون : — ١٢ .

(س)

بنو سليم : — ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٣ .

سنتياجو (منظمة) : — ٥٢ .

(ط)

الطوائف : — ١١ .

(ع)

بنو عامر : — ٧١ .

عرب المعقل : — ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٨ .

بنو عوف : — ٧٧ .

(ف)

- . الفاطميون : — ٦٥ .
- . فرسان القديس يوحنا : — ٥٢ .
- . فرسان قلعة رباح : — ٥٢ .
- . فرسان القنطرة : — ٥٢ .

(ق)

- . القشتاليون : — ١٨ ، ١٤٩ .
- . قيس : — ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٥٩ ، ٢٣٨ .

(ل)

- . لتونة : — ١٢ .

(م)

- . المرابطون : — في مواضع عدة .
- . المريدون : — ٦١ .
- . بنو مرين : — ٢٠ .
- . مضر : — ٥٨ ، ٦٥ .
- . الموحدون : — في مواضع كثيرة .

(هـ)

- . هرغة : — ٢١ .
- . بنو هلال : — ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ .
- . هنتانة : — ١٢ .

(و)

- . وريكة : — ٢١ .

الأماكن والبلدان

(أ)

أبذة : — ١٤٣ .

الأبلق الفرد : — ٨٨ .

الأرك (حصن وموقعة) : — ١٩ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ،

١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،

١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

أشبونة : — ١٨ ، ١٨٨ .

إشبيلية : — في مواضع عدة .

أطريانة : — ٤٥ .

أغمات : — ١٩٤ .

أنيجة : — أنيشة .

أنيشة (مكان ومعركة) : — ٣٧ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٠ ، ١١٧ ، ٢٠٢ ، ٢٨١ ،

٢٨٢ .

(ب)

باب الكحل (إشبيلية) : — ٤٥ .

باب القنطرة : — ١٧٠ .

بانية بني دانس : — ١٨ ، ١٨٨ .

بحر الزقاق : — ١٥٠ ، ١٦١ ، ١٦٨ .

البحر المتوسط : — بحر الزقاق .

- البحر المحيط : — ١٨ ، ١٦٨ ، ، ١٨٥ ، ١٨٨ .
- البحرين : — ٥٩ .
- بدر (معركة) : — ٦٠ ، ١٤٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ .
- برج الذهب : — ٤٦ .
- البرتغال : — ١٨ ، ٥٢ ، ١٣٧ .
- بسطة : — ٦٨ .
- البصرة : — ٢١٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ .
- بطليوس : — ١٧ ، ٣٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ١٢٤ ، ١٧٨ ، — ١٨٠ ،
٢٠١ ، ٢٤٣ .
- بلنسية : — في مواضع كثيرة .
- بونة : — ٧٧ .
- بياسة : — ١٤٣ .

(ت)

- تدمير : — ١٤٩ ، ١٧٧ ، ٢٥١ .
- تلمسان : — ٢٠ ، ٣٨ ، ٥٥ .
- تونس : — ٢٠ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٩ .
- تاغملت : — تينملل .

تينمل : — تينملل .

تينملل : — ٤٥ .

(ث)

الشغر الأدنى : — ٢٩ ، ١٣٨ .

(ج)

جبل الريان : — ٢٠٧ .

جبل طارق : — ١٧ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ١٦١ ، ١٦٤ — ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٥١ .

جبل الطور : — ١٦٥ .

جبل الفتاح : — جبل طارق .

الجريد : — ١٠٨ ، ١٨٠ .

الجزيرة الخضراء : — ٢٧ .

جزيرة شقر : — ٣٠ ، ٣٨ ، ٢٢٢ .

جزيرة طريف : — ١٨٥ .

الجزيرة العربية : — ٢٠٧ .

جلّق : — ١٨١ .

جنوة : — ٢٠٤ .

جيان : — ١٤٣ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، ٢١١ .

(ح)

حامة بلقواد : — ٧٥ .

الحدث (معركة) : — ٢٠٥ .

الحزام البراني : — السور الأمامي .

حصن شلبطرة : — ٦٨ .

حصن العقاب : — العقاب .

حصن الفرع : — ٤٦ .

حصن قلماله : — ١٨٨ .

الحمراء : — ١٧٠ .

حمص : — إشبيلية .

خيزج : — ٢٦٨ .

(ر)

الرافدان : — ١٠٣ .

رباط الفتح : — ١٨٧ ، ١٨٥ ، ٠٤٢ .

الرشاقة : — ١٤٣ .

روما : — ٥١ .

(ز)

الزاب : — ١٨٠ ، ١٠٨ ، ٢٠ .

(س)

ساباط كسرى : — ١٨٤ .

سبته : — ١٦١ ، ٣٨ ، ٢٧ .

السبطاط (مدينة ومعركة) : — ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٣٨ ، ٧٧ ، ٥٥ ، ٣٣ .

. ٢٣٩

السبكية (موضع ومعركة) : — ٥٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١١١ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ،
١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٢٥٨ .

سجلماسة : — ٢٥ .

سرقسطة : — ٩٢ .

سطيف : — ٦٥ .

سهلة بني رزين : — شتامية الشرق .

سهيل : — ١٤٤ .

السور الأمامي : — ٤٦ .

السوس : — ٤٥ .

(ش)

شاطبة : — ٣٠ .

الشام : — ٥١ - ٥٣ ، ٢٦٤ .

شريش : — ٤١ .

شقر : — جزيرة شقر .

شقندة : — ١٩٦ .

شتامية : — ٢٩ ، ١٤٩ .

شترين (مكان ومعركة) : — ١٦ - ١٨ .

شتامية الشرق : — ١٤٩ .

شنت ياقب : — ٢٢٨ .

شلب : — ١٨ ، ٤١ ، ١٨٨ ، ٢٢٢ ، ٢٨٠ .

شلبطرة : — ٦٨ .

(ص)

صفين (موقعة) : — ٢٤٧ .

صقلية : — ٥٣ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥ .

(ط)

طرابلس : — ٧٢ .

طريانة : — أطريانة .

طليبة : — ٤٩ .

طلياطة : — ٢٠٠ .

طليطة : — ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ .

طنجة : — ٣٨ ، ١٨٥ .

(ع)

عدوة المغرب : — ٢٥ ، ٣٠ ، ٦١ ، ١٨٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

العراق : — ٢٣٧ .

عفص : — ٢٠٠ .

العقاب (حصن وموقعة) : — ١٩ ، ٥٢ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٩٨ ،

. ١٩٩

عمورية : — ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(غ)

غانة : — ٢٥ .

غرناطة : — ١١ ، ٢٠ ، ٦٧ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٧٠ .

(ف)

- فارس : — ١٨٢ ، ١٨١ .
فاس : — ٣٨ ، ٣٥ ، ٢٥ .
فحص بلقون : — ٧٥ ، ١٣١ ، ١٦٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ .
فحص الجلاب : — ١٥٣ ، ١٧٦ .
فحص مرسية : — ٧٥ .
فرنسا : — ٥١ .

(ق)

- قابس : — ٧٧ ، ٧٢ ، ٦٥ .
قرطاجنة : — ١٤٩ .
قرطبة : — ٢٨ ، ٢٦ ، ١١ — ٣٠ ، ٤٩ ، ٦٧ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ،
١٧٢ ، ١٨٧ ، ٢٢٥ .
القسطنطينية : — ٥٢ ، ٥١ .
قشتالة : — ١٦ ، ١٩ ، ٥٢ ، ١٤٠ ، ١٨٦ .
قصر أبي دانس : — ١٨ ، ١٨٥ ، ١٨٨ .
قصر الفتح : قصر أبي دانس .
قصر المجاز : — ١٤٦ .
قصر مصمودة : — قصر المجاز .
قفصة : — ١٠٨ ، ٢٣٧ .
قلعة رباح : — ١٩ ، ٦٨ ، ١٩٠ .
قلمرية : — ١٨ ، ١٣٧ .
قلمورية : — قلمرية .

- قلنبر : — قلمرية .
 قونقة : — ١٧ ، ٢٩ ، ٣٠ .
 قونكة : — قونقة .
 قيجاطة : — ٢٠٠ .
 القيروان : — ٣١ ، ٦٦ ، ١٠٨ .

(ل)

- لشبونة : — ١٨٧ .
 لوشة : — ٢٩ ، ٢٠٠ .
 ليون : — ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٨٦ .

(م)

- مالقة : — ١١ ، ٣٧ ، ١٤٤ .
 مجمع البحرين : — ١٧٣ .
 المحيط الأطلسي : — البحر المحيط .
 مجريط : — مدريد .
 مدريد : — ٤٩ ، ٦٩ .
 المدينة الملكية : — ٥٥ .
 مراكش : — ١١ ، ١٧ ، ٢٠ — ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٣ ،
 ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ١٥٢ .
 مرج الرقاد : — ١٧٠ .
 مرسية : — ١١ ، ١٩ ، ٢٨ ، ١٤٣ ، ١٧٦ — ١٧٨ ، ٢٠٠ .

- المرية : — ١٥٠ .
مصر : — ٤٣ ، ٦٥ ، ١٠٠ .
المهدية : — رباط الفتح .
المهدية (تونس) : — ٣١ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٨٤ ، ١٠٨ ، ١٢٧ ،
١٥٧ — ١٦١ ، ٢٨٤ .

(ن)

- نجد : — ٦٥ ، ٢٠٧ .
النهر الأعظم : — ٢٦ ، ١٤٣ .
النهر الكبير : — النهر الأعظم .
نهر تاجه : — ٤٩ ، ١٤٩ ، ١٨٧ .
نهر جايو : — ١٤٩ .

(و)

- وادي آش : — ٣٢ ، ٤١ ، ٦٨ .
الوادي الكبير : — النهر الأعظم .
وينة : — ١٧ ، ١٨ ، ٥٠ ، ٦٨ .

(ي)

- اليزموك : — (معركة) : — ٦١ .
اليونان : — ٤٤ .

المصادر والمراجع (*)

أ - المخطوطات :

- بوجندار : محمد بن مصطفى .
١ - الاغتباط بتراجم أعمال الرباط ، الخزانة العامة ، الرباط ،
مخطوط رقم ١٢٨٧ د .
الراشدي : محمد بن أحمد بن ناصر .
٢ - الحلال السنديسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية ، الخزانة
العامة ، الرباط ، مخطوط رقم ٢٢٧٣ ك .
ابن زاكور : أبو عبدالله محمد بن قاسم .
٣ - المغرب المسرع لما تضمنه الأنييس المطرب وروضة النسرين ،
الخزانة العامة ، الرباط ، مخطوط رقم ٤٠ ج .
الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيك .
٤ - الوافي بالوفيات ، ج ١٣ ، مكتبة بودليان ، أكسفورد ،
مخطوط رقم ٢٣ أ ، مجموعة آرش سلد .
٥ - الوافي بالوفيات ، ج ١٦ ، مكتبة بودليان ، أكسفورد ،
مخطوط رقم ٢٦ أ ، مجموعة آرش سلد .
٦ - الوافي بالوفيات ، ج ٢٠ ، مكتبة بودليان ، أكسفورد ،
مخطوط رقم ٢٧ أ ، مجموعة آرش سلد .
٧ - الوافي بالوفيات ، ج ٢٦ ، مكتبة بودليان ، أكسفورد ،
مخطوط رقم ٢٩ أ ، مجموعة آرش سلد .

* حسب حروف الهجاء ، بالنسبة الى اسم المؤلف .

الخزومي : أبو المطرف أحمد بن عميرة .

٨ — الرسائل ، الخزانة العامة ، الرباط ، مخطوط رقم ٢٣٣ ك .

ب — الكتب المطبوعة :

ابن الأبار القضاعي : أبو عبد الله محمد .

١ — اعتاب الكتاب ، تح . صالح الأشر ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٦١ .

٢ — تحفة القادم (مقتضب) ، انتخبها : أبو اسحق البليقي ، نشره الفريد البستاني في مجلة المشرق ، بيروت ، مجلد ٤١ ، سنة ١٩٤٩ .

٣ — التكملة لكتاب الصلة تح . عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ومكتبة المنشي ، القاهرة وبغداد ، ١٩٥٥ .

٤ — الحلة السَّيِّء ، تح . حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

ابراهيم : محمود .

٥ — صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، المكتب الاسلامي ومكتبة الأقصى ، دمشق وعمان ، ١٩٧١ .

ابن الأثير الجزري : عز الدين أبو الحسن .

٦ — الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ — ١٩٧١ .

الادريسي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله .

٧ — وصف المغرب السودان ومصر والاندلس المشتق من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، طبعة ليدن ، ١٨٩٤ .

ارسلان : شكيب

٨ — الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، نشر محمد المهدي الحباي ، مطبعة مصطفى الباي الحلبي ، مصر ، ١٩٣٩ .

أشباخ : يوسف

٩ — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، تعريب محمد عبدالله عنان ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ .

ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أحمد بن القاسم .

١٠ — عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تح . نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ .

أماري : ميخائيل .

١١ — المكتبة العربية الصقلية ، جمعها وحققها ميخائيل أماري ، ليسانس ، ١٨٥٧ .

أمين : أحمد .

١٢ — ضحى الاسلام ، ج ٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٦٤ .

ابن أنس : مالك .

١٣ — الموطأ ، تح . محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ؟ .

الأهواني : عبد العزيز .

١٤ — ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

١٥ — الزجل في الاندلس ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

الأوسي : حكمة .

١٦ — الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،
١٩٧٦ .

الأوسي المراكشي : أبو عبدالله محمد بن عبد الملك .

١٧ — الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة .

★ السفر الأول ، تح . محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت ، ؟
★ بقية السفر الرابع ، تح . احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ،
١٩٦٤ .

★ السفر الخامس ، تح . احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ،
١٩٦٥ .

البحثري : أبو عبادة الوليد بن عبيد .

١٨ — الديوان ، تح . حسن الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ،
الرباط ، ١٣٤٥ هـ .

بوجندار : محمد بن مصطفى .

١٩ — مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح ، مطبعة الجريدة الرسمية ،
الرباط ، ١٣٤٥ هـ .

بول : ستانلي لين .

٢٠ — العرب في اسبانيا ، ترجمة على الجارم ، دار المعارف ، القاهرة ،
١٩٤٤ .

البيدق : أبو بكر الصنهاجي .

٢١ — أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، نشر بعناية
ليفي بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٨ .

التبريزي : أبو زكريا يحيى بن علي .

٢٢ — شرح قصيدة كعب بن زهير في النبي صلى الله عليه وسلم ،
تح . ق . كرنكو ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧١ .

التجاني : أبو عبدالله محمد بن أحمد .

٢٣ — رحلة التجاني ، كتابة الدولة للمعارف ، تونس ، ١٩٥٨ .

التجيبى المرسي : أبو بحر صفوان بن ادريس .

٢٤ — زاد المسافر وغرّة محيا الأدب السافر ، تح . عبد القادر محداد ،
دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٧١ .

أبو تمام : حبيب بن أوس .

٢٥ — ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ، تح . محمد عبدة عزام ، دار
المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

ابن تومرت : محمد .

٢٦ — أعز ما يطلب ، دون نشر وتاريخ .

الشعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل .

٢٧ — يتيمة الدهر في محاسن شعراء أهل العصر ، تح . محمد
محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ،
١٩٥٦ .

ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد الكفاي الأندلسي .

٢٨ — رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٩ .

الجراري : عباس .

٢٩ — الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحد : عصره ، حياته
وشعره ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٤ .

جنون : عبدالله .

- ٣٠ — ذكريات مشاهير رجال المغرب : أبو حفص عمر ، عدد ٣ ،
معهد مولاى الحسن ، تطوان ؟ .
- ٣١ — ذكريات مشاهير رجال المغرب : أبو العباس الجراوي ، عدد ٦ ،
معهد مولاى الحسن ، تطوان ؟ .
- ٣٢ — ذكريات مشاهير رجال المغرب : الأمير سليمان الموحدى ،
عدد ١٠ ، معهد مولاى الحسن ، تطوان ؟ .
- ٣٢ — النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،
١٩٦١ .

حتاملة : محمد عبده .

- ٣٤ — محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها ، نشر بدعم
من الجامعة الأردنية ، مطابع دار الشعب ، عمان ، ١٩٧٧ .

الحجى : عبد الرحمن على .

- ٣٥ — التاريخ الأندلسى من الفتح الاسلامى حتى سقوط غرناطة ، دار
القلم ، بيروت والرياض ، ١٩٧٦ .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسى .

- ٣٦ — جمهرة انساب العرب ، تح . عبد السلام هرون ، دار المعارف ،
القاهرة ، ١٩٦٢ .

الحموى : أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى .

- ٣٧ — معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ .

الحميرى : محمد بن عبد المنعم .

- ٣٨ — الروض المعطار في خبر الأقطار تح . احسان عباس ، مكتبة
لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٣٩ — صفة جزيرة الاندلس « منتخبة من الروض المعطار » ، تح .
ليفي بروفنسال ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،
١٩٣٧ .

ابن حنبل : أحمد بن حنبل .

٤٠ — المسند ، المكتب الاسلامي دار صادر ، بيروت ، ؟ .

الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي .

٤١ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري للطباعة
والنشر والتوزيع ، بيروت ، ؟ .

الحوفي : أحمد .

٤٢ — البطولة والأبطال ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ،
١٩٦٧ .

ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحمد
السلماني .

٤٣ — الاحاطة في أخبار غرناطة ، تح . محمد عبد الله عنان ، مكتبة
الخانجي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٣ .

٤٤ — أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الاسلام .

★ ق ٢ ، نشرة ليفي بروفنسال تحت عنوان : « تاريخ أسبانيا
الاسلامية » دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦ .

★ ق ٣ ، تح . أحمد العبادي ومختار الكتاني ، نشر تحت عنوان :
« تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » ، دار الكتاب ،
الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .

٤٥ — رقم الحلل في نظم الدول ، المطبعة العمومية ، تونس ،
١٣١٦ هـ .

ابن خلدون : عبد الرحمن محمد بن خلدون .

٤٦ — العبر وديوان المبتدأ والخبر... ، دار الكتاب اللبناني ،
بيروت ، ١٩٥٩ .

٤٧ — مقدمة ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، ؟ .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد .

٤٨ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح . احسان عباس ، دار
صادر بيروت ، ١٩٦٨ — ١٩٧٢ .

الداية : محمد رضوان .

٤٩ — أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ، ١٩٧٦ .

٥٠ — تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، دار الأنوار ، بيروت ،
١٩٦٨ .

الدسوقي : عمر .

٥١ — الفتوة عند العرب أو أحاديث الفروسية والمثل العليا ، مكتبة
نهضة مصر ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٥٩ .

الذهبي : الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد .

٥٢ — العبر في خير من عنبر ، ج ٤ ، تح . صلاح الدين المنجد ،
وزارة الارشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٣ .

الرصافي البلسني : أبو عبدالله محمد بن غالب .

٥٣ — الديوان ، تح . احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ،
١٩٦٠ .

الرعيبي الاشبيلي : أبو الحسن علي بن محمد .

٥٤ — برنامج شيوخ الرعيبي ، تح . ابراهيم شيوخ ، المطبعة الهاشمية ،
دمشق ، ١٩٦٢ .

ابن الرومي : أبو الحسن علي بن العباس .

٥٥ — الديوان ، اختيار وتصنيف كامل الكيلاني ، المكتبة التجارية
الكبرى ، القاهرة ، ؟ .

ابن الزبير : أبو جعفر أحمد بن ابراهيم .

٥٦ — صلة الصلة ، تح . ليفي بروفنسال ، الرباط ، ١٩٣٧ .

الزيدي : أبو بكر محمد بن الحسن .

٥٧ — طبقات النحويين واللغويين ، تح . محمد أبو الفضل ابراهيم ،
نشر محمد أمين الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

سالم : عبد العزيز .

٥٨ — المغرب الكبير ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ،
١٩٦٦ .

السبتي : محمد بن القاسم الأنصاري .

٥٩ — الاخبار عما كان بثغر ستة من سنى الآثار ، تح . عبد الوهاب
ابن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٦٩ .

ابن السراج : الوزير محمد بن محمد السراج الأندلسي .

٦٠ — الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تح . محمد الحبيب
اهيلة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٠ .

ابن سعيد : علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد .

٦١ — رايات المبرزين وغايات التمييزين ، تح . النعمان عبد المتعال

القاضي ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٦٢ — الفصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة ، تح . ابراهيم

الأبياري ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٧ .

٦٣ — المغرب في حلى المغرب ، تح . شوقي ضيف ، دار المعارف ،

القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٤ .

سلام :ض محمد زغلول .

٦٤ — تاريخ النقد العربي من القرن الخامس الى القرن العاشر الهجري ،

دار المعارف ، القاهرة ، ؟ .

ابن سهل : أبو اسحق ابراهيم بن سهل الاشبيلي .

٦٥ — الديوان ، تح . احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ،

١٩٦٧ .

السهيلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله .

٦٦ — الروض الأنف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية

لابن هشام ، مطبعة الجمالية ، مصر ، ١٩١٤ .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن .

٦٧ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تح . محمد أمين

الخانجي ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٦ هـ .

الشايب : أحمد .

٦٨ — أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٥ ،

١٩٥٥ .

- الشثري : أبو الحسن علي بن بسام .
 ٦٩ — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ج ١ ق ١ ، جامعة فؤاد
 الأول ، كلية الآداب ، القاهرة ، ١٩٣٩ .
- ابن صاحب الصلاة الباجي : عبد الملك بن محمد بن أحمد .
 ٧٠ — المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم
 الوارثين ، ج ٢ ، تح . عبد الهادي التازي ، دار الأندلس ،
 بيروت ، ١٩٦٤ .
- الصحراوي : عبد القادر .
 ٧١ — جولات في تاريخ المغرب ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ،
 ١٩٦١ .
- الضبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي .
 ٧٢ — بغية المتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكتاب
 العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ضيف : شوقي .
 ٧٣ — البطولة في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- عاشور : سعيد .
 ٧٤ — أوروبا العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،
 ط ٢ ، ١٩٦٢ .
- عباس : احسان .
 ٧٥ — تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ،
 بيروت ، ١٩٦٠ .
- ٧٦ — تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن
 الهجري ، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧١ .

عبد الرحمن : نصرت .

٧٧ — شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ (العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع) ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٧٧ .

٧٨ — الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الأدبي الحديث ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٧٦ .

ابن عذارى : أبو عبدالله محمد بن عذارى المراكشي .

٧٩ — البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ق ٣ ، عني بنشره امبروسي هويسبي مرانده مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد الكتاني ، معهد مولاي الحسن ، تطوان ، ١٩٦٠ .

ابن عساكر : علي بن الحسن بن هبة الله .

٨٠ — تهذيب ابن عساكر ، هذبة ورثه الشيخ عبد القادر بن بدران ، دمشق ، ١٣٣٠ هـ .

عفيفي : أبو العلاء .

٨١ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

علام : عبدالله علي .

٨٢ — الدولة الموحدية بالمغرب في عهد المؤمن بن علي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

عنان : محمد عبدالله .

٨٣ — عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٨٤ — نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ .

الغريني : أبو العباس أحمد بن عبد الله .

٨٥ — عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة ببجاية ،
تح . عادل نويهض ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بيروت ،
١٩٦٩ .

الغرناطي : أبو القاسم محمد بن أحمد .

٨٦ — رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، مطبعة السعادة ،
مصر ، ١٣٤٤ هـ .

الفاسي : علي بن أبي زرع .

٨٧ — الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ
مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٢ .

٨٨ — الذخيرة السنينة في تاريخ الدولة المرينية ، دار المنصور للطباعة
والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٢ .

الفاسي : محمد .

٨٩ — شاعر الخلافة الموحدية أبو العباس الجراوي ، مطبوعات جمعية
قدماء تلاميذ مدرسة جسوس ، الرباط ، ١٩٥٢ .

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر .

٩٠ — تقويم البلدان ، تصحيح زينود وماك كوكين ديسلان ، باريس ،
دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠ .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم .

٩١ — الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤ .

القرطاجني : أبو الحسن حازم بن محمد .

٩٢ — منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تح . محمد الحبيب أبو الخوجة ،
دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦ .

ابن القطان : أبو علي حسن بن أبي الحسن الكتامي .

٩٣ — نظم الجمان ، ج ٦ ، تح . محمود علي مكّي ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ؟ .

القفطي : جمال الدين أبو الحسن علي .

٩٤ — تاريخ الحكماء وهو المسمى (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) مكتبة المثنى ومكتبة الخانجي ، بغداد والقاهرة ، ؟ .

ابن القنفذ القسنطيني ، أبو العباس أحمد بن حسين .

٩٥ — الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية تح . محمد الشاذلي ، وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية ، تونس ، ١٩٦٨ .

ابن القيم الجوزية : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر .

٩٦ — الفروسية ، تح . عزت العطار الحسيني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ؟ .

كتاب الدولة المؤمنية :

٩٧ — مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية ، جمعها ليفي بروفنسال ، المطبعة الاقتصادية ، رباط الفتاح ، ١٩٤١ .

الكتبي : محمد بن شاكر .

٩٨ — فوات الوفيات ، تح . محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٩٥١ .

ابن كثير : عماد الدين الدين اسماعيل بن عمر .

٩٩ — البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣٢ .

الكلبي : محمد بن أحمد بن محمد بن جزي .

١٠٠ — التسهيل لعلوم التنزيل ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ١٣٥٥ هـ .

المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين .

١٠١ — ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ، المطبعة الأدبية ، بيروت ،
١٣٠٥ هـ .

مجهول :

١٠٢ — الحلل الموسية في ذكر الأخبار المراكشية ، اعتنى بنشره
وتصحيحه س. علوش ، المطبعة الاقتصادية ، رباط الفتح
١٩٣٦ .

المراكشي : عباس بن ابراهيم .

١٠٣ — الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، المطبعة الجديدة ،
فاس ، ١٩٣٦ .

المراكشي : محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي .

١٠٤ — المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح . محمد سعيد العريان ،
المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

المفضل الضبي : المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر .

١٠٥ — المفضليات ، تح . عبد السلام هرون وأحمد محمد شاكر ، دار
المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٦٤ .

المقرئ التلمساني : شهاب الدين أحمد بن محمد .

١٠٦ — أزهار الرياض في أخبار القاضي عياضه ، تح . مصطفى السقا
وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٣ ، ؟ .

١٠٧ — نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها
لسان الدين ابن الخطيب ، تح . احسان عباس ، دار صادر
بيروت ، ١٩٦٨ .

المقريري : تقي الدين احمد بن علي .

١٠٨ — السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح . مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

مكليس : أرشيالذ .

١٠٩ — الشعر والتجربة ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، مراجعة توفيق صايغ ، دار اليقظة العربية ، بيروت ، ١٩٦٣ .

ملين : محمد الرّشيد .

١١٠ — عصر المنصور الموحدى أو الحياة السياسية والفكرية والدينية في المغرب من ٥٨٠ الى ٥٩٥ هـ ، مطبعة الشمال الافريقي ، الرباط ، ؟ .

ابن منصور : عبد الوهاب .

١١١ — قبائل المغرب ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٦٨ .

ابن منظور : جمال الدين محمد .

١١٢ — لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٨ .

المتونى : محمد .

١١٣ — العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين ، معهد مولاي الحسن ، تطوان ، ١٩٥٠ .

الموحد : الأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله الموحد .

١١٣ — الديوان ، تح . محمد بن تاويت الطنجي وآخرين ، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ؟ .

الناصرى : أبو العباس أحمد بن خالد السلاوى .

١١٤ — الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تح . ولدى المؤلف : جعفر ومحمد ، مطبعة دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

١١٥ — زهر الأفنان من حديقة أبي الّوزان ، مطبعة حجرية .

النباهي المالقي : أبو الحسن علي بن عبد الله .

١١٦ — المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، المكتب التجاري

للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ؟ .

النجار : عبد الوهاب .

١١٧ — قصص الأنبياء مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

الواقدي : أبو محمد عبد الله بن عمر .

١١٨ — فتوح افريقية ، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٦٦ .

ج - المجلّات :

البستاني : الفريد .

١ - تحفه القادم (مقتضب) ، مجلة المشرق ، بيروت ، مجلد ٤١ ،
سنة ١٩٤٩ .

٢ - الموحدون والوحدة الاسلامية ، مجلة التربية الوطنية ، الرباط ،
عدد مارس وأبريل ، ١٩٦١ .

غومس : امليوغرسية .

٣ - قصيدة سياسية لابن طفيل لم تنشر ، تعريب أحمد هيكل ، مجلة
المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، مدريد مجلد ٣ ،
سنة ١٩٥٣ .

موسى : عزّ الدين عمر .

٤ - التنظيمات الحزبية عند الموحدين ، مجلة أبحاث ، الجامعة
الاميركية ، بيروت ، مجلد ٢٣ ، سنة ١٩٧٠ .

Burkhardt, T.

- 1 - Moorish Cultures in Spain, Trans . by Alisa Jaffa, London, 1972.
- 2 - Encyclopaedia of Islam, Leyden, 1913.
Foster, J.
- 3 - History of the dominion of the Arabs in Spain, Trans. from Spanish of Dr. J. A. Condé, London, 1913.
Ibrahim, M.
- 4 - Martial poetry under the Hamdanids of Aleppo, Ph. D., London, 1965.
Imamuddin, S. M.
- 5 - Apolitical Hist. of Moslim in Spain, Pakistan, Sec. Ed., 1969.
Orton. C. W. P.
- 6 - Out lines of Medievel Hist., Cambridge, 1924.
Painter, S.
- 7 - A. Hist. of the Mid. Ages, New York, 1954.
Read, J.
- 8 - The Moors in Spain and Portugal, London, 1974.
Stephenson, C.
- 9 - Medieval Hist., New York, 1942.
Tout, T. F.
- 10 - The Empire and the Papacy, London, 1924.

المحتوى

| الصفحة | |
|-----------|---|
| أ | مقدمة..... |
| ٩ - ٤٦ | تمهيد : الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية على عهد الموحدين : |
| ١١ | ١ - الحياة السياسية..... |
| ٢١ | ٢ - الحياة الاجتماعية..... |
| ٣١ | ٣ - الحياة الفكرية..... |
| ٤٧ - ٨٠ | الفصل الأول : طبيعة الصراع في شعر الجهاد : |
| ٤٩ | ١ - جهاد في سبيل الله..... |
| ٦٥ | ٢ - العروبة في شعر الجهاد..... |
| ٨١ - ١١٨ | الفصل الثاني : شخصيّة البطل في شعر الجهاد : |
| ٨٣ | أ - مفهوم البطولة..... |
| ٨٤ | ب - دور البطل في الصراع..... |
| ٩٤ | ج - القيم والمثل العليا في شعر الجهاد..... |
| ١١٩ - ١٥٤ | الفصل الثالث : صورة الصليبيين في شعر الجهاد : |
| ١٢١ | أ - عقيدة الصليبيين..... |
| ١٢٨ | ب - الجيش الصليبي..... |
| ١٣٤ | ج - تصوير هزائم الصليبيين..... |
| ١٣٧ | د - القائد الصليبي..... |
| ١٤٣ | هـ - الصراع الحضاري..... |
| ١٤٩ | و - حلفاء الصليبيين..... |
| | الفصل الرابع : |
| ١٥٥ - ٢١٦ | مواكبة الشعر لأحداث الصراع..... |

الصفحة

٢١٧ — ٢٨٥

الفصل الخامس : تقييم شعر الجهاد

٢١٩

أ — دور الشعر في الصراع.....

ب — الأداء الفني :

٢٣٩

١ — بناء القصيدة.....

٢٤٤

٢ — الصورة الشعرية.....

٢٥٥

٣ — الاحتذاء والتقليد.....

٢٧٨

٤ — أثر مقاييس العصر الأدبية.....

٢٨٦

الخاتمة.....

الفهارس :

٢٩١

الأعلام.....

٣٠٥

القبائل والطوائف والجماعات.....

٣٠٩

الأماكن والبلدان.....

٣١٩

المصادر والمراجع.....

This thesis is a study of the Poetry of Jihad in Almohades era.

It consists of five chapters, an introduction and a conclusion.

In the introduction, there is a general survey of the Political, social and cultural life under Almohades rule.

* The first chapter deals with the Islamic conception of the nature of conflict between Moslems and the Crusaders and the role of poetry in reflecting this conflict. The fight against crusaders is envisaged as "Jihad" motivated by religious belief and orientated to defend the Moslem faith through defending Islamic rule. This religious spirit is explicitly reflected in the poetry of Jihad and manifested itself in different ways.

The Arabic tribes, inhabiting North Africa, played a significant part in defending Islam through "Jihad". Thus, Poets did not fail to describe and praise this contribution on the part of these tribes, within the context of "Jihad" and Islamic bonds.

** The second chapter reveals the concept of the "Hero" as described in the Poetry of Jihad. Heroism in this context is based merely on individual extra-ordinary merits and attributes as much on collective efforts. Thus, although a hero starts as an individual, he ends up a model reflecting the general ideals of the Moslem hero.

*** The third chapter throws light on the picture of the Crusaders as conceived in the Jihad poetry under Almohades.

Crusaders are discribed with much contempt but, nevertheless underestimating their danger and real strength. Poetry gives detailed picture of their utmost brutality in war and in their treatment of Moslems, in order to provoke the Moslem feeling against them and to envoke the spirit of "Jihad" among Moslems.

The poetry of Jihad also portrayed the Crusaders army : its size, the different weapons used thereby its leaders and organisation.

**** Chapter four discusses the role of the poetry of Jihad in depicting the major events of the conflict between Moslems and crusaders. It also examines the validity of this poetry as a source of historical information.

***** Chapter five concludes the main body of the thesis, with an evaluation of the poetry of Jihad in this period : both in terms of its functional role and artistic style.